Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. عبد الوهاب المسيري

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ

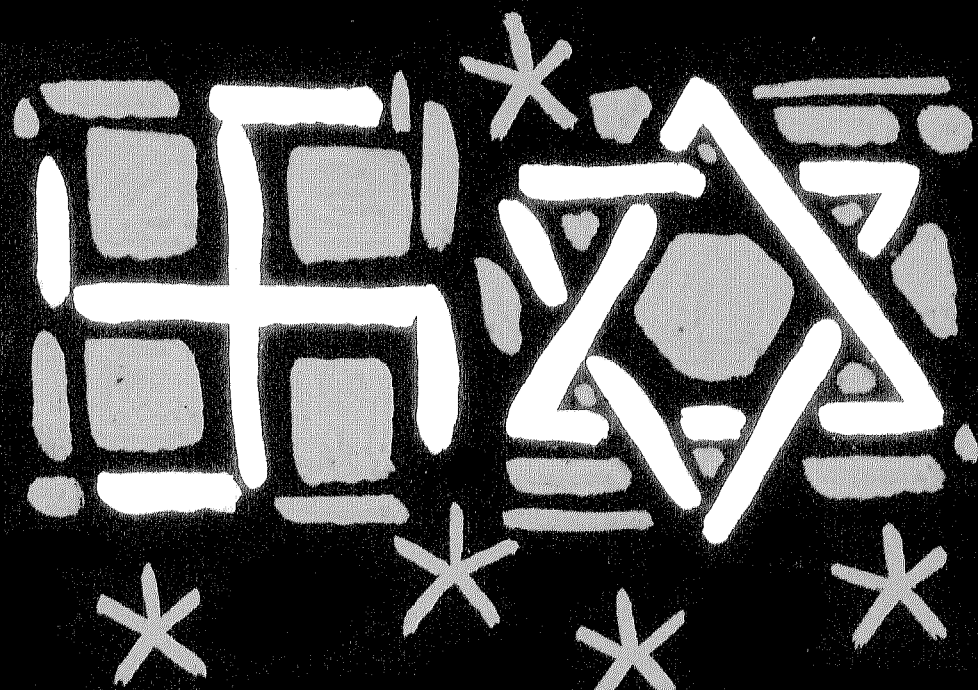

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ

رؤية حضارية جديدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ

رؤية حضارية جديدة

د . عبد الوهاب المسيري

تقديم

الأستاذ محمد حسنين هيكل

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهـــداء

إلى رجـــاء جـــارودى

د. عبد الوهاب المسيرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

[المائدة : ٣٢]

« وليس الغرض مسك دفاتر حسابية مؤلمة ومفجعة . فقتل إنسان برىء ، سواء أكان يهودياً أم لم يكن ، هو جريمة ضد الإنسانية »

رجاء جارودي : **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

للأستاذ محمد حسنين هيكل

أظن أننا في حالة الحرب وفي حالة السلام معاً نحتاج إلى معرفة أكثر بإسرائيل . فليس هناك من يستطيع أن يحارب طرفاً لا يعرفه ، وليس هناك من يستطيع أن يسالم طرفاً لا يعرفه أيضاً .

ولعل المعرفة بالآخر تكتسب لنفسها أهمية أكثر في حالة من نوع ما هو قائم الآن بين العرب وإسرائيل .

* فلا هي الحرب - لأن الطرف العربي لا يملك الضرورات الأساسية للحرب : *تحديد الهدف بوضوح . * وامتلاك الوسائل بثقة . * وتهيئة الظروف داخل مجال الصراع وخارجه بكفاءة . * والتحصن بالإرادة والتفرقة بينها وبين أحلام اليقظة بحزم .

* وفي نفس الوقت فإن السلام لم يجئ لأن السلام له اشتراطات : * الرضا الاختياري بصلاحية الفرصة المناسبة لصنعه ، وليس الجري تحت فرقعة السياط إلى موائده . * والإحساس بأن ما هو مطروح على المائدة يوفر توازناً في الأمن والمصالح . * والتأكد من أن أحداً لا يملك ميزة احتكارية يفرض بها إرادته إلى حد طلب الإذعان . * والرضا عن اتساق نتائجه مع الطبيعة والتاريخ دون شذوذ .

الحرب إذن بعيدة ، والسلام أبعد منها .

لكن هناك ثالثة ، لا هي السلام ولا هي الحرب ، لا هي الإذعان لأحكام الواقع ولا هي القدرة على تحدي هذه الأحكام . وفي وقت من الأوقات كان يطلق على شيء من هذا النوع وصف حالة «اللاسلم واللاحرب» ، لكن هذا الوصف في الأحوال المستجدة يحتاج إلى مراجعة لأن الواقع أكثر تعقيداً منه وأشد التباساً !

* * *

كان تعبير «اللاسلم واللاحرب» يعبِّر عن ظرف معيَّن بدا فيه السلام بعيداً، لكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاستعداد للحرب كان حاضراً يواصل تجهيز نفسه لاختبار السلاح . أما الآن فإن السلام لم يدخل بعد إلى الميادين ، لكن السلاح غادرها حاملاً الذخائر والخرائط أيضاً !

أي أن هناك ما يمكن أن نسميه حالة غياب ـ تكاد تكون غياباً عن التاريخ ذاته ، ماضيه وحاضره والمستقبل !

إن حالات الغياب التاريخي التي تعتري الأمم في بعض اللحظات من تجاربها ـ ليست فراغاً ، لأن هناك فارقاً بين الغياب والفراغ .

وفي حالة الغياب فإن هناك دائماً إحساساً بأن كل غياب تعقبه عودة بصرف النظر عن المواقيت . وهكذا فإن حالة الغياب كثيراً ما تكون فرصة ملائمة لتهيئة ظروف العودة وشروطها بما فيها : إلى أين بعد العودة ؟

ويصبح الغياب في هذه الحالة عملية احتكاك وتفاعل مع الأفكار ومع احتمالات لم تظهر بوادرها بعد ، وهي مفتوحة لمختلف العوامل والمؤثرات . وفي هذه الحالة تدخل إلى الساحة توجهات متعارضة لا تحدث فرقعة ولا تسفك دماً لأن العملية تكون حتى الآن عناصر كيمياء تتخلق داخل عقول الناس وفي فكرهم - تدور حول فكرة العودة وأشكالها وسبلها .

وفي الوضعية العربية الراهنة ـ والحرب مع إسرائيل بعيدة وكذلك السلام ـ فهناك بالفعل توجهات متعددة :

* توجه يرى أن الحضور في التاريخ شرطه الاعتراف بالأمر الواقع كما هو . والأمر الواقع كما هو لصالح إسرائيل . وإذن فلنقبل بالحقبة الإسرائيلية وإلا فنحن غير عمليين وغير واقعيين ـ وهذا توجه يتكفل بحقائق الأشياء وبتحويل الغياب إلى غيبوبة تخرج بأصحابها من التاريخ أكثر مما تعود بهم إلى مجاريه !

* توجه يرى أن الحضور في التاريخ شرطه مسايرة التيار الغالب . والتيار الغالب كما يقول أصحاب هذا التوجه نظام عالمي جديد تسيطر عليه وتحركه الولايات المتحدة . ولما كانت إسرائيل هي الصديق الأهم لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة ، فإن المستقبل مضمون بأن نتنافس أو نتعاون مع إسرائيل في صداقة الولايات المتحدة وسياساتها ـ وهذا توجه ينسى أن التاريخ يصنعه الشجعان ولا تصنعه القطعان !

* ثم توجه آخر لعله أصعب التوجهات جميعاً لأنه يجعل من العودة إلى النفس مقدمة ضرورية للعودة من الغياب إلى الحضور التاريخي الحي والفاعل.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظني أن أصحاب هذا التوجه أقرب من غيرهم إلى الحقيقة إذا اتفقنا أن الحق أقرب الطرق إلى الحقيقة ، حتى وإن كان ـ وهو كذلك بالفعل ـ أصعبها وأشدها مشقة .

أصحاب هذا التوجه يُقدِّرون :

ـ أن الاعتراف بالأمر الواقع ترسيخ للغياب من حيث هو اعتراف بالآخر وحده .

ـ ثم إن الالتحاق بالغالبين في موقف حيرة وضعف إنكار لدوافع ومحركات التطور والتقدم ، ثم هو في أحسن الأحوال استبدال الغياب بالاغتراب .

وهكذا ـ في تقدير أصحاب هذا التوجه ـ أن العودة إلى النفس وفي التاريخ والعصر وليس خارجهما هي باب العودة الوحيدة الضروري والممكن .

لكن الأخذ بهذا التوجه الأصعب والأشق يقتضي معرفة واسعة تستطيع أن تساعد على القياس والتحديد والضبط بما يجعل رسم الخرائط لمسارات العودة من الغياب متاح ممكن .

* * *

وهنا يجيء دور رجال من نوع الدكتور عبد الوهاب المسيري يملكون حكمة تجاوز اللحظة ، وجسارة البحث عن الحقيقة ، وشجاعة الاقتراب من آفاقها والمشي بالفعل على تخومها وتضاريسها .

وفي وقت من الأوقات كانت هناك محاولات لمعرفة إسرائيل تحت شعار «إعرف عدوك» ـ لكن هذه المعرفة كانت نوعاً من التعبئة المشحونة فات وقته ، ولعل المحاولة منذ البداية كانت متخلفة من الأساس .

ثم جاء بعد ذلك وقت انقلبت فيه الآيات جميعاً ، فإذا محاولة التعريف بإسرائيل عملية تسويق خاطفة الأضواء ، باهرة الألوان ، عالية الأصوات ـ مؤداها أن إسرائيل نموذج يُحتذى للتقدم إذا كنا نريده وللعصر إذا كنا نقصده ـ هكذا قيل لنا ولا يزال يقال !

وفي التعبئة السابقة وفي التعليب الجديد أظهر التسطيح أنه لا يصلح أداة للمعرفة .

والشاهد أن المعرفة التي يقدمها الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذا الكتاب وفي غيره مما كتب تجربة مختلفة بالكامل . فمنذ الستينيات أخذ عبد الوهاب المسيري على نفسه مهمة أعطاها عقله وقلبه وأحلى سنوات عمره ، وهي مهمة دراسة الدين اليهودي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتواريخ والهويات اليهودية ، حتى وقع ذلك الانحراف الخطير الذي أدخلته الحركة الصهيونية على الدين والتاريخ والهوية كلها معاً .

لثلاثين سنة والرجل شبه منقطع لهذه المهمة حتى أوشك أن يصبح موسوعة حية للموضوع ، بل استقر أخيراً على أن يودع ما يعرفه في موسوعة بالفعل أوشكت أن تصل مطبوعة إلى عامة المهتمين والقراء .

وإذ يتقدم عبد الوهاب المسيري بهذا الكتاب الذي اختار له عنوان **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ** ـ فإنه بذلك يشير إلى عمل عظيم على الطريق يستحق جهده ، ويستحق الذين ينتظرونه .

محمد حسنين هيكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُقدِّمة

تهدف هذه الدراسة إلى زيادة المعرفة ، الإنسانية والعربية ، بقضية إنسانية شائكة للغاية وخلافية إلى أقصى حد ، وهي قضية الإبادة النازية ليهود أوربا . وقد أصبحت مثل هذه الدراسة مسألة ضرورية ومُلِّحة بسبب الخلط والفوضى الفكرية والأخلاقية التي تحيط بالقضية . فالخطاب الحضاري الغربي يحاول اختزال الإبادة النازية وفرض منطق ضيق متحيِّز عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي الحديث حتى تتحول من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد جماعة إثنية ودينية تعيش في كنف واحد من أكثر المجتمعات الغربية «تقدماً» ، ومن تعبير عن نمط إبادي عام بدأ منذ عصر النهضة (في الغرب) في أمريكا الشمالية ولا يزال مستمراً في فيتنام والشيشان ، تتحول إلى مجرد جريمة ارتكبها الألمان على وجه الخصوص، ضد اليهود وضد اليهود وحدهم . بل يُلاحَظ أن الإبادة النازية تتحول في كثير من الأدبيات الغربية ، خصوصاً الصهيونية ، إلى أيقونة تشير إلى ذاتها ، وسر من الأسرار التي يعجز العقل عن الإحاطة بها .

ومع التسليم بأن ظاهرة الإبادة النازية لليهود (أو الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية) لها تفردها ، ومع التسليم أيضاً بأن هذه الظاهرة مركبة إلى حدٍّ كبير وبأن تفسيرها الكامل والتام أمر مستحيل (وهي في هذا لا تختلف كيفيًا عن معظم الظواهر الإنسانية الأخرى) ، فإننا نذهب إلى أن من الممكن ، رغم كل هذا ، حصر كثير من العناصر التاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي قد تساهم إلى حدٍّ كبير في تفسير جوانب كثيرة مما حدث وفي إلقاء الضوء عليه ، دون أن نزعم بالضرورة أننا أتينا بالتفسير الكلي والنهائي للظاهرة .

وستحاول هذه الدراسة إنجاز هذا الهدف عن طريق تحديد المصطلحات والمفاهيم التي تم خلطها ، وعن طريق إبراز الكثير من الحقائق السياسية والحضارية التي تم تجاهلها ، وعن طريق التأكيد على أهمية بعض الشخصيات اليهودية أو غير اليهودية التي تم تهميشها في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التواريخ المتداولة . وهي عملية نأمل أن تؤدي إلى « مراجعة » الرؤية التاريخية المهيمنة والنماذج التفسيرية السائدة وإلى فهم الظاهرة موضع الدراسة فهماً أعمق ، الأمر الذي قد يتيح تحديد حجم الجريمة وموضع المسئولية بشكل أكثر تركيبية .

ومعظم الدراسات في موضوع الإبادة النازية في العالم العربي تلجأ إلى عملية السرد التاريخية المباشرة ومراكمة المعلومات والحقائق بطريقة موضوعية متلقية . كما أنها ذات طابع سياسي مباشر ، مرتبط تمام الارتباط بالصراع العربي الإسرائيلي ، منحصرة داخل نطاقه ، لا تتجاوزه . وإن حدث وتجاوز الدارس نطاق الممارسة السياسية وتناول الأفكار الكامنة وراء النازية ، فإنه عادةً يتعامل معها باعتبارها أفكاراً منفصلة ، لا باعتبارها أجزاءً من منظومة فكرية حضارية متكاملة . وعادةً ما تركز مثل هذه الدراسات على مجموعة من القضايا والإشكاليات دون غيرها مثل : ما هو عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود ؟ هل تم حرق اليهود بالفعل في أفران الغاز ؟ كيف توظف إسرائيل الإبادة لصالحها ؟ وطريقة السرد التاريخية المباشرة ومراكمة المعلومات والحقائق والتعامل مع الظاهرة النازية على المستوى السياسي أو باعتبارها مجموعة أفكار هي طريقة ولا شك لها مقدرتها التفسيرية ، ولكنها ـ في تصوري ـ ضعيفة إلى حد كبير ، بالمقارنة بمناهج أخرى . كما أن الإشكاليات التي تثيرها لا تتسم بالتركيب أو الرَّحابة أو العمق ، وهي علاوة على هذا تستبعد قدراً كبيراً من القضايا والأسئلة المهمة .

وهذا الكتاب يتناول الظاهرة النازية ، انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي ، يتجاوز السرد التاريخي والمستوى السياسي المباشر ومنطق مراكمة المعلومات والحقائق ، ويتعامل معها مستخدماً منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية (انظر الملحق) التي تتبدَّى من خلالها الأسس والمعايير الحضارية والأهداف والغايات النهائية التي تساهم في تحديد سلوك الإنسان (فالإنسان ، في تصورنا وتصور الكثيرين ، ليس مادة صماء تعكس حركة المادة بشكل مباشر ، حتمي آلي أبله) . في هذا الإطار طرحنا إشكالية علاقة النموذج المهيمن على الحضارة الغربية الحديثة بالإبادة النازية لليهود وغيرهم ، وإشكالية العلم المنفصل عن القيمة والضمير ، والتجريب المنفصل عن العقل .

ويعود اهتمامي بالأبعاد الحضارية والمعرفية للظاهرة النازية إلى أوائل السبعينيات حين وضعت كتاب **نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني** (١٩٧٢) الذي تناولت فيه أطروحة نهاية التاريخ وبيَّنت مركزيتها في الفكر الغربي الفاشي : الصهيوني والنازي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي قسم بعنوان : «الصهيونية والنازية : رؤوس موضوعات» (ص ١١٩ - ١٢٥) بيَّنت العلاقة بين الأيديولوجيتين على المستوى المعرفي .

ثم عُدت للقضية مرة أخرى عام ١٩٨٠ حين وضعت كتاب **الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** من جزأين (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) حيث عمقت البُعد المعرفي والحضاري لدراستي للصهيونية وأشرت إلى ضرورة دراسة الظاهرة النازية بالطريقة نفسها بحيث يُنظر إلى كل من الصهيونية والنازية باعتبارهما جزءا لا يتجزأ من تاريخ الفكر الغربي والحضارة الغربية ومن ثم لا يمكن دراستهما بمعزل عن التيارات الفكرية والحضارية الغربية المختلفة بمعزل عنهما . وقد أشرت في الجزء الثاني من الكتاب في قسم بعنوان « الصهيونية والنازية » إلى أن الدراسات الغربية في الموضوع قلما تتجاوز البُعد السياسي الاعتذاري . فهذه الدراسات (كما بيَّنت في صفحة ٣٦ ـ ٤٠) قد أخفقت في أن تبيِّن أن النازية لم تكن انحرافاً عن الحضارة الغربية ، وإنما هي تيار أساسي فيها كالصهيونية تماماً :

* فالحضارة الغربية حضارة تكنولوجية تُعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها ، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائماً ، وتهمل كثيراً من القيم التقليدية «البالية» ، مثل البر بالضعفاء والشهامة والتقوى ومساعدة الآخرين . والنازية حينما أبادت اليهود والعجزة كانت تفعل ذلك لأنهم «غير نافعين» . وموضوع تحويل اليهود إلى شعب منتج ـ كما بيَّنا من قبل ـ كان مطروحاً في أوربا ، في شرقها ووسطها بخاصة . وكان عدد كبير من يهود ألمانيا «إيست يودين» ، أي من يهود شرق أوربا الذين لفظهم الجيتو ، والذين لم تستوعبهم مجتمعاتهم أو أي من المجتمعات الأوربية الأخرى ، نظراً لتخلفهم الحضاري والاقتصادي يُعَد فائضاً بشرياً لا نفع له . وقد حاولت ألمانيا التخلص من هذا الفائض الإنساني غير النافع بإرسالهم في قطارات إلى بولندا التي رفضتهم ، كما رفضهم كثير من الدول الأخرى ، ومنها الولايات المتحدة التي لم توافق على فتح أبواب الهجرة أمامهم . إن العالم الغربي ، برفضه هؤلاء اليهود ، أيَّد ضمنياً الجريمة النازية ووافق على منطلقاتها الفلسفية ، حتى وإن لم يوافق على الشكل المتطرف الذي اتخذته .

* ويجب أن نتذكر أن الحل النازي للمسألة اليهودية لا يختلف كثيراً عن الحلول الغربية الإمبريالية المطروحة للمشاكل المماثلة . فالنازية والإمبريالية تَصدُران عن الإيمان بتفوُّق الجنس الآري على الأجناس الأخرى ، وأن هذا التفوق يعطي الحق للآريين في أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتخلصوا من مشاكلهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى ، حتى ولو أدّى هذا إلى إبادة السكان الأصليين . والحل النازي لا يختلف عن ذلك ، فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية إلى الدول الأوربية الأخرى (حيث إن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في أوربا) . فالنازيون ، حين وجدوا أن الطريق مسدوداً أمامهم ، قاموا بتصدير اليهود (والغجر والسلاف) لمعسكرات الاعتقال لإبادتهم هناك . إن الجريمة النازية هي نتاج منطقي للحضارة الغربية الحديثة ، وليست استثناءً .

* وثمة ظاهرة مشتركة بين النازيين والصهاينة (وهي أيضاً سمة أساسية للحضارة الغربية) هي عقلانية الإجراءات والوسائل ، ولاعقلانية الهدف ، وقد أشار ماكس فيبر لهذه الظاهرة في كتاباته . فعملية العقلنة ، أو الترشيد التي يتحدث عنها تنصب على الوسائل والأدوات فحسب ، أما الأهداف فهي أمر متروك لاختيار الأفراد . ومعسكرات الاعتقال والتعذيب ، سواء في ألمانيا النازية أم في إسرائيل الصهيونية ، هي مثال جيد على هذا الجانب في الحضارة الغربية . فهذه المعسكرات منظمة بطريقة «منهجية» تُحْسب فيها حسابات المكسب والخسارة ، وتُحْسب المدخلات والمخرجات . حتى التعذيب لا يتم بشكل عشوائي فردي وإنما يتم بشكل مؤسسي منظم . ويُقال إنه حتى حينما كان اليهود في طريقهم إلى غرف الغاز لم يكن مسموحاً للجنود الألمان بإساءة معاملتهم ، فعملية الإبادة ، هذا النتاج الرائع لحضارة العلم والتكنولوجيا ، يجب أن تتم بحياد علمي رهيب ، يشبه الحياد الذي يلتزمه الإنسان تجاه المادة الصماء في التجارب المعملية التي تتخطى حدود الخير والشر . أما الهدف من معسكرات الاعتقال والإبادة والتعذيب ، والمضمون الأخلاقي لهذه الأشياء ومدى عقلانيتها من منظور إنساني (لأن فكرة العقل والعقلانية لا وجود لهما خارج فكرة الإنسان) ، فكل هذا متروك للزعيم أو للدولة أو للأهواء الشخصية أو للأسطورة الدينية القومية . ولعل هذا التزاوج بين العقلانية واللاعقلانية ناجم عن أن الحضارة الغربية الحديثة نتاج حركة التنوير العقلانية ، والحركة اللاعقلانية المعادية للتنوير في الوقت نفسه ، وهي أيضاً نتاج انفصال النزعة الإمبريقية عن النزعة العقلية ، فالتجريب لا يؤدي بالضرورة إلى انتصار العقل والقيم الإنسانية .

ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء أصيل من الحضارة الغربية هو أن الرد الغربي على معسكرات الاعتقال والإبادة لليهود لم يكن مغايراً ، في بنائه وفي سماته الجوهرية ، للجريمة النازية . فالغرب يحاول حل المسألة اليهودية بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتز يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت . والغرب الذي أفرز هتلر وغزواته هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي ، وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية للجريمة التي ارتُكبت والتي تُرتكب يومياً ضد الشعب الفلسطيني . إن الحضارة الغربية الحديثة قد أفرزت الإمبريالية والنازية والصهيونية ، وهي إذ تتنكر الآن للنازية فهذا أمر مفهوم ، لأن أبعاد الجريمة والفضيحة ضخمة (خصوصاً أن الجريمة ارتُكبت ضد الشعوب الأوربية) . ولكن يجب ألا يَخفي هذا الوضع عن أنظارنا ، او عن أنظار الآخرين ، الحقيقة الأساسية التي تؤكد أن النازية جزء أساسي من الحضارة الغربية " . كما أشرت في الكتاب نفسه (ص ٣٦ - ٤٠) إلى أن الدراسات الغربية للظاهرة النازية تهمل التشابه الفكري والتعاون الفعلي بينها وبين الصهيونية .

وقد ظل الخطاب التحليلي الخاص بالظاهرة النازية في العالم العربي يدور في الإطار السياسي المباشر . وقد لاحظت أن الوضع بدأ يختلف في العالم الغربي . ومن أوائل الدراسات الغربية التي تتجاوز نطاق السياسي المباشر دراسة جورج موس George Mosse **الأصول الفكرية للرايخ الثالث** الذي صدر في الستينيات . حيث يصدر المؤلف عن مقولته الشهيرة « لا يوجد شيء في تاريخ أوربا غريب عن الهولوكوست » . ولكن بدلاً من أن يرى الإبادة في إطار حضاري عريض فإنه يضعها داخل إطار طبقي محدد . فالإبادة ـ في تصوره ـ هي تعبير عن أولويات البورجوازية ومحاولتها خلق حواجز صلبة بين الذات والآخر .

ولكن منذ منتصف الثمانينيات ، مع بداية اهتزاز ثقة الإنسان الغربي بمشروعه التحديثي ، ومع اكتشافه كثير من الجوانب المظلمة للاستنارة الغربية ، ظهرت العديد من الدراسات التي ترى الظاهرة النازية باعتبارها تعبيراً متبلوراً عن هذه النقائص . ففي كتابه **الحداثة والهولوكوست** (١٩٨٥) يذهب زيجمونت باومان Zygmunt Bauman إلى أنه لا يوجد أي تناقض بين الحداثة والإبادة ، فالإبادة - في رأيه - هي تَحقُّق لإحدى الإمكانات الجوهرية الكامنة في الحداثة . « لقد نبعت الإبادة من كل ما نعرفه عن حضارتنا الحديثة أو أولوياتها ورؤيتها الجوهرية للعالم » .

ويذهب جويتس أللي Goetz Aly وسوزان هايم Susanne Heim في دراستهما بعنوان «اقتصاديات الحل النهائي» (١٩٨٨) إلى أن فكرة الحل النهائي ليست نتاج الأساطير النازية الخاصة بالدم والتربة ، وإنما هي نتاج تفكير علمي رشيد يتصل بالاعتبارات الاقتصادية والسياسات السكانية .

أما بيريل لانج Berel Lang فقد أكد في دراسته **الفعل والفكرة في الإبادة النازية** (١٩٩٠) العلاقة الوثيقة بين النازية وفكر حركة الاستنارة . فالعقلانية بنزوعها نحو الكلية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعالمية وعدم تسامحها المبدئي مع الخصوصية بشكل عام (وضمن ذلك الخصوصية اليهودية) خلقت أرضية خصبة أو سببية احتمالية للإبادة . فمفاهيم الاستنارة الأساسية ـ في تصوره ـ تشكل الإطار الفكري للإبادة .

ويُلاحَظ أن كل واحد من هؤلاء المؤلفين قد ركز على عنصر واحد بعينه (أخلاقيات البورجوازية ـ فكر الاستنارة ـ العقلانية التكنولوجية . . . إلخ) ، ولم يحاول أحد منهم أن يرى القضية في إطارها الحضاري الكلي ، كما أن أياً منهم لم ير علاقة النازية بالإمبريالية أو الصهيونية .

وهذا ما حاولنا إنجازه في مؤلفنا هذا حيث ندرس البنية العميقة للنازية ونضعها في سياقها الحضاري الغربي ونبيِّن علاقتها بالصهيونية على مستوى الخطاب المعرفي العميق ونستعيد الإمبريالية كمقولة تحليلية أساسية في كل الظواهر الغربية الحديثة . فنحن نذهب إلى أنه لا يمكن فصل الحضارة الغربية الحديثة بعلمانيتها الشاملة ورؤيتها العقلانية المادية عن نزعتها الإمبريالية .

هذا لا يعني أننا أهملنا المستوى السياسي أو البُعد المعلوماتي في التحليل . فتناولنا معظم ، إن لم يكن كل ، الموضوعات الشائعة المطروقة ، وإن كنا حاولنا مع هذا أن نتناولها بطريقتنا . وقد بذلنا جهداً كبيراً في أن نأتي بمعلومات وحقائق جديدة أتاحت لنا إمكانية إثارة موضوعات جديدة أو غير مطروقة مثل إشكالية تعاون الصهاينة مع النازيين .

وسنلجأ هذه الدراسة إلى ما نسميه «التوثيق المضاد» ، أي أننا سنكتفي ـ إلى حدٍّ كبير ـ بالجهد التفكيكي فنورد من الحقائق والقرائن ما يجعل قبول النموذج التفسيري الغربي الصهيوني المهيمن للإبادة النازية أمراً صعباً ، إن لم يكن مستحيلاً . سنفعل هذا دون أن نبذل جهداً تركيبيًا كبيراً يوضح ماذا حدث بالفعل داخل المجتمع النازي وداخل معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) ، باعتبار أن مثل هذا الهدف يقع خارج نطاق ما نود تحقيقه . ومع هذا يجب أن نشير إلى أننا سنقوم بهذا الجهد التركيبي في محاولة فهم الإطار الحضاري والتاريخي والاجتماعي والسياسي العام لظاهرة الإبادة النازية ، كما أننا سنشير طي الدراسة لبعض الدراسات التي قامت بمثل هذا الجهد التركيبي .

وستحاول الدراسة أن تنجز أهدافها بدون التقليل بأية حال من فداحة الجُرم النازي ضد اليهود (والسلاف والغجر وغيرهم) ، ولكن دون السقوط ، بقدر ما هو ممكن إنسانيًا ، في التحيزات والرؤى والمقولات السائدة في الخطاب الغربي بشأن الإبادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النازية . فالتقليل من حجم الجريمة النازية يُشكل فشلاً معرفيًا وأخلاقيًا ، أما من الناحية المعرفية فهو يعني فشل المرء في إدراك واحدة من أهم سمات الحضارة الغربية الحديثة ، أي نزعتها الإبادية . أما الفشل الأخلاقي فهو فشل الإنسان المسئول أخلاقيًا الذي رأى جريمة تُرتكب ضد مجموعة بشرية فآثر الصمت وَزيَّف الحقائق حتى لا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . ونحن نؤكد هذا رغم معرفتنا بأن الصهاينة وَظَّفوا واقعة الإبادة في خدمة أهدافهم الإعلامية ، وفي ابتزاز الحكومات ، وفي تبرير الغزو والاستيطان والإرهاب . ولكن هذه جميعاً اعتبارات عملية غير معرفية وغير أخلاقية . ونحن نذهب إلى أن إيضاح الحقيقة المركبة كفيل في حد ذاته بأن يُفشل محاولات الصهيونية توظيف الجريمة الغربية النازية لخدمة الجريمة الصهيونية التي تُعتبر تجليًا آخر للحضارة نفسها وللنمط نفسه .

وتأمل هذه الدراسة أن تكون جزءاً من اتجاه فكري جديد في الحضارة العربية والإسلامية الحديثة بدأت تظهر معالمه في أواخر الأربعينيات وبدأ في التبلور مؤخراً ، وهو الاتجاه نحو الإسهام في الحضارة البشرية من خلال الانطلاق من الخصوصية الحضارية والمعرفية ، العربية والإسلامية . (ومن أهم رواد هذا التيار في مصر أنور عبد الملك وحسن فتحي ، ومن أهم أقطابه جمال حمدان وحامد ربيع وعادل حسين وطارق البشري وجلال أمين وفهمي هويدي وعبد الحليم إبراهيم عبد الحليم وعاصم الدسوقي وقاسم عبده قاسم وممدوح الموصلي ورفيق حبيب وجميل مطر وغيرهم . ولهذا التيار رواده وأقطابه في بقية أنحاء العالم العربي والإسلامي) . ونحن نذهب إلى أن المشروع الحضاري العربي والإسلامي دخل طريقاً مسدوداً من البداية حين عرَّف هدفه بأنه « اللحاق بالغرب » . فهذا الشعار كان يعني أن يصبح «الآخر » هو الغاية وأن نصبح نحن الوسيلة فنتحول إلى بشر من الدرجة الثالثة في معظم الأحوال ومن الدرجة الثانية في أحسنها (لأن من يصل إلى الدرجة الأولى ينضم « إليهم » بطبيعة الحال) . وفي محاولة تحقيق هدف اللحاق هذا كان علينا أن نُسكت إبداعنا ونُسقط قيمنا ونمحو ذاتيتنا ورؤانا بحلوها ومرها ، لنتقبل ذاتيتهم ورؤاهم بحلوها ومرها . وتحت شعار الموضوعية أصبحت مهمتنا نقل كل ما يأتي لنا من الغرب ، خصوصاً « آخر صيحة» ، ابتداءً بالمدارس الفلسفية وانتهاءً بالسيارات والأزياء ، وبذلك سقطنا في شكل من أشكال السلفية الغربية التقدمية ووقعنا ضحية إمبريالية المقولات ، أي أن نتبنى مقولات الآخر التحليلية ثم نراكم المعرفة ، وننظر للعالم ، بل ولأنفسنا ، من خلالها .

وقد أصاب هذا الوضع الإبداع العربي في مقتل ، وبدأ فرز الأجيال من خلال معيار اللحاق هذا ، فمن أظهر مقدرة على الركض والهرولة نحو الغرب وصل إلى القمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانضم إلى النخبة وصناع القرار ، وتم تهميش كل من أصابه القلق وبدأ يجتهد ويتعثر (فطريق الإبداع طريق وعر وليس سهلاً أو معبداً مثل طريق « النقل » السريع) . وظهر ما يُسمَّى «جيل الرواد» الذي جعل همه أن ينقل دون أن يبدع أو ينقد . فظهرت العديد من الدراسات (تواريخ فلسفة ـ تواريخ للفنون ـ تلخيص للنظريات الاقتصادية والسياسية ـ تواريخ العالم) هي في واقع الأمر رؤى الآخر تم وضعها بلغة عربية فصيحة أوركيكة وتم توثيقها بعشرات المراجع ، التي لا مرجعية لها ، في واقع الأمر ، سوى الرؤية المعرفية والحضارية الغربية . ويظن الكثيرون الآن أن أي كلام موثق هو «تأليف» ، بينما هو في واقع الأمر مجرد رص . وثمة فارق شاسع بين الرص والرصانة ، وبين التحديق والتحليق ، كما يقول العبقري جمال حمدان ، الذي لم يركض قط إلا نحو خصوصيتنا ولم يهرول قط إلا نحو الحقيقة . ولحسن حظنا كان بعض هؤلاء الرواد يشعر أحياناً بالقلق فيُجرب ويُبدع وينقد ويُفكك ويُركِّب . ولكن النموذج السائد (بين كل الليبراليين ومعظم الماركسيين والإسلاميين) ظل مع هذا هو اللحاق بالغرب .

وقد قال رجاء جارودي ، المفكر الفرنسي المسلم ، إن المشروع الاشتراكي قد لقي حتفه حينما أعلن خروشوف أن هدف العالم الاشتراكي هو اللحاق بالعالم الرأسمالي وتحقيق المعدلات الاستهلاكية نفسها . وكلمات جارودي تنطبق علينا بشكل أكثر قسوة ، فنحن لم "ننحدر" نحو هذه الهوة ، وإنما بدأنا منها ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ولتكن هذه الدراسة دعوة إلى الأجيال الشابة ألا تلحق بأحد وألا تسير في ركاب أحد وألا تهرول نحو أحد وأن تنفض عن نفسها غبار الهزيمة ووهم الموضوعية المتلقية المنكسرة وأن ترفع لواء النصر والموضوعية الاجتهادية ، حتى يمكن أن نعود للإبداع والإسهام في تراث البشرية .

ولنا أن نُذكِّر القارئ بأن هذه الدراسة هي اجتهاد أولي في قضية خلافية ، ولذا فهي لا تحاول الوصول إلى درجة عالية من اليقينية ، وكل ما ترمي إليه هو أن تفتح باب الاجتهاد حتى تظهر الحقيقة وحتى يتضح الحق ، على أمل أن يؤدي هذا إلى تحقيق العدل .

وسنقوم في الفصل الأول من هذه الدراسة بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها ، وبوضع ظاهرة الإبادة (بالمعنى العام الذي نطرحه) في سياقها الحضاري العام الغربي ثم في سياقها الحضاري السياسي والألماني . وسنتناول في الفصل الثاني بعض الإشكاليات التي تثيرها الإبادة النازية ليهود أوربا (إشكالية انفصال العلم عن القيمة ـ توظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها ـ إشكالية الحل النهائي ـ قضية عدد ضحايا الجريمة النازية ـ ملاحقة مجرمي الحرب النازيين ـ العرب والمسلمون والإبادة) . أما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) والنازيين فسنتناولها في الفصل الثالث . وسنتناول في الفصل الرابع الإبادة النازية في الوجدان (الفلسفي والديني والأدبي) الغربي . وسنحاول في الملحق أن نوضح بعض المصطلحات التي نستخدمها في هذه الدراسة (النموذج ـ الطبيعة/ المادة ـ العقلانية المادية واللاعقلانية المادية ـ الحلولية الكمونية الواحدية ـ الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة ـ ترشيد ـ حوسلة ـ داروينية اجتماعية ـ ترانسفير . . . إلخ) . ولكن لعل أهم المصطلحات هو مصطلح «نهاية التاريخ» (الذي نبيِّن علاقته الوثيقة بفكرة الحل النهائي) . وسيُلاحظ القارئ أن هناك بعض التكرار ولكننا قبلناه حتى يمكن أن يستقل الملحق الأخير (النظري والمنهجي) عن بقية الكتاب بل وحتى يمكن أن تستقل الأجزاء المختلفة لكل باب ، الواحد عن الآخر . فالأطروحات النظرية والمنهجية الأساسية موجودة بشكل موجز للغاية في الدراسة نفسها ، وهي موجودة بقدر من التفصيل في الفصل الأخير . ويستطيع القارئ أن يبدأ بقراءة الملحق قبل أن يبدأ قراءة الكتاب نفسه (وبذا ينتقل من العام إلى الخاص ، ومن دراسة النموذج إلى دراسة الحالة) . ويمكن أن يفعل العكس؛ ولكل قارئ مزاجه ، ولكل إنسان أسلوبه .

وقد قابلت المفكر المبدع الشجاع رجاء جارودى ، صاحب كتابى **حوار الحضارات والأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة ، التى نظمها الأستاذ سعد الدين وهبه واتحاد الفنانين العرب ، ولخصت له أطروحة هذا الكتاب واستأذنته أن أهديه إليه ، فوافق مشكورا .

وفي الختام أحب أن أتوجه بالشكر للصديق الأستاذ محمد رمضان ، المؤلف الفلسطيني ، الذي استفدت بكثير مما كتب عن قضية الإبادة النازية (رغم الاختلافات في الرؤية والمنهج) . والصديق الأستاذ محمد هشام ، المدرس المساعد بجامعة حلوان ، الذي قرأ مخطوطة هذا الكتاب وأدخل الكثير من التعديلات الأسلوبية واللغوية وناقش مع المؤلف بعض القضايا الفكرية . كما أتوجه بعميق الشكر للصديق العزيز الأستاذ سيد طه الذي بذل جهداً يفوق كل التصور في نسخ هذه الدراسة على الحاسب الآلي (وفي نسخ **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد** ، التي استُخلص هذا الكتاب من مداخلها) ، فله مني جزيل الشكر ، وعند الله الجزاء . والله أعلم .

عبد الوهاب المسيرى

دمنهور ـ القاهرة

١٠ يناير ١٩٩٧ م ـ غرة رمضان ١٤١٧ هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول
الإبادة النازية والحضارة الغربية

هناك الكثير من الإشكاليات التي أُثيرت حول الإبادة النازية ليهود أوربا ، ولكني أعتقد أن أهمها طراً إشكالية علاقة هذه الظاهرة بالتشكيل الحضاري الغربي الحديث وبالتشكيل الحضاري الألماني باعتباره جزءاً ممثِّلاً للحضارة الغربية الحديثة . ولكن قبل أن نتناول هذه القضية ، سنبدأ هذا الفصل بمناقشة قضية المصطلح .

مشكلة المصطلح :

يُستخدم مصطلح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً . ويُطلَق مصطلح «إبادة اليهود» (بالإنجليزية : إكستيرمينيشن أوف ذا جـــوز extermination of the Jews) في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز) . وتُستخدم أيضاً كلمة «جينوسايد genocide» وهي من مقطعين «جينو» من الكلمة اللاتينية «جيناس genus» بمعنى «نوع» و«كايديس caedes» بمعنى «مذبحة» .

وتُستخدَم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود ، أي تصفيتهم جسدياً» .

ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكوست» وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتُترجم إلى العبرية بكلمة «شواه» ، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة») . وكانت كلمة «هولوكوست» في الأصل مصطلحاً دينيًا يهوديًا يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب ، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرابين المقدمة للرب . ولذلك ، كان الهولوكوست يُعَدُّ من أكثر الطقوس قداسة ، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء . ومن ناحية أخرى ، كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدموه .

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المصطلح ، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه « الشعب اليهودي » بالقربان المحروق أو المشوي وأنه حُرق لأنه أكثر الشعوب قداسة . كما أن النازيين ، باعتبارهم من الأغيار ، يحق لهم القيام بهذا الطقس . أو ربما وقع الاختيار على هذا المصطلح ليعني أن يهود غرب أوربا أُحرقوا باعتبارهم قربان الهولوكوست في عملية الإبادة النازية ولم يبق منهم شيء ، فهي إبادة كاملة بالمعنى الحرفي . ولكن حينما تستخدم الجماعات المسيحية الأصولية (الحرفية) في الولايات المتحدة كلمة «هولوكوست» فهي تركز على جريمة الكبرياء ، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حاق باليهود بسبب صلفهم وغرورهم وكبريائهم .

ويُشار إلى الإبادة أحياناً بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تُستخدَم للإشارة إلى «هدم الهيكل» ، فكأن الشعب اليهودي هنا هو الهيكل ، أو البيت الذي يحل فيه الإله ، والإبادة هي تهديم بيت الإله . وهذه الكلمة تُدخل حادثة الإبادة التاريخ اليهودي المقدَّس .

وفي الوقت الراهن ، تُستخدَم كلمة «هولوكوست» في اللغات الأوربية للإشارة إلى أية كارثة عظمى . فيشير الصهاينة ، على سبيل المثال ، إلى «الزواج المختلط» بين اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت» (بالإنجليزية : سايلانت هولوكوست silent Holocaust) . وحينما يُصعِّد العرب من مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم ـ حسب المصطلح الصهيوني ـ يهددونهم بالهولوكوست . واستخدمت إحدى الصحف هذا المصطلح للإشارة إلى إحدى صفقات أسلحة الميراج بين ليبيا وفرنسا . كما استخدم أحد المتحدثين الصهاينة كلمة «هولوكوستي» وهي اسم صفة مشتق من هولوكوست فأشار إلى أحد الأفلام بأنه ليس «هولوكوستي Holocausty» بالقدر الكافي . وهذا الاستخدام المستمر والممجوج للمصطلح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً . إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً : « كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود ، ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يومياً ؟ » ، أي أنه ساوى بذلك بين الطبيعي والإنساني وبين الدجاجة واليهودي ودفع بالنموذج العلماني الشامل إلى نتيجته المنطقية وأطلق استنكاره هذا .

ويتم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل ممجوج لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية . وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«هولوكوست» والتي تعبِّر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه . فنحت أحد الكُتَّاب كلمة «هولوكيتش Holokıtsch» لوصف الكُتب والأفلام عن موضوع الهولوكوست والتي تُنتَج وتُنشَر بهدف تحقيق الربح ، حيث إنها تحاول إثارة العواطف واستغلالها على أسوأ وجه . وكلمة «كيتش» في اللغة الألمانية تعني الأعمال الفنية الشعبية الرديئة . كما ظهرت عبارة «هولوكوست بيزنس Holocaust business» أي «مشروع الهولوكوست التجاري» ، بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية . ومن العبارات الأخرى المتواترة عبارة «هولوكوست مانيا Holocaust mania» أي «الانشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة» .

ومن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى أو على الأقل بإبادة أعداد كبيرة منها . ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم . ولكن من الثابت تاريخيًا أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا ، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي . وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين ، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى العبرانيين ، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضاً . ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة ، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين ، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وفي تصورنا أن ما يميِّز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واعٍ ومخطط منظَّم شامل ومنهجي ومحايد عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً ، منفصلة عن القيمة) . وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة ، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي ، وهو ما نسميه في مصطلحنا «الحوسلة» ، أي تحويل كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان ، إلى وسيلة . ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية ، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط .

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر «ليلة الزجاج المحطم» (بالألمانية : كريستال ناخت Kristallnacht) حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعضاء الجماعة اليهودية . ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائيًا وإنما تم بتخطيط من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ . كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائيًا تماماً .

ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي منظم على اليهود (بوجروم) ، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا ، لم يكن بوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير . ولذا ، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة ، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها ، وأجهزة الإعلام التابعة لها ، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة . ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان بوسعها أن تحقق غرضها بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة!

ونستخدم في هذه الدراسة مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوربا» ، وهو ـ في تصورنا ـ مصطلح أكثر تفسيرية وحياداً من المصطلحات المستخدمة في اللغات الأوربية والعبرية ، فكلمتا «هولوكوست» و «شواه» تحملان إيحاءات دينية . ومصطلح «الحل النهائي» حُدِّد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمونه الحقيقي . أما مصطلحنا فقد حَدد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوربية داخل سياق التاريخ الألماني والأوربي ، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي . كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى .

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية ، وإنما تعني «استئصال شأفة اليهود» بجميع الطرق وضمنها التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق . ولذلك فنحن نشير أحياناً «للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة» ، أي «التصفية الجسدية المتعمدة» ، كما نشير «للإبادة بالمعنى العام للكلمة» وهي عملية «إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة ، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمدة» . كما أننا لا نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية ، بالمعنى العام أو الخاص .

الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة :

لابد أن نؤكد ابتداءً أن التحولات الاقتصادية والسياسية في أي مجتمع لا تتم في فراغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مهما يكن مستوى هذه التحولات عمقاً وضحالة. فالمناخ الفكري والثقافي والنفسي يساعد على تحقيق بعض الإمكانات الكامنة في الواقع المادي وإجهاض البعض الآخر، وعلى تحديد المسار النهائي لهذا الواقع إلى حدٍّ كبير. وتبني ألمانيا النازية لسلاح الإبادة كوسيلة لحل بعض المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها، فهو أمر مرتبط تماماً بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع.

ويمكننا القول بأن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه وليست مجرد مسألة عرضية، وولّدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط. وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة، ثم تحققت بشكل شبه كامل في اللحظة النازية النماذجية. وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا على الرغم من حضارته الغربية وحداثته، وإنما بسببها.

ولكن قبل أن نتوجه لقضية النزعة الإبادية في الحضارة الغربية، لابد أن نشير إلى وضع اليهود داخل الحضارة الغربية حتى عصر النهضة. فالمسيحية الغربية لم تُطوِّر مفهوماً واضحاً خاصاً بالأقليات في المجتمع الغربي ولم تُشرِّع لهم ولم تحدد وضعهم القانوني، واكتفت بمفهوم المحبة إطاراً عامًّا. وقد صنَّفت الكاثوليكية الغربية اليهود باعتبارهم شعباً شاهداً، يقف في تدنيه وضعَته " شاهداً " على عظمة الكنيسة وانتصارها. ولم يكن الأمر مختلفاً كثيراً على المستويين الاجتماعي والاقتصادي، حيث تحوَّل اليهود إلى جماعة وظيفية، وهي جماعة تُعرَّف في ضوء وظيفتها وفائدتها ونفعها (فهي مادة استعمالية) لا قداسة لها. وهذه الرؤية تعني «حوسلة» اليهود، ولكنها في الوقت نفسه تعني ضرورة الحفاظ عليهم وحمايتهم من الهجمات الشعبية. فالكنيسة الكاثوليكية كانت تحتاج إلى هذا الشاهد الأزلي على عظمتها. كما أن الطبقات الحاكمة (النبلاء الإقطاعيون والملوك) كانت في حاجة إلى اليهود كأداة طيعة من أدوات الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير (كان يُطلَق على اليهود كلمة «الإسفنجة»، لأنهم يمتصون فائض القيمة من الجماهير ثم يقوم الحاكم الإقطاعي باعتصار ما جمعوه من ثروة من خلال الضرائب). ولذا، وعلى عكس ما يتصور البعض، كان العداء لليهود حركة شعبية موجهة ضد الطبقات الحاكمة وضد الكنيسة مُمثَّلين في الرمز المحسوس المباشر اليهود، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ومعها النبلاء هم حماة اليهود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتغيَّر الوضع مع ظهور عصر النهضة وبداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث بشكل جوهري . إذ ظهرت البروتستانتية التي رفضت فكرة الشعب الشاهد ولكنها تبنت بدلاً منها العقيدة الألفية الاسترجاعية التي ترى أن المسيح سيعود مرة أخرى للأرض ويؤسس مملكته على الأرض لمدة ألف عام ، وكان كل هذا مشروطاً بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وتنصيرهم . فكأن اليهودي ظل مجرد أداة (كما هو الحال في الرؤية الكاثوليكية) ولكنه أداة لا يتم الحفاظ عليها وإنما لابد من نقلها (ترانسفير) إلى فلسطين وتذويبها في المنظومة المسيحية . وتزامن هذا مع ظهور البورجوازيات المحلية والدولة القومية التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعة الوظيفية اليهودية التي لم يعد لها نفع . ولذا ، كانت المسألة اليهودية في أوربا تُناقش في إطار مدى نفع اليهود ، فكان أعداء اليهود يبينون أنهم لا فائدة لهم ، أما المدافعون عنهم (ومنهم المتحدثون باسم اليهود) فكانوا يركزون على «فائدة» اليهود ونفعهم . وطُرِح تصور مفاده أنه يجب زيادة حقوق اليهود زيادة طردية مع زيادة نفعهم ، فإن زاد الواحد زاد الآخر (وهو ما يعني أن تَناقُص نفعهم يعني تفاقم مشاكلهم) . وقد قُسِّم اليهود إلى أقسام مختلفة تم تنظيمها بشكل هرمي . ففي أعلى الهرم كان يوجد أكثر اليهود نفعاً ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن ألماني ، وفي قاعدة الهرم كان يوجد اليهود غير النافعين الذين لا يتمتعون بأية حقوق ولذا كانوا يُصنَّفون ضمن من يجب التخلص منه وذلك بترحيلهم (بالإنجليزية : ديسبوزابل ترانسفيرابل disposable transferable) .

وساهمت كل هذه العناصر ولا شك في خلق الاستعداد الكامن والتربة الخصبة والتبادل الاختياري (بالإنجليزية : اليكتيف أفينيتي elective affinity في مصطلح ماكس فيبر) بين الحضارة الغربية وعملية إبادة اليهود . ولكن العنصر الحاسم ـ في تصورنا ـ في ظهور النزعة الإبادية (ضد اليهود وغيرهم من الأقليات والجماعات والشعوب) هو الرؤية الغربية الحديثة للكون . وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية واحدية (حلولية كمونية) تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب . وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت هي النموذج التفسيري الحاكم مع منتصف القرن التاسع عشر ، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية . وقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية هيومانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبنت منظومات أخلاقية مطلقة ، تنبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/ المادة ، سابقاً عليها ، له معياريته ومرجعيته وغائيته الإنسانية المستقلة عنها (وهذا شكل من أشكال العلمانية الجزئية) . ولكن هذه الرؤية الإنسانية المادية تطورت من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطبيعة ومن خلال تَصاعُد معدلات الحلولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد ـ السياسة ـ الفلسفة ـ العلم) عن المعيارية والمرجعية والغائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقيته وأسبقيته على الطبيعة/ المادة وتحول إلى جزء لا يتجزأ منها وأصبح هو الآخر مادة ، منفصلة عن المرجعية والغائية والمعيارية الإنسانية (وهذه هى العلمانية الشاملة) .

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية ، فهي مستمدة من الطبيعة/ المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغائيات والأخلاقيات الإنسانية . ومن ثم تَحرَّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم « الإنسان ككل » أو «الإنسانية جمعاء » أو « صالح الإنسانية » ، كما تحرر من القيم المطلقة مثل «مستقبل البشرية» و «المساواة » و « العدل » ، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة ، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وأصبح مرجعية ذاته ، وقانون ذاته ، ومعيارية ذاته ، وغائية ذاته ، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرَّفه هو . وبذا تحوَّلت الإنسانية (الهيومانية) الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية ، وانقسم البشر إلى سوبرمن supermen إمبرياليين يتحكمون في كل البشر والطبيعة ، وإلى سبمن submen دون البشر أداتيين يذعنون لإرادة السوبرمن ولقوانين الطبيعة والمادة . وهذا ما نسميه «النفعية الداروينية» وهي المنظومة التي تذهب إلى أن من يملك القوة له «الحق» في أن يوظِّف الآخرين لخدمة مصالحه ، مستخدماً في ذلك آخر المناهج العلمية وأحدث الوسائل التكنولوجية ، متجرداً من أية عواطف أو أخلاق أو أحاسيس كلية أو إنسانية باعتبار أن الإنسان إن هو إلا مادة في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، ومن ثم فمثل هذه الأحاسيس هي مجرد أحاسيس ميتافيزيقية أو قيم نسبية مرتبطة بالزمان والمكان ، وليس لها أية ثبات أو عالمية .

وتتبدَّى مادية هذه المنظومة وواحديتها في عدد من المصطلحات التي حققت قدراً من الذيوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أخذت المنظومة في التبلور وحينما تحددت معالم المشروع الإمبريالي الغربي والنظرية العرْقية الغربية . ومن أهم هذه المصطلحات ، من منظور هذه الدراسة ، ما يلي : «المادة البشرية» (بالإنجليزية : هيومان ماتيريال human material) ـ «الفائض البشري» (بالإنجليزية : هيومان سيربلاس human surplus) ـ «مادة استعمالية» (بالإنجليزية : يوسفول ماتر useful matter) . فكان يُشار إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشر باعتبارهم «مادة بشرية» يمكن توظيفها ، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة» (وأحياناً «غير نافعة») . وهذه المادة الفائضة كان لابد أن تُخضع لشكل من أشكال المعالجة ، فكانت إما أن تُصدَّر (ترانسفير) أو تُعاد صياغتها أو تُباد إن فشلت معها كل الحلول السابقة . وترد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل ماكس نوردو (قبل اعتناقه الصهيونية) وفي الأدبيات النازية (كان أيخمان يشير إلى اليهود المُرحَّلين إلى فلسطين باعتبارهم «من أفضل المواد البيولوجية»). وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هرتزل **دولة اليهود**) . ولنلاحظ أن كل المصطلحات تُضمر البُعدين الإمبريالي والأداتي ، الداروينى والبرجماتي ، فالإنسان مادة تُوظَّف ، مجرد مَوضوع ، ولكن هناك أيضاً من يُوظِّف ، فهو ذات نشطة فعالة . لكن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية . فالسوبرمن والسبمن ينتميان إلى عالم وثني ، حلولي كموني .

ولا يزال هذا هو المفهوم السائد للنفس البشرية ، رغم تواري المصطلحات التي تعبِّر عن المفهوم بشكل متبلور . ومع هذا يُفصح النموذج عن نفسه بشكل فاضح ، وتعاود المصطلحات الشفافة الظهور . ففي عام ١٩٩٦ تكشفت فضيحة تَخلِّي حكومة الولايات المتحدة عن بعض عملائها من الفيتناميين ممن تم تجنيدهم ليعملوا لحسابها كجواسيس ، وممن قبضت عليهم المقاومة الفيتنامية ، إذأنها بدلا من أن تحاول العمل على الإفراج عنهم ، آثرت الراحة وأعلنت أنهم لاقوا حتفهم حتى يُغلق ملفهم ولا تصدع رأسها . وقد برر أحد الجنرالات الأمريكيين موقف حكومته بقوله إن هؤلاء العملاء أصبحوا بعد القبض عليهم مجرد « ممتلكات لا قيمة لها » (بالإنجليزية : أن فايابل أستس unviable assets) ، أي مادة بشرية فائضة لم يعد لها نفع بالنسبة للسوبرمان الذي قام باستخدامها .

وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة . وهي نواة نمت وترعرعت وعبَّرت عن نفسها من خلال ثنائية الإمبريالي والأداتي ، والسوبرمان والسبمان ، فتزايدت معدلات اليقينية العلمية من ناحية ، الأمر الذي أدَّى إلى تَزايُد إحساس الإنسان الغربي بذاته وبقوة إرادته ومقدرته على البطش (خصوصاً بين النخبة الإمبريالية الحاكمة) . كما تزايدت في الوقت ذاته معدلات النسبية المعرفية والأخلاقية ، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور حس الإنسان الغربي الخُلقي وضمور قدرته على اتخاذ القرار ، كما عمَّقت قابليته للإذعان للقانون الموضوعي العام المجرد (اللاإنساني) كقيمة مطلقة لابد من العمل بمقتضاها والسير بهديها دون تساؤل (خصوصاً بين الجماهير) .

وسنورد فيما يلي بعض العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الإتجاه العام في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة الغربية . وتجدر ملاحظة أن كثيراً من العناصر التي سنوردها قد يكون لها وجهان، أحدهما إمبريالي (بالنسبة للسوبرمن) والآخر أداتي (بالنسبة للسبمن) ، فالوجهان متداخلان ، وإن كان هناك من يُوظِّف فلابد أن يوجد من يُوظَّف :

١ ـ تصاعدت معدلات المشيحانية (أو المهدوية) العلمية أو العلموية ، أي التبشير بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً ، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية) ، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/ المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني ، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجيًا) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه) . فهذا الإنسان الكامل يتحكم في نفسه تماماً ، ويبرمجها ، أو يمكن برمجته . ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل (والهندسة الوراثية) . ومن هنا العداء الشديد للتشوهات الخلقية وللأمراض النفسية ، بل وفكرة المرض نفسها باعتبارها تعبيراً عن الانحراف عن المعيار الطوباوي النهائي . ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي ، اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ، دولة النعيم المقيم في الأرض المؤسس على العلم والتكنولوجيا ، وتُعلَن نهاية التاريخ والإنسان كما نعرفه . وهذا الحل النهائي سيعفي الإنسان من مسئولية الاختيار الأخلاقي إذ أن كل شيء سيكون مخططاً مبرمجاً ، خاضعاً لهندسة اجتماعية صارمة ، وتحت السيطرة السياسية والتكنوقراطية الكاملة . ولنا أن نلاحظ أنه سيكون هناك دائماً نخبة من السوبرمن تقرر طبيعة الحل أو البرنامج النهائي ومتى يمكن إعلان نهاية التاريخ وكيفية اتخاذ الإجراءات اللازمة للوصول لتلك اللحظة ، وإلى جانب النخبة ستوجد قاعدة عريضة من السبمن يُدْفَع بها دفعاً نحو اليوتوبيا .

٢ ـ ظهور أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) ذات طابع مشيحاني قوي ، وذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل ، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم . هذا لا يعني أن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى ترفض العلم مصدراً وحيداً للوصول إلى المعرفة ولتوليد القيم فهذا هو إطارها المرجعي الوحيد ، ولكن ما يحدث مع أيديولوجيات مثل النازية والماركسية (في نزعتها الستالينية) أن منطق العلمانية الشاملة يعبِّر عن نفسه بشكل كامل يتسم بدرجة عالية من التبلور ، خصوصاً حينما يسانده جهاز الدولة المركزية الحديثة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ مع تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة ، لم يعد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني (متجاوز للقوانين الطبيعية/ المادية) ، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حالّ) فيهم ، وليس مفارقاً لهم . ولهذا ، طُرح الأساس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم . وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخر شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية ، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الداروينى . وتُقسِّم هذه النظرية الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكل منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً . ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليًا : الآريون وبخاصة النورديين ، وأعراق دنيا : الزنوج والعرب واليهود . وتَفوُّق العنصر الآري الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمية وأي حديث عن المساواة . وكلمة «آريان Aryan» ، أي «آري» ، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها «سيد» . وقد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغات الإيرانية ثم الهندية الأوربية ، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) نظرية مفادها أن هناك جنساً يُسمَّى «آرياس» كانَ يتحدث اللغة الهندية الأوربية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاء بالإنجليزية . كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة . وكان جوزيف جوبينو (١٨١٦ ـ ١٨٨٢) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة ، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل الساميين ، وكان ثمة تَرادُف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية .

وقام المفكرون العرْقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس الآري انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس ، إلى أوربا ، وهو جنس يتسم ـ حسب نظريتهم ـ بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي ، وبأنه المؤسس الحقيقي للحضارة وبتفوقه على الساميين والصفر والسود . ونبه هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) إلى أن النورديين هم أرقى الآريين ، فهم الجنس السيد ، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجات السلم العرقي . بينما ذهب دعاة النظرية العرْقية إلى أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العرْق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي . وبطبيعة الحال ، صُنِّف أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العرْقي (الشعب العضوي) لأنهم خطر على تماسك الشعب (أو العرْق) وعلى تجانسه ، وعدم التماسك يؤذي المصلحة العليا للدولة لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية ، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدرتها على البقاء والانتشار والهيمنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ مع تَصاعُد معدلات العلمنة ظهرت كذلك فكرة الفولك أو الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها ، وهنا تحل الرابطة الإثنية محل الرابطة العُرقية ، ولكنها لا تختلف عنها في كمونيتها وحتميتها وفي تحولها إلى أساس تأكيد التفاوت بين الشعوب . ويُلاحَظ أن الشعب العضوي باعتباره قيمة مطلقة ومرجعية ذاته يتجاوز كل القيم ، ولكن صفة المطلق هنا لا تنسحب على الإنسان باعتباره فرداً قادراً على الاختيار الأخلاقي الحر وإنما على مجموعة من البشر لها سماتها الجماعية ومصالحها المشتركة وحقوقها المطلقة !

٥ ـ تزايدت معدلات النسبية المعرفية ، فعالم الطبيعة/ المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود ، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية . وهذا الشك لا ينصرف إلى الحقيقة وحسب وإنما إلى الموضوع ثم إلى الذات . وقد انتهى الأمر بالفلسفة الغربية إلى إنكار الكليات والميتافيزيقا وأي شكل من أشكال الثبات ، بما في ذلك ثبات الطبيعة البشرية وظهرت الفلسفة المعادية للفلسفة والميتافيزيقا ، وهي فلسفة النسبية المعرفية الكاملة التي تصل إلى حالة من السيولة الكاملة وتنكر الذات والموضوع والمركز ومفهوم الطبيعة البشرية وإمكانية المعرفة والأخلاق وأي شكل من أشكال المعيارية (ما بعد الحداثة) . ورغم أن النازية تسبق ظهور ما بعد الحداثة بعدة أجيال إلا أن كثيراً من العناصر التي أدَّت إلى ظهور ما بعد الحداثة كانت قد تشكلت وتبلورت وكانت الفلسفة الغربية قد دخلت عصر السيولة . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن هايدجر ، بنزعته النيتشوية ، والذي خرجت ما بعد الحداثة من تحت عباءته ، أيَّد النازية بلا تحفظ ، وكان النازيون يعتبرونه فيلسوفهم .

٦ ـ تَزايُد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة ، والتجريب عن العقل ، بحيث أصبح التجريب ، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية ، هدفاً في حد ذاته . وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمَّى العلم المحايد ، المتجرد تماماً من القيمة . ولكن هناك دائماً من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستُجرى .

٧ ـ تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق ، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية ، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام . ويُلاحَظ أن مصطلحات مثل «مصلحة الدولة العليا» ليس لها مضمون أخلاقي ، وتَقبُّلها يعني تَقبُّل المجردات غير الإنسانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨ ـ ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية) تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي ، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الأمر الذي يعني تَزايُد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يُسمَّى «رقعة الحياة الخاصة» .

٩ ـ كانت هذه المؤسسات ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تعبِّر عن مصلحة الدولة (التي تعبِّر عن إرادة الشعب) وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة ، دون أخذ أية اعتبارات خُلقية في الاعتبار .

١٠ ـ تزايدت معدلات الترشيد والتنميط والميكنة وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع بكل ما ينجم عن ذلك من ترشيد للبيئة المادية والاجتماعية وترشيد للإنسان من خارجه وداخله .

١١ ـ تَصاعَد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية " الأمنية " البرانية والجوانية وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم " وإرشادهم " من الداخل والخارج . ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري ، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية ، مثل المؤسسات التربوية والإعلام ، كانت تفوقها في الأهمية . فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظه من الخارج ، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تَمثُّل ، ثم استبطان ، رؤية الدولة تماماً ، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي ، ويحيِّد ذاته وحسه الخلقي ، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدَر الوحيد للقيمة المطلقة . وفي نهاية الأمر ينظر الإنسان إلى نفسه باعتباره جزءاً من آلة كبرى ، وتصبح مهمته الأساسية ، وربما الوحيدة ، هي التكيف البرجماتي مع دوران الآلة .

١٢ ـ تزايدت معدلات التجريد في المجتمع ، ومن المعروف أن عمليات التجريد والترشيد هما عمليتان متلازمتان ، إذ لا يمكن الترشيد دون تجريد ، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية . ويؤدي التجريد إلى ابتعاد الواقع الحي بحيث لا يدركه المرء بشكل مباشر متعين له قيمة ، إذ يصبح شيئاً له مواصفات محددة يمكن تقسيمه إلى أجزاء يمكن استبدال بعضها ، وينطبق هذا على البشر انطباقه على الأشياء . ويرى أورتيجا جاسيت أن عملية التجريد مرتبطة تمام الارتباط بعملية نزع الصبغة الإنسانية (بالإنجليزي : دي هيومانايزيشن dehumanization) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر . ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة : تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة ، كل وظيفة تُشكل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب . ولأنها مجرد حلقة ، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها ، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر . ومن ثم ، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية . والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية ، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس ، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر ، إذ أن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية تكنوقراطية وليست مسئولية أخلاقية .

١٣ ـ ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف . وعادةً ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيداً عن الناس في أطراف المدينة ، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة . وعادةً ما يتم التعذيب بأساليب علمية بحيث لا يترك أثراً على جسد الضحايا . وإن تم قتلهم فعادةً ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة .

١٤ ـ تظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة ، إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف بحيث يمكن للإنسان أن يكبت أية أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويَحل محل ذلك كله قدر عال من الانضباط والتخطيط .

ويمكن القول بأن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية) وحلَّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة ، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والتي تحررت من أية قيم أو غائية ، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم المتجاوزة . هذه الشخصية يمكن أن تتبدَّى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون (الطبيعة والإنسان) لصالحها ، ويمكن لها أن تتبدَّى من خلال إذعان أداتي فتصبح شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد ، تستبطن تماماً النماذج السائدة في المجتمع والتي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام ، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها ولذا يتحدد تَوجُّهها حسب ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل ، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنيًا وقوميًا وعلميًا وموضوعيًا (من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن) ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية . وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب ، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني .

وحينما ظهرت هذه الشخصية ، أصبح من الممكن أن تقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر غير نافعة في المجتمع (الفائض البشري) أو في وطن آخر أو قارة بأسرها تشكل مجالاً حيويًا للدولة صاحبة القرار . ولم يعد هذا جريمة إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة ، أو هي « جريمة قانونية مشروعة » ، إن صح القول ، تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها ، بل وتشجع عليها وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها .

وهناك على كلٍّ المؤسسات المتخصصة لتنفيذ الجريمة ، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة ، تتجاوز الخير والشر ، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة (أي أنها ملتزمة بالترشيد الإجرائي وأخلاقيات الصيرورة) ، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال ، على سبيل المثال ، بأنفسهم ، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام . ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر ، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات «التطهير العُرقي» أو «الحل النهائي» أو خدمة «مصلحة الدولة العليا» . ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيُقتل في غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية .

وحتى إذا شعر الإنسان في أعماق أعماقه بلا أخلاقية القرار ، فسوف يكون قد تعلم من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخُلقي . فالإنسان الحديث أصبح بوسعه ، بحسه العملي ، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية ، تبرير أي شيء وقبول أي وضع ، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل ، وبالأقلية في سبيل الأغلبية ، وبالمرضى في سبيل الأصحاء ، وبالعجزة في سبيل الشباب . ومع سيطرة حب البقاء ، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة ، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر (إذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها) . ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية " متخلفة " تشكل ثنائية لا تريد أن تختفي .

وبهذا المعنى يمكن القول بأن الحضارة الغربية الحديثة (في جانب هام من جوانبها) هي تعبير عن التراجع التدريجي والمستمر للفلسفة الإنسانية الهيومانية التي تؤكد استقلالية الإنسان عن الطبيعة/ المادة ومقدرته على تجاوزها وعلى تطوير منظومات قيمية ومعرفية تضعه في مركز الكون . هذا التراجع يقابله تَصاعُد مستمر ومطرد للحلولية الكمونية المادية (أي الواحدية المادية أو وحدة الوجود المادية أو العلمانية الشاملة) التي تُهمِّش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً وتُسوِّيه بالظواهر الطبيعية وترده إلى عناصره الأولية المادية ، أي تقوم بتفكيكه وتذويبه تماماً في الطبيعة/ المادة ، فتلغيه وتبيده ككائن له قيمة مطلقة ، مستقل عن قوانين الحركة الطبيعية/ المادية .

وقد يكون من المفيد والطريف في ذات الوقت أن نربط مصطلحي «الإبادة» (بالإنجليزية : إكسترمينيشن extermination) و«التفكيك» (بالإنجليزية : دي كونستراكشن deconstruction) بمجموعة من المصطلحات الأخرى التي استخدمها علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجوانب السلبية للحداثة الغربية ، وكلها تفيد تهميش وتفكيك وتَراجُع وضمور وذبول وغياب الإنساني والأخلاقي لصالح ما هو غير إنساني ومحايد ومتشيئ :

١ ـ «دي سنترينج مان decentering man» أي «إزاحة الإنسان عن المركز» ، بمعنى «إفقاد الإنسان مركزيته في الكون» .

٢ ـ «دي برسونالايزيشن depersonalization» أي «إسقاط السمات الشخصية» .

٣ ـ «ديس انتشانتمنت أوف ذي ورلد disenchantment of the world» أي «تحرير العالم من سحره وجلاله» ، بمعنى أن يصبح العالم مادة محضة لا أسرار فيها ، يمكن للعقل الإحاطة بها ومعرفة قوانينها والتحكم فيها .

٤ ـ «دي سانكتيفيكيشن desanctification» أو «دي ساكرالايزيشن desacralization» أي «نزع القداسة عن الظواهر كافة [ومنها الإنسان] بحيث تصبح لا حرمة لها وينظر لها نظرة مادية لا علاقة لها بما وراء الطبيعة» .

٥ ـ «دي ميستفيكيشن demystification» أي «نزع السر عن الظواهر [بما في ذلك الإنسان]» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ ـ «دي نيوديندج denuding» أي «تعرية كل الظواهر من أية مثاليات [ومنها الإنسان] حتى تظهر على حقيقتها المادية» .

٧ ـ «دي هيومانايزيشن dehumanization» أي «تجريد الإنسان من خصائصه الإنسانية» .

وهكذا تبدأ عملية العلمنة الشاملة (بعد المرحلة الإنسانية الهيومانية الأولى) بإزاحة الإنسان عن المركز ثم نزع الجوانب الشخصية عنه بحيث يصبح شيئاً ليست له خصوصية أو تفرُّد . ثم « يُحرَّر » العالم من سحره وجماله فيصبح الإنسان والطبيعة مادة محضة ، ثم تنزع عنه كل قداسة وتهتك كل أسراره ويُعرَّى من أية مثاليات لنصل إلى نوع من أنواع الإباحية الأخلاقية المعرفية إذ يصبح الإنسان لحماً يُوظَّف في مزارع البيض في الجنوب الأمريكي أو مصانع الرأسماليين في لندن أو يُرسل إلى معسكرات السخرة والإبادة في ألمانيا أو يُصوَّر في مجلات إباحية في كل أو أي مكان . والمحصلة النهائية لكل هذا هي نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان وتحويله إلى مادة محضة ، قابلة للحوسلة . وهذه هي قمة العلمنة الشاملة والتفكيك الكامل .

ونحن نربط كل هذه المصطلحات وغيرها بمصطلح «نهاية التاريخ» باعتبار أن نهاية التاريخ هي النقطة التي يتم التحكم فيها في كل شيء وينتهي الإنسان كما نعرفه ، أي الإنسان الذي يشغل مركز الكون متجاوزاً النظام الطبيعي .

ونحن لا نزعم أن الرؤية الواحدية المادية تؤدي حتماً وبشكل مطلق إلى الإبادة والتفكيكية . كل ما نؤكده أن مثل هذه الرؤية تخلق التربة الخصبة لانتشار الآراء النفعية الداروينية المادية التي تترعرع فيها الاتجاهات والأفكار الإبادية والتفكيكية وتتحقق .

تحوُّل الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية :

هذه القابلية أو الإمكانية الكامنة للإبادة ، ولتفكيك الإنسان لعناصره المادية الأساسية لاستخدامها على أكمل وجه ، تحققت أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي . فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة ، وحَوَّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان مطلق له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر ، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام ، طبيعية أو بشرية . فاعتُبرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سبمن ، مادة بشرية تُوظَّف في خدمته ، كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة ، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله . بل ولم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي ، فالجميع مادة بشرية ، نافعة أو غير نافعة ، ضرورية أو فائضة . فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة ، ومصدراً لفائض القيمة ، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة . وصُنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى ، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة . وهذه المادة يجب أن «تُعالج» ، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد « الحلول الأخرى » إن استلزم الأمر) .

وكانت أولى عمليات " المعالجة " هي نقل الساخطين سياسيًا ودينيًا (البيوريتان) إلى أمريكا ، والمجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا . وتبعتها عمليات ترانسفير أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح الإنسان الغربي :

ـ نَقْل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة .

ـ نَقْل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم ، وذلك للهيمنة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب .

ـ نَقْل الفائض البشري من أوربا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم ، لتكون ركائز للجيوش الغربية والحضارة الغربية (فيما يُعد أكبر حركة هجرة في التاريخ) .

ـ نَقْل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى (الصينيين إلى ماليزيا ـ الهنود إلى عدة أماكن ـ اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني ، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها .

ـ نَقْل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وأفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية ، مثل الهنود (خصوصاً السيخ) في الجيوش البريطانية . وفي الحرب العالمية الأولى ، تم تهجير ١٣٢ ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين ، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال (وهذه هي أول " هجرة " لسكان المغرب العربي ، وقد استمرت بعد ذلك تلقائيًا) .

ـ مع ظهور فكر حركة الاستنارة في الغرب تم تعريف الناس حسب نفعهم للمجتمع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والدولة وقد طُبِّق هذا المعيار على كل المواطنين بخاصة أعضاء الأقليات . فتم تقسيم اليهود في كثير من البلاد الغربية ـ كما أسلفنا ـ بحيث أصبح غير النافعين قابلين للترحيل .

ـ في هذا الإطار المعرفي الترانسفيري، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية (المسألة اليهودية) إلى الشرق. فيهود أوربا هم مجرد مادة (فائض بشري لا نفع له داخل أوربا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين)، والعرب أيضاً مادة (كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية)، وفلسطين كذلك مادة فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة تُطلَق عليه كلمة «الأرض». فتم نقل العرب من فلسطين ونُقِل اليهود إليها، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي.

ـ تمت عمليات ترانسفير ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى ، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان ، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا ، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا . وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ. بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر جنرال بلان أوست Generalplan Ost لنقل ٣١ مليوناً " غير ألمان " من أوربا الشرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم .

وما يهمنا في هذا كله هو نزع القداسة عن البشر كافة (في الشرق والغرب) وتحويلهم إلى مادة استعمالية ليست لها قيمة مطلقة ، ولا علاقة لها بأية معيارية . ولكن لنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم، خصوصاً في أمريكا الشمالية ، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي . وقد قبلت الجماهير الأوربية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد ، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها ، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج .

وتُعدُّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية) ، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة . فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب». وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين» ، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية ، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة ! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر ، أو نقل الأمراض المختلفة (كأن تُترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً) . وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله . واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا ، بل وتصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود ، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصص لهم في أوكلاهوما . وقد مات أغلبهم في الطريق (وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير [ترانسفير] ، فهو شكلاً ترانسفير من مكان لآخر ولكنه فعلاً ترانسفير من هذا العالم للعالم الآخر) . ووصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة ونديد ني Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام ١٨٩٠ . وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض ، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيام) ، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين) . وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف . ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة) .

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة . وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً ، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب " طبيعية " بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض .

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة . ففي كتابه **رحلة إلى الكونغو** (١٩٢٧) ، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء (مساحة طولها ١٤٠ كيلو متر) احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة . ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قنال السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرْقي والإبادة داخل أوربا (إما كضحايا أو كجزارين) يصل إلى مائة مليون ، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد لابد أن يتضاعف .

ولكن الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية ، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية ، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح ، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع ، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً) .

وكان النازيون يُدركون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية إنما هي ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الغربي الحديث . وقد بيَّن ألفريد روزنبرج ، أثناء محاكمته في نورمبرج ، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الكولونيالي ، فأشار مثلاً إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر ، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج ، وأن رؤيته العرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية ، فالنازية ـ كما أكد روزنبرج لمحاكميه ـ هي جزء من الحضارة الغربية .

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة ، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة ، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء ، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب ! فإرنست همنجواي ، الكاتب الأمريكي ، كان يُطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني . وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها . وقد عبَّر كاتب يُسمَّى كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور . ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرر مجلة **النيو يوركر** (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبان الحرب بغرض الحرب النفسية . وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها « إضرام الكراهية لا ضد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القيادة النازية وحسب ، وإنما ضد الألمان ككل . . . فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم . . . فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة . . . وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني ، فهتلر هو تَجسُّد لقوى أكبر منه ، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام» . ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر .

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتّاب اليهود في هذه الحملة ، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا ، « فالشعب الألماني بأسره يُشكِّل تهديداً لنا » . ولكن يمكن القول بأن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان **لابد من إبادة ألمانيا** هو من أهم الكتب المحرضة على الإبادة ، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان ، وهو ما شكَّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها . وقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان ، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية ، أو شيوعيين ، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة ، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً !

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة « هدم ألمانيا » ، وعن « تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية »(بالإنجليزية : باستورالیزیشن patsoralization) ، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي) . ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة . وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل . كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب ، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد ، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس آرميد إنيمي فورسيز -dis armed enemy forces» أي «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب» . وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب ، وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥ ، كما قضى ١٦٧ ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجةً للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque) ، وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر ، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية ، فقد قام الحلفاء بما سُمِّي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية : دي نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين في الحياة العامة ، فأُقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً . وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين) ، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف ، أُجريت لهم محاكمات عاجلة . وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم ، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩,٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي . وأصدر البريطانيون ٢٢,٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧,٣٥٣ حكماً ، والروس ثمانية عشر ألف حكم . وبحلول عام ١٩٤٥ ، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية ، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن .

وتَظْهر النزعة الإبادية نفسها في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية ، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ . فخلال عشرة أيام في مارس ١٩٤٥ ، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١,٦٠٠ ، تم خلالها إغراق ٣٢ ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل ، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل ١٥٠,٠٠٠ . أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ مايو ١٩٤٥ ، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قائدي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام . وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل .

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان " يخشى " ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه قنابله ويدمره . ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب ، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم) . كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين ، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم . ومن ثم ، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير . وكان الجنرال جروفز " محظوظاً " (كما تقول بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة . وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني ومات ١٣٠ ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع . وكأن هيروشيما لم تكن كافية ، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي، أدَّت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألف آخرين ، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد . فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين .

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام القيصري، ومن بعده النظام الستاليني ، ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) . وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا ، أما الآن فهو لا يكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة ، ومصيره بهذا لا يختلف كثيرا عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية . وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة « لأعدائه الطبقيين » مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية ، بل وتم إباده كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور . وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة . وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج : هذا حسب التقديرات المحافظة ، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً ! وقد رُفع النقاب أخيراً عن مساهمة النظام الستاليني في إبادة أعضاء النخبة الثقافية والسياسية في بولندا ، وهي سياسة لا تختلف كثيراً عن سياسة النظام النازي . وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي .

إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية ، ومع هذا تظل الإبادة النازية لليهود لها مركزية خاصة ، فكيف نفسِّر هذا ؟ تعود هذه المركزية ، فيما أعتقد ، إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها ، الأمر الذي جعلها تقض مضجع الإنسان الغربي ، فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن في الترشيد المتزايد . كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائماً « هناك » بعيداً عن أوربا ، في آسيا وأفريقيا ، أما الإبادة النازية فتمت « هنا » على أرض الحضارة الغربية ، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين . كما أن العناصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما « مثلنا تماماً » . وأخيراً يشغل اليهود مكانة خاصة في الوجدان الغربي الديني والحضاري ، فاليهودي يقف دائماً على الهامش، موضع تقديس وكُره عميقين ، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة ، التي تقف فاغرة فاهها ، في قلب حضارته الحديثة .

السياق الحضاري الألماني للإبادة :

تناولنا في الجزء السابق الإطار الحضاري الغربي العام للإبادة ، ويمكننا الآن أن نترك المنظور العام لنركز على حالة محددة وهي الإبادة الألمانية النازية ليهود أوربا . ويمكن القول بأن المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية اكتسبت حدةً خاصة في ألمانيا لأسباب عديدة من بينها تقاليد وحدة الوجود (الحلولية الكمونية) القوية التي تعود إلى جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ، وهي تقاليد ورثتها الفلسفة المثالية الألمانية وعمقتها ووصلت إلى ذروتها في فلسفة فخته الذي جعل من الذات مركز الكون وتصورها قادرة على خلق العالم . ولكن فخته في الوقت نفسه طالب بالقضاء على الفرد (الشخص الإمبريقي) وكان يحلم « بجمهورية الألمان » التي يُجنَّد كل ذكر فيها من سن العشرين حتى موته ، فهي جمهورية جنود لا مواطنين . وقد ربطت الفلسفة الألمانية المثالية الإنسان الفرد بالمطلق الذي يمكن أن يتجسد في الفرد ، كما يمكن للفرد أن يذوب فيه . وحتى يصل الفرد إلى المطلق أُعيد تعريف العقل وتم توسيع نطاقه ولم تَعُد هناك حدود تفصل بين عقل الفرد والعقل المطلق، ففقد العقل هويته وأصبح لاعقلانياً . وقد وصلت الحلولية الألمانية إلى قمتها في منظومة هيجل الشاملة التي تساوي بين المقدَّس والزمني ، ثم يبلغ الحلول منتهاه في فلسفة نيتشه وفلسفات الحياة .

في هذا الإطار تم تعيين « مطلقات » مختلفة تكون هي موضع الحلول والكمون . وكان أول المطلقات هو الشعب الألماني العضوي (فولك) موضع الحلول والكمون ، وصاحب الرسالة . وقد وُلدت القومية الألمانية في أتون الحروب وتحت شعار الوحدة والمركزية ، وصاحب ذلك تعميق مفهوم الشعب العضوي ، والإصرار على الانتماء الكامل غير المشروط مقياساً وحيداً للولاء ، وطُرح شعار " ألمانيا فوق الجميع " الذي تبناه أعضاء الشعب الألماني، وبُذلت المحاولات لإعادة صياغة الشخصية الألمانية لضمان ولائها للدولة المطلقة .

وقد بلغت سطوة هذا المفهوم حداً جعلته يبتلع المنظومة الدينية نفسها، فاختلطت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الديباجات الدينية بالقيم القومية بحيث تطلّب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية . ولكن مما يجدر ذكره أن هذه البروتستانتية كانت بروتستانتية ثقافية أو إثنية (" عقيدة أبائنا ") تركز على المشاعر الدينية دون العقيدة الدينية ، ولذا كان بوسعها أن تتصالح ببساطة مع النيتشوية والداروينية (يشير المفكر البروتستانتي الأماني بول تيليخ إلى نيتشه باعتباره مفكراً بروتستانتياً كبيراً) . وقد نتج عن ذلك تَنصُّر أعداد هائلة من يهود ألمانيا حتى يندمجوا « ثقافياً » في مجتمعهم الألماني . ووصلت نسبة هؤلاء أحياناً إلى ما يزيد عن ٥٠٪ من مجموع يهود برلين (الذين كانوا يشكلون معظم يهود ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر) .

ولكن في إطار مفهوم الشعب العضوي يصبح مثل هذا التنصر عملية «تسلل» و «تآمر» ، فصفات الشعب العضوي صفات موروثة تجري في العروق وفي أرض الأجداد . وبالفعل لوحظ تصاعد معدلات العداء لليهود في الفكر الألماني العلماني . فكتب ولهلم مار (١٨١٨ - ١٩٠٤) كتابه المهم **انتصار اليهودية على الألمانية : من منظور غير ديني** (١٨٦٢) . وكان مار مواطناً ألمانيًا (يُقال إنه كان يهوديًا) ، ثم انضم إلى جماعة فوضوية الحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨ . وقد طُبعت من الكتاب اثنتا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩ . وتحل في كتابه كلمتا «سامي» و«سامية» ، محل «يهودي» و«يهودية» . وهو الذي أشاع مصطلح «أنتي سيميتزم» ، أي «معاداة السامية» ، في اللغات الأوربية ، وبيَّن في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة ، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩ .

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على النظريات العُرقية المعادية لليهود الموسيقار الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) ، وكان صديقاً للكونت جوبينو ، وتأثر بكتابات مار . وقد طبع فاجنر كتابه **أضواء على اليهود في الموسيقى** (١٨٥٠ ، ثم ١٨٦٩) ، مصوراً اليهود باعتبارهم تجسيداً لقوة المال والتجارة ، ومنكراً عليهم أي إبداع في الموسيقى والثقافة . ثم نشر سلسلة مقالات بعنوان : « الفن الألماني والسياسة » طرح فيها فكرته الخاصة برسالة الشعب الألماني (الخالص) المعادية للمادية الفرنسية واليهودية . وقد اتهم فاجنر اليهود بالهيمنة على الحياة الثقافية في ألمانيا وطالب بحرمانهم من حقوقهم السياسية ، كما تحدث عن دمار أو إبادة أو اختفاء (بالألمانية : أونترجانج Untergang) اليهود ، أي تخليص الحياة الثقافية من اليهود بالقوة ، أو دمجهم تماماً عن طريق الفن والموسيقى . وقد تركت أفكار فاجنر أثراً عميقاً فى هتلر ، ومن ثم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت لها مكانة خاصة في التجربة النازية (ولهذا ، كانت موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل) .

وكان لإسهام المفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧ - ١٨٩١) أبعد الأثر في تعميق الهالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود . كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية) ، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (فولك) الألماني وتفوقه على الشعوب الأخرى ، ويرفض مبدأ المساواة . بل وكان يرى أن الليبرالية مؤامرة عالمية خطيرة . ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود ، فهما لونان لهما شخصيتهما ، بل وقع اختياره على الرمادي ، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأممية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها " نحو العالم " ، على حد قوله ، ولأنها تقطع الطريق على الأماني والأطماع الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوربا الوسطى للسيطرة الألمانية ، وإلى التخلص من إمبراطورية هابسبورج ، وإلى إجلاء السلاف عن البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين . وبطبيعة الحال ، ربط لاجارد بين الليبرالية الأممية الرمادية واليهود ، الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً كريهاً ولا مغزى تاريخي لهم ، يهدِّدون رسالة ألمانيا ووحدتها القومية . ولم تكن أفكار لاجارد عنصرية سوقية وإنما كانت عصرية أكاديمية تستخدم ديباجات علمية ، فقد كان يؤكد أنه لا يكِّن أي عداء لليهود كأفراد وإنما يعادي أمة سامية وثنية غريبة يعرقل وجودها (الموضوعي) اتحاد أوربا الوسطى تحت قيادة ألمانيا ، ولذا فلابد من طرد أعضائها أو ترحيلهم بالقوة .

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية لليهود على أساس عُرقي ، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) الذي كان يُعدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره ، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام . وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي ، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبوذ) ، ثم طرح الشعار المشهور « اليهود مصيبتنا » . وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي (إشارة إلى الانفجار السكاني بين يهود بولندا) ، وهو تدفق لا ينضب ، « جمع من الشباب الطموحين بائعي الملابس القديمة الذين سيسيطر أطفالهم وأطفال أطفالهم يوماً ما على سوق الأوراق المالية والصحف في ألمانيا » . وقد تبدَّى هذا الرفض لليهود في شكل تعاطف مع المشروع الصهيوني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين الذي أسلفنا الإشارة إليه ، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ، ألماني بالاختيار ، كان معجباً بالثقافة الألمانية إعجاباً عميقاً . وقد تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته ، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد ، وألّف أهم كتب العنصرية الغربية **أسس القرن التاسع عشر** (١٨٩٩) . وقد آمن تشامبرلين بتفوق الإنسان النوردي الأشقر ، وبأن قَدَر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء ، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم . وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف . واليهود ، بحسب رأي تشامبرلين ، يشكلون عرقاً هجيناً متحركاً هامشيًا طفيليًا لا جذور له . وهم غير قادرين على الإبداع ، ولا يوجد لديهم إحساس ديني ، بل إن وجودهم نفسه جريمة ضد الإنسانية . وذهب تشامبرلين إلى أن الشخصيات المهمة في بدايات التاريخ اليهودي ، مثل داود والأنبياء والمسيح ، من أصل ألماني ! وتنبأ بالمواجهة الحتمية بين الساميين والآريين .

وقد عرضنا لفكر بعض المفكرين الألمان المعادين لليهود . ومع هذا ، لا يمكن إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي ، شأنها في هذا شأن الصهيونية . ولهذا ، لم تقتصر كُتب معاداة اليهود على ألمانيا . فهناك كتابات الكونت جوبينو الفرنسي ، التي أسلفنا الإشارة إليها . ويمكن أن نشير الآن إلى إدوارد أدولف دروامون (١٨٤٤ - ١٩١٧) ، وهو أيضاً فرنسي ، وقد ضَمَّن أفكاره كتاب **فرنسا اليهودية** (١٨٨٦) الذي طُبِع أكثر من مائة طبعة ، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر . وقد ألف دروامون كتباً أخرى تتضمن الأفكار والرؤية نفسها .

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود ، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ - ١٩١٠) ، فقد نشر عام ١٨٧٨ ، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا ، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح لليهود مواطنين في دول أوربا المضيفة ، كما حاول أن يبرهن على أن وجودهم يشكل خطراً سياسيًا على بلده . ولهذا السبب ، نادى سميث بحل صهيوني للمسألة اليهودية . العداء العنصري لليهود ليس ظاهرة ألمانية ، وإنما هي ظاهرة غربية عامة ، اكتسبت حدة خاصة في ألمانيا .

ثم نأتي لأهم المفاهيم في الحلولية الكمونية المادية وهو مفهوم الدولة ، التي تشغل مكاناً خاصاً في التفكير الرومانسي الألماني . وكما تم ربط الفرد بالمطلق ، ثم ربط مفهوم الحرية بالدولة ، بحيث لا تتحقق الحرية إلا من خلال الدولة (ومن هنا جنود فخته الأحرار !) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) في فلسفة هيجل حيث تصبح الدولة هي المطلق ، بل وتجسيداً له ، وهي الإطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي أن يعبِّر عن نفسه من خلاله . إن الدولة أصبحت هي المطلق مجازياً وحرفياً ولذا طالب هيجل الإنسان بأن يعبد الدولة كما لو كانت إلهاً سماوياً ، وهذه هي قمة الحلولية الوثنية (التي ستعبِّر عن نفسها بشكل سوقي من خلال النازية والصهيونية فيما بعد) .

وقد تزامن هذا مع تزايد النزعة التاريخانية (تحت تأثير هيجل وغيره) بحيث لم يعد من الممكن أن يسأل الإنسان هل هذا الفعل خيِّر أم شرير ، إذ أصبح السؤال الوحيد الممكن هو : هل يتفق هذا مع اللحظة التاريخية أو لا ؟ كما انتشرت الأفكار الداروينية بشكل متطرف ، التي تُهمِّش الإنسان الفرد تماماً .

وقد واكب هذه النسبية الأخلاقية تزايد الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية ، فتعقيم المعوقين كان أمراً مقبولاً في الطب الألماني مع بداية القرن العشرين (الأمر الذي يعني أن أعداداً كبيرة من الأطباء الألمان اليهود كانوا متورطين في هذه الرؤية . ومن المعروف أن الأطباء اليهود لم يُطردوا من مهنة الطب في ألمانيا إلا في عام ١٩٣٣) . كما عرف الألمان أسلوب الانتفاع من الجثث البشرية قبل ظهور النازي ، أي أن تزايد إطلاق الدولة واكبه تهميش الفعل الأخلاقي الفردي والمسئولية الفردية فتم استيعاب الفرد في الكل الشامل .

وكان الشاعر هايني من أكثر المفكرين إدراكاً لخطر الحلولية الكمونية التي تجعل الإنسان إلهاً على الأرض ، وفي الوقت نفسه تجعل الدولة إلهاً على الأرض . فقال إن فيلسوف الطبيعة سيعقد تحالفاً مع قوى الطبيعة الكونية وسيوقظ القوى الشيطانية لوحدة الوجود الألمانية التي ستضرم الشهوة للحرب (التي تسم الألمان القدامى) حيث لا يحارب الجندي ليدمر ويكسب المعركة ، وإنما يحارب من أجل الحرب .

هذه هي بعض مكونات السياق الحضاري الألماني للنازية وللإبادة النازية لليهود (ولغيرهم) . وقد تشابكت هذه المكونات وتصاعدت حدتها وبلغت حدّاً عالياً من التبلور في العقيدة النازية ، التي تشكل تعبيراً صافياً ونماذجياً عن المُثُل العليا للحضارة العلمانية الغربية وعن النموذج الحاكم الكامن فيها . والعقيدة النازية لم تفعل أكثر من وضع هذه المُثُل موضع التنفيذ بشكل أكثر تطرفاً من المعتاد ، إذ طُبّقت الأفكار بشكل أكثر ثورية وأكثر منهجية وشمولاً على البشر كافة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النازية والحضارة الغربية :

كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف منَ العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايتربارتي Nationalsozialistische Deutsche Arbeiterpartei (NSDAP)» ، أي «الاشتراكية القومية» ، وهي حركة عرقية داروينية شمولية ، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا ، وعلى المجتمع الألماني بأسره . والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية ، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات ، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى . كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أُسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة . وكان المنظِّر الأساسي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي ، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك . وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج ، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب . ج . جوبلز وهتلر نفسه ، وشخصيات أخرى مثل يوليوس سترايخر . وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة ، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة ، وعلى جمهورية وايمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع ، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي . ورغم أن الحزب كان يُسمَّى «حزب العمال» ، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه ، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلين عن العمل . وأُعيد تنظيم الحزب عام ١٩٢٠ وسُمِّي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم ، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً ، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين . وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي . وحل كتاب هتلر **كفاحي** محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر) ، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطابٌ نازيٌ أكثر تبلوراً ومادية .

وسار الحزب النازي بخطى واسعة في الفترة من ١٩٣٠ حتى١٩٣٢ ، ووصلت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عضويته إلى مليونين بحيث أصبح الحزب الثاني في ألمانيا أثناء فترة الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩ ، وهي فترة شهدت تآكل مدخرات الطبقة الوسطى الألمانية وانتشار الحركات الإباحية والبغاء والفوضوية وتَعاظُم نفوذ الشيوعيين . ورغم أن هتلر خسر انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢ أمام هندنبرج ، إلا أن حزبه النازي أصبح أكبر حزب ألماني على الإطلاق . وقد فشل المستشار فون بابن في الاحتفاظ بأغلبية تمكنه من الحكم في البرلمان ، فأُجريت انتخابات أخرى . وكان هتلر قد حصل إبان ذلك على الدعم المالي من رجال المال والصناعة في وادي الراين الذين كانوا يهدفون إلى احتوائه واستخدامه كأداة .

وكان هتلر يستخدم خطابين مختلفين : أحدهما للجماهير ، والآخر لرجال المال . وقد احتجت بعض العناصر الاشتراكية في الحزب على الاتجاه المتزايد نحو اليمين ، ولكن هتلر نجح في القضاء على هذه العناصر . وفي عام ١٩٣٣ ، قام الرئيس هندنبرج بتعيين هتلر مستشاراً . وحينما اندلع حريق في مبنى البرلمان ، قام هتلر بطرد النواب الشيوعيين بعد أن ألقى التبعة عليهم . ثم اقترع البرلمان على منح هتلر سلطات شاملة ، ومن ثم أنجز هتلر ثورته القانونية . وفي يونيه ١٩٣٤ ، أصبح الحزب النازي هو الحزب الأوحد ، وقام هتلر بتصفية البقية الباقية من العناصر العسكرية في حزبه بطريقة دموية ، وكان من بينهم إرنست روم رئيس قوات العاصفة . كما قام هتلر بضرب اليمين ، فأثبت بذلك أنه لم يكن مجرد أداة في يد المموِّلين أو بقايا النظام الملكي فأمم المصارف وبعض الصناعات . ومع هذا ، استفادت العناصر الرأسمالية من خلال سيطرة الدولة على كثير من القطاعات الاقتصادية ، وأُلغيت اتحادات العمال ، وفقد العمال حقوقهم ، وتم استيعابهم في مؤسسات الحزب ، وتم التنسيق بين جميع مؤسسات الدولة والحزب . كما أصبحت الخدمة العامة إجبارية ، ثم فُرض التجنيد الإجباري وأُخضعت ألمانيا كلها لنظام مركزي قوي . وأُلغي استقلال الولايات ، وأُخضعت لهيمنة الفوهرَر وأجهزته مباشرة ، بل أسس الحزب كنيسة ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية .

وفي عام ١٩٣٦ ، بدأت خطة السنوات الأربع لإعادة تسليح ألمانيا ، وإعادة تنظيم الاقتصاد انطلاقاً من الاعتماد على الذات . وقد حقق النازيون نجاحاً اقتصاديًا باهراً ، الأمر الذي زاد من التفاف الجماهير حولهم ، حيث تم القضاء على البطالة وبُنيت منشآت عامة عديدة ، ثم سيطر هتلر على حزبه سيطرة كاملة ، وتولى هملر رئاسة الجستابو (البوليس السري) عام ١٩٣٦ . وبعد موت هندنبرج ، أصبح هتلر رئيساً للدولة لا يقاسمه السلطة أحد . ونجح في استصدار قرار عام ١٩٣٤ بتأسيس الرايخ الثالث الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيدوم ألف عام (والرايخ هو ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدَّسة حيث يمتد الرايخ الأول من تاريخ تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة عام ٩٦٢ حتى انحلالها عام ١٨٠٦ ، والرايخ الثاني هو الإمبراطورية الألمانية منذ ١٨٧١ وحتى ١٩١٨ ، أما الرايخ الثالث فهو الدولة النازية من ١٩٣٣) ، وأصبح هو حاكم (فوهرر) ألمانيا بلا منازع .

وبدأ هتلر في تنفيذ مخططه الإمبريالي في الداخل والخارج صدوراً عن الرؤية النازية للعالم التي استمدت ملامحها الأساسية من الحضارة الغربية :

١ ـ السمة الأساسية للمنظومة النازية هي علمانيتها الشاملة وواحديتها المادية الصارمة . وقد هاجم ألفريد روزنبرج (أهم «الفلاسفه» النازيين) المسيحية باعتبارها عقيدة يهودية تدافع عن المطلقات . وفي كتابه **أسطورة القرن العشرين** حاول أن يُبيِّن بعض الأطروحات الأساسية للنازية ، فالروح والعرْق هما شيء واحد ، فالعرْق إن هو إلا التعبير البراني عن الروح ، والروح إن هي إلا التعبير الجواني عن العرْق (وهذا لا يختلف كثيراً عن تصور الفلسفة الألمانية المثالية عن تماثل الروح والطبيعة) ، والروح العرْقية هي التي تحرك التاريخ . بل إن روزنبرج كان مدركاً للحلولية كنمط نهائي ، إذ يؤكد أن الروح الألمانية تعبِّر عن انتصار فكرة الحرية وعن التصوف الحقيقي ، تصوف المعلم إيكهارت ، وهي صوفية مسيحية اسماً ومظهراً وحسب ، ولكن يجب أن تُفهم باعتبارها تزايد حرية الروح إلى أن تصل إلى المرحلة التي تتحرر فيها تماماً من الإله نفسه . وكان روزنبرج ، انطلاقاً من عقيدته العرْقية هذه ، يعطي مواعظ نارية عن أسطورة الدم .

ولكن هتلر ، بذكائه الشديد ، حاول أن يُبقي هذه النقطة من برنامجه غامضة حتى لا يستفز الجماهير ولا يواجه الكنيسة بشكل علني . وقد عقد اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليكية غير أنه لم يلتزم به وأرسل بكثير من رجال الدين إلى المحرقة . وقد أسس هتلر « كنيسة » ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية ، وتطهير فكرة القومية الألمانية من العناصر المسيحية التي دخلت عليها . وكان الالتحاق بهذه الكنيسة القومية ـ ومن ثم الانفصال عن المنظومة المسيحية ـ شرطاً أساسيًا للانضمام إلى فرق الحرس الخاص المعروفة بالإس . إس . وفي السنوات الأخيرة من حكم النازي ، وضع هتلر مخططاً شاملاً للقضاء على الكنائس المسيحية بشكل كامل ، حتى تسود الواحدية المادية وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا ولدولة الرايخ الثالث . وكل سمات النازية الأخرى تنبع من رؤيتها العلمانية الإمبريالية الشاملة .

٢ ـ تتضح مادية النازيين الصارمة في إنكارهم للطبيعة البشرية وثباتها فكل شيء من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منظورهم خاضع للتغير والحوسلة . ويمكن القول بأن ثمة نزعة مشيحانية علموية مادية قوية هي التي تعطي النازية تفردها واختلافها عن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى . فالنازية دفعت بكثير من المقولات الكامنة في الرؤية العلمانية الشاملة إلى نتيجتها المنطقية ، ولم تعد تَقْنَع بتغيير العالم وإنما كانت تطمح إلى تغيير النفس البشرية ذاتها . (وعلى كل ، هذا الاتجاه أمر كامن في كل الطوباويات التكنولوجية التي تعود بداياتها إلى بداية عصر النهضة في الغرب) . ومن هنا اهتمام النازيين بعلم مثل علم تحسين النسل (بالإنجليزية : إيوجينكس eugenics) وإعادة تنظيم العالم من خلال سياسات بيولوجية وضعية . ومن هنا حربهم الشديدة ضد الأمراض النفسية والجسمانية وضد كل انحراف عن المعيارية العلمية الصارمة (ومن هنا نجد أنهم قاموا بإبادة الأقزام!) .

٣ ـ آمن النازيون بفكرة الدولة باعتبارها مطلقاً علمانيًا متجاوزاً للخير والشر . وحدَّد هتلر المطلق الأول والأوحد (الدولة) بدقة غير عادية حين قال إنه لابد من تحقيق العدالة وتوظيفها في خدمة الدولة ، أي أنه لا يوجد مفهوم مطلق للعدالة ، وإنما تتحدد العدالة بمقدار تحقيق نفع الدولة . والدولة كمطلق هي الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي (فولك) الألماني من خلاله عن إرادته .

٤ ـ تبنت النازية النظرية العرْقية الداروينية الغربية ، وأكدت التفوق العرقي للشعب الألماني على كل شعوب أوربا ، ولشعوب أوربا على كل شعوب العالم . ورفض هتلر فكرة المساواة بين البشر باعتبارها فكرة دينية («حيلة يهودية مسيحية » ، « نوع من التنويم المغناطيسي تمارسه اليهودية الغازية للعالم بمساعدة الكنائس المسيحية ») .

٥ ـ من الأفكار الأساسية في الفكر النازي فكرة الشعب العضوي (فولك) الذي تُوجَد وحدة عضوية بين أعضائه من جهة ، وبين حضارتهم والأرض التي يعيشون عليها من جهة أخرى ، وهي وحدة لا تنفصم عراها . ولا يمكن لهذا الشعب أن يحقق كل إمكانياته إلا بعد أن يضم إليه مجاله الحيوي (الأرض في الثالوث الحلولي العضوي) حتى تكتمل الدائرة العضوية . أما العناصر الغريبة الأجنبية فهي تؤدي إلى إعاقة هذا التكامل العضوي الصارم ، وبالتالي فهي عناصر ضارة لابد من استبعادها .

٦ ـ من العبارات المتواترة في الخطاب العضوي النازي عبارة «الدم والتربة» ، وهي ترجمة للعبارة الألمانية «بلوت أوند بودين Blut und Boden» ، وهي من الشعارات الأساسية للنازية والمرتبطة بفكرة الشعب العضوي . وهذه العبارة النيتشوية تمجد آداب الفلاحين وعواطفهم باعتبارها تجسيداً للصفتين الأساسيتين اللتين يستند إليهما رقي الجنس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الألماني ؛ الدم الألماني والتربة الألمانية . وهي تُحوِّل الدم والتربة إلى المرجعية أو الركيزة النهائية التي يستند إليها النسق المعرفي والأخلاقي . وشعار «الدم والتربة» هو مثل جيد على ما نسميه «الواحدية المادية الكونية» التي تسم الأنساق الحلولية الكمونية ، حيث يصبح المطلق كامناً في المادة لا متجاوزاً لها ، ويُنصِّب شعبٌ من الشعوب نفسه إلهاً على بقية الشعوب ، فدمه وتربته يحويان كل القداسة ويعطيانه حقوقاً مطلقة لا يمكن النقاش بشأنها . ولكن هذه الحلولية هي حلولية بدون إله ، فثالوث القومية العضوية : الدم ـ التربة ـ الشعب ، ليس إلا صدىً للثالوث الحلولي الوثني : الإله ـ الطبيعة ـ الإنسان . ويبدو أن الدم ، باعتباره حامل القداسة وباعتباره الصلة التي تربط الإنسان والأرض ، يحل محل الإله . (وقد وجدت هذه العبارة طريقها إلى الفكر والخطاب الصهيوني) .

٧ ـ وقد ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم العرق السيد ، وهو العرْق الآري الألماني التيوتوني الذي سيحتفظ بنقائه العرقي ويؤسس أمة تتألف من الحكام المحاربين والمفكرين ، قدرها المحتوم أن تحكم الأعراق الدنيا وتعيش على عملها وتحقق السيادة على العالم . وهذه الأمة ستنظم نفسها على شكل هرمي تقف على قمته نخبة تتسم بالصفات العرْقية الأكثر تفوقاً ، وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس والتاريخي للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) . وكان تنظيم الحزب النازي تعبيراً عن هذه الرؤية نفسها ، فقد استعار هتلر من التنظيمات الشيوعية فكرة الخلية والتنظيم الهرمي للحزب والانضباط الداخلي ، واستعار من الفاشية الإيطالية فكرة ميليشيا الحزب ذات الزي الموحَّد ، وهؤلاء هم مرتدو القمصان البُنيَّة وكان يُشار إليهم بالحرفين S.A. ، وهما اختصار عبارة «شتورم أبتايلونج Sturm-Abteilung» أي «قوات العاصفة» . أما «النخبة» ، فهم فرق الإس . إس S.S. وهي اختصار للعبارة الألمانية «شوتس ستافل Schutz-Staffel» ومعناها «نخبة الأمن» أو «الحرس الخاص» ، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداء وشارة الموت . وكان للحزب تحيته الخاصة بأن يرفع العضو ذراعه اليمنى ويقول : «هايل هتلر» . وأصبح الصليب المعقوف رمزه ، كما كان له نشيده الخاص .

٨ ـ رأت العقيدة النازية أن هذا الهرم الألماني المنظم ، لابد أن يسيطر على العالم بأسره . وقد استفادت هنا من الفكر الجغرافي السياسي (الجيوبولوتيكي) الغربي . إذ رأى النازيون أن ألمانيا أمة حركية من حقها أن تحصل على مجال يتناسب مع قوتها وحيويتها وحركيتها ، وهو مجال أوسع مما سمحت به معاهدة فرساي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩ ـ انطلاقاً من كل هذا وُضعت ألمانيا فوق الجميع وأصبح للألمان حقوق مطلقة فيما تصوروا أنه مجالهم الحيوي . وقد رأى النازيون أنه يجب على الشعب الألماني أن يستيقظ من سباته ويتنبه للخطر ، وأن يغزو مجاله الحيوي حتى يصبح مجالاً ألمانيًا صرفاً خالياً من السلاف .

١٠ ـ لكن الشعوب العضوية (فولك) تحتاج دائماً إلى آخر تستمد منه هويتها . والآخر هنا هو كل من يقف في طريق تحقيق الأطروحات النازية ، وهم في هذه الحالة السلاف بالدرجة الأولى ، الذين يشغلون المجال الحيوي في الخارج . أما في الداخل ، فكانت توجد عناصر عديدة غير نافعة مستهلكة دون أن تكون منتجة ، وأحياناً ضارة ، من بينها المعوقون والشواذ جنسيًا والشيوعيون والغجر والمصابون بأمراض وراثية مزمنة ، بل والأقزام . ولذا كان النازيون يرون ضرورة إبادة العناصر الضارة في الداخل والخارج : السكان السلاف الذين يعيشون داخل المجال الألماني الحيوي ، والغجر ممن لا نفع له ، واليهود خصوصاً الأقلية المالية اليهودية .

١١ ـ ولكن لنركز على أعضاء الجماعة اليهودية وحدهم ، لا بسبب أهميتهم المطلقة ولكن بسبب أهميتهم من منظور هذه الدراسة . كان اليهود ـ حسب التصور النازي ـ من أهم القطاعات غير النافعة ، بل والضارة ، فهم يتركزون في القطاعات الهامشية للاقتصاد، مثل تجارة الرقيق الأبيض . ورغم أنهم مثل البكتريا والطفيليات التي تعيش على الآخرين ، إلا أنهم يدَّعون أنهم يُشكلون عرْقاً ساميًا وشعباً مختاراً ، ولذا فهم يحاولون دائماً الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب الأخرى . ويشير هتلر إلى أن اليهود سيطروا على عالم المال في ألمانيا ، وأنهم يحيكون مؤامرة عالمية للسيطرة ولذا فهم يحاولون إشعال الحروب والثورات (وهذه هي الأفكار الأساسية في **بروتوكولات حكماء صهيون** ، وفي كتاب إدموند دروموند **فرنسا اليهودية** ، وهما من أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر) . كما بيَّن هتلر أن الماركسية والماسونية ليست إلا مجرد حيل يهودية للسيطرة على العالم . وقد صُنِّف اليهود أحياناً باعتبارهم سلافيين ، لأن كثيراً منهم كانوا «أوست يودين Ostjuden» ، أي من يهود شرق أوربا . وأُلقي اللوم على اليهود باعتبارهم مسئولين عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وعن إذلالها . ولذا قرر الألمان أن يجعلوا المجال الحيوي الألماني «خالياً من اليهود» (بالألمانية : يودين راين Judenrenrein) .

وقد بدأ النظام النازي حملته على اليهود عقب تعيين هتلر مستشاراً في ٣٠ يناير عام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٩٣٣ . ففي أبريل عام ١٩٣٣ نُظمت مقاطعة للأعمال التجارية اليهودية ، ثم استُبعد اليهود من كثير من الوظائف العامة . وفي أبريل ١٩٣٥ ، استُبعد الأطفال اليهود من النظام التعليمي . وفي سبتمبر من نفس العام ، صدرت قوانين نورمبرج التي نزعت عن أعضاء الجماعة اليهودية حقهم في أن يكونوا مواطنين بالرايخ ، تنفيذاً لفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ ، ومُنعت الزيجات المختلطة بين اليهود والآريين . وفي عام ١٩٣٨ ، مُنع اليهود من العمل في الوظائف الوسيطة كأن يكونوا وكلاء وبائعين ومديري عقارات ومستشارين في الأعمال التجارية . وأدَّى اغتيال عضو في السفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ إلى قيام ثورة شعبية ضد اليهود تُعرف باسم «كريستال ناخت» أي «الليلة الزجاج المحطم» أُحرق خلالها أربعمائة معبد ونُهب كثير من المتاجر والمنازل الخاصة ، وتم القبض على الألوف منهم وفُرضت غرامة على اليهود (ككل) . وبعد ذلك بدأ النظام النازي في عملية الإبادة والحل النهائي النازي للمسألة اليهودية والتي استمرت حتى نهاية الحرب .

وكما سنبين فيما بعد لم يكن النظام النازي عشوائياً لاعقلانياً في اضطهاده لأعضاء الجماعات اليهودية ، بل إن كلمة «اضطهاد» ذاتها قد لا تنطبق على علاقة النازيين بأعضاء الجماعات اليهودية إذ أن ما حدد هذه العلاقة هو مدى نفع اليهودي وإمكانية توظيفه .

١٢ - أشرنا من قبل إلى تَراجُع الجوانب الاشتراكية (الإنسانية) في برنامج الحزب النازي الذي كان يحوي بلا شك بعض المطلقات الإنسانية (مثل فكرة العدل وضرورة التكافل) ، وظهور رؤية مادية واحدية صارمة في ماديتها وواحديتها تنفي المطلقات والثوابت والماهيات كافة ، رؤية علمانية شاملة تنزع القداسة عن كل شيء بحدة وشراسة وتُسقط تماماً فكرة الحرمات . وهذا التحول عن الإنسانية (الهيومانية) والسقوط التدريجي والمطَّرد في الواحدية المادية هو نمط التطور الأساسي في الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تطورت من رؤية إنسانية (علمانية جزئية) تحوي مطلقات إلى روية علمانية إمبريالية شاملة تنفي المطلقات والثوابت والكليات كافة .

١٣ - تنطوي الرؤية النازية للكون ، شأنها شأن كل الرؤى المادية ، على إشكالية أساسية داخلها ، وهي مشكلة الأساس الفلسفي والمعرفي الذي تستند إليه منظومات الإنسان الأخلاقية . وقد حسم النازيون هذه القضية بتصورهم أن العلم (الطبيعي) قادر على مساعدة الإنسان على التوصل إلى حلول لجميع المشاكل ، وضمن ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية . ومن ثم فالعلم هو وحده القادر على تحديد الصالح والطالح والخيِّر والشرير وهو وحده المرجعية النهائية . ولذا طالب النازيون بضرورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع ، وآمن النازيون بالمنفعة المادية كمعيار أخلاقي للحكم على الواقع . وبالفعل ، اتسم النازيون بالحياد العلمي الشديد في تعاملهم مع الواقع ومع البشر ، واستخدموا مقاييس علمية رشيدة لا تشوبها أية قيم أخلاقية أو عاطفية أو غائية ، وتحوَّل كل البشر ، وضمن ذلك الألمان ، إلى مادة بشرية . ومن ثم ، قُسِّم العالم كله إلى نافعين وغير نافعين (وهو تقسيم يعود إلى القرن الثامن عشر ، عصر العقل المادي والعقلانية المادية) . وتقرر أنه لا يستحق الحياة إلا من ينتج ويستهلك ، أما من لا ينتج ويستهلك (بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters حرفياً «من يأكلون ولا نفع لهم») فمصيره أمر مفروغ منه ، فقد صُنِّف على أن حياته لا قيمة لها (بالألمانية : بالاست إكسستينزن Ballastexistenzen) بل وتشكل عبئا على الإقتصاد الوطنى بطبيعة الحال .

١٤ ـ ولكن كما هو الحال دائماً تخبئ الرؤية العلمية النفعية المحايدة أخلاقيًا الرؤية الداروينية النيتشوية ، بتأكيدها على فكرة البقاء باعتباره القيمة المطلقة والصراع باعتباره الآلية الوحيدة للبقاء ، وهي عملية مادية محضة . فالبقاء هو البقاء المادي ، والصراع صراع مادي ، والبقاء في هذه الغابة الداروينية الواحدية المادية التي لا تعرف الرحمة أو العدل ليس من نصيب الأرق قلباً أو الأرقى خُلقاً أو الأكثر تراحماً وإنما هو من نصيب الأصلح والأقوى ماديًا (فالقوة هي المطلق النهائي) ، والأقوى هو الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه والذي يتحلى بأخلاق الأقوياء ويضرب بيد من حديد على الضعفاء بدلاً من أن يأخذ بأيديهم .

بعد تَقبُّل النازيين النفع المادي والقوة ، باعتبارهما المعيار الأخلاقي الأوحد في منظومة معرفية علمانية مادية شاملة لا تعرف المطلقات الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية ، قام المفكرون والعلماء النازيون بتقييم الواقع المحيط بهم من خلال هذه المنظومة الفكرية المادية وصنفوا كثيراً من العناصر باعتبارها غير نافعة : (السلاف ـ الغجر ـ اليهود ـ المعوقين إلخ) .

ولا يمكن الدفاع عن كل هؤلاء من منظور أخلاقي مطلق ، فهذا أمر مرفوض من منظور علماني شامل ، نفعي نسبي ، مستنير رشيد ، ينطلق من حساب دقيق للمدخلات والمخرجات . ومن يريد الدفاع عن نفسه عليه أن يفعل ذلك من داخل المنظور العلمي النفعي المستنير لا من خارجه .

وكان قد تم إعداد الآلة المادية النفعية ذات الكفاءة العالية ، كما تم تحويل العالم بأسره ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على المستويين المعرفي والوجداني ، إلى مادة استعمالية خام . ومن جهة أخرى ، تم استئناس الشعب الألماني وترشيده وتحييد حسه الخلقي تماماً وإسكات عواطفه ، ليكون في انتظار التعليمات والحلول الواقعية العلمية العملية (المادية) النهائية لمشاكله ، وهي حلول ستأتيه من مجموعة من رجال الحزب والعلماء وأهل التخصص .

وحينما بدأت آلة الإبادة المادية النفعية الموضوعية الجهنمية ذات الكفاءة العالية منقطعة النظير ، في الدوران ، كانت الإبادة قد تحققت معرفيًا ووجدانيًا ونظريًا ، من خلال النموذج الواحدي المادي ، قبل أن تتحقق فعليًا من خلال معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة .

إن الأطروحات الأساسية للنازية هي ذاتها الأطروحات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة والتشكيل الإمبريالي الغربي . وبالفعل حظيت الحركة النازية في البداية بتأييد رأسمالي غربي لأنها كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره العدو الأكبر (السلافي) للحضارة الآرية ، ومن ثم كان الرايخ الثالث من هذا المنظور يشكل قلعة ضد الزحف السلافي الشيوعي . ولكن ستالين كان أكثر دهاءً ، حيث عقد حلفاً مع هتلر اقتسما بمقتضاه بولندا والمجال الحيوي المحيط بها . ثم تحالف الغرب الرأسمالي مع الشرق الاشتراكي ضد هتلر ، لا دفاعاً عن المبادئ ولكن لأنه بدأ يهدد مصالحهما معاً .

ولعل سيرة حياة العالم الألماني د . إ . فيشر E. Fischer تُبيِّن مدى عمق تَجذُّر المنظومة النازية في الحضارة الغربيّة . فقد بدأت سيرته العلمية عام ١٩٠٨ حينما قامت السلطات الألمانية بإلغاء كل الزيجات المختلطة في مستعمرة جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا في الوقت الحاضر) التابعة لألمانيا وحرمان الألمان ممن تزوجوا من غير البيض من حقوقهم المدنية . في هذا الإطار قرر الدكتور فيشر ، أستاذ التشريح بجامعة فرايبورج ، أن يبدأ دراساته عن أبناء الزيجات المختلطة التي تمت بين البوير (وهم من أصل هولندي) ونساء قبائل الهوتنتوت الأفريقية . وقد نشر نتائج بحثه عام ١٩١٣ . وكان من ضمن التوصيات «العلمية» التي وردت في هذا الكتاب ما يلي : « من الواجب أن نزود أبناء مثل هذه الزيجات المختلطة بالحد الأدنى من الحماية الذي يتطلبه البقاء ، باعتبارهم جنساً متدنياً عنا . وبعد هذا يجب أن تسود المنافسة الحرة ، التي ستؤدي إلى تدهورهم وتدميرهم » . ثم ألَّف فيشر كتاباً مع آخرين بعنوان **مبادئ الوراثة الإنسانية والصحة العرقية** ، أي أن فكر الدكتور فيشر العلمي ، الداروينى العنصري ، وُلد في صميم التشكيل الحضاري والاستعماري الغربي .

ومن هذه البيضة خرجت الأفعى ، فقد وصلت نسخة من هذا الكتاب إلى هتلر في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سجنه عام ١٩٢٣ ، وكان آنذاك يكتب كتابه المشهور كفاحي فطوَّر أفكاره عن العرق وأعطاها التبريرات " العلمية " المطلوبة .

وفي عام ١٩٢٩ عُقد المؤتمر الدولي (أي الغربي) لتحسين النسل في روما . وترأسه العالم الأمريكي المشهور دافنبورت . وقد أرسل فيشر بمذكرة إلى الحكومة الإيطالية ليُبيِّن لها أهمية علم تحسين النسل . وفي ديسمبر من العام نفسه عُيِّن فيشر رئيساً للجنة الاختلاط العرْقي في الفيدرالية الدولية (أي الغربية) لمنظمات تحسين النسل . وقد ذاع صيت فيشر وعلت مكانته في المؤسسة العلمية الغربية حتى أن دافنبورت رشحه خليفة له (في مؤتمر تحسين النسل المنعقد في نيويورك) ليترأس الفيدرالية الدولية (أي الغربية) . ولكن فيشر لم يقبل العرض بسبب مشاغله .

وبعد عدة شهور (٣٠ يناير ١٩٣٣) أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا ، وبعدها بيومين ألقى فيشر محاضرة بعنوان « الاختلاط العرْقي والإنجاز الثقافي » ثم عُيِّن رئيساً لجامعة برلين في ذلك العام . وبدأ فيشر ينوِّه بالنظام النازي وبنخبته الحاكمة لأنها تفكر من خلال « الإطار البيولوجي » وتتدخل في مسار التاريخ لتحمي الصفات العرقية الألمانية . وفي عام ١٩٣٥ قام بمناقشة قضية تعقيم الأطفال الألمان الملونين . وفي عام ١٩٤١ كان فيشر هو ضيف الشرف في حفل افتتاح معهد دراسة المسألة اليهودية في فرانكفورت حيث طالب بحل المسألة اليهودية عن طريق نقل اليهود من أوربا كما طالب بتعقيم ربع اليهود . وقد حضر في عام ١٩٤٢ اجتماعاً لمناقشة مسألة إنهاك (تقويض ـ تفكيك) شعوب شرق أوربا من خلال العمل (بالإنجليزية : سكرابنج ثرو ليبور scrapping through labour) وإعادة توطين الملايين منهم في سيبريا . ثم كتب فيشر مقالاً يُشير فيه إلى أن العلم النازي قد ازدهر لأن الطبقة الحاكمة ترحب به وتضع نتائجه موضع التنفيذ وفي خدمة الدولة . وحتى قرب نهاية الحرب كان لا يزال فيشر يقوم بجهوده " العلمية " النازية فقَبل أن يكون رئيساً للمؤتمر المعادي لليهود والذي كان سيُعقد في كراكوف في بولندا (ولكنه لم يُعقد لأن الستار كان على وشك أن يُسدل على التجربة النازية ككل) .

النازية هي وليدة الحضارة الغربية إذن ، ومع هذا يتساءل بعض الدارسين الغربيين للإبادة النازية عن الكيفية التي أمكن بها لمجتمع غربي يُقال إنه «متحضر» مثل المجتمع الألماني (مجتمع هيجل وفاجنر وهايدجر) أن يفرز حركة بربرية تماماً كالحركة النازية ثم يُخضع كل أعضاء المجتمع لها . وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال ، ذهب بعضهم إلى القول بأن النازية هي مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني وحسب وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذهب المؤرخ الألماني إرنست نولت Ernest Nolt (وهو أستاذ في جامعة برلين الحرة يمثل تياراً مراجعاً داخل علم التاريخ في ألمانيا) إلى أن المرحلة النازية ليست مرحلة نماذجية، أي لا ترقى إلى مستوى النموذج والنمط ، وإنما هي مرحلة عرضية غير مُمثِّلة لمسار التاريخ في ألمانيا . وهم يُقارنونها بروسيا الستالينية . ويذهب نولت إلى القول بأن النازيين قاموا بعمليات الإبادة خوفاً من أن تُطبَّق عليهم سياسات الإبادة التي كان يطبقها السوفييت منذ عام ١٩١٧ على الطبقات والشعوب غير المرغوب فيها ، بل ويؤكد أن النازيين تعلموا الإبادة والتصفية الجسدية ومعسكرات السخرة من الشيوعية السوفيتية ومن ممارسات ستالين الإبادية ؛ فالأصل هو الجولاج ، وأوشفيتس هي النسخة .

وهناك كثيرون داخل ألمانيا وخارجها يعارضون هذا الرأي ويؤكدون أن سلوك الألمان هو جزء لا يتجزأ من تاريخهم الحضاري (بل هناك من يتطرف إلى درجة القول بأن سلوك الألمان هو في واقع الأمر تعبير عن طبيعتهم الثابتة) . والحوار هنا يتعلق بدلالة الإبادة : هل هي جريمة نازية ضد اليهود ، أم جريمة غربية متكررة (نمط متكرر) يعبِّر عن نموذج معرفي كامن ، أم أنها مجرد حادثة ؟ ونحن نذهب ـ كما أسلفنا ـ إلى أن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية ، وفلاسفة العرْقية الحديثة ، هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمتها في اللحظة النازية . ومن ثم ، فإن الإبادة النازية تعبِّر عن شيء حقيقي أصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده وإنما في الحضارة الغربية ، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث .

إن جوهر الفكر النازي ، متمثلاً في كتابات أدولف هتلر (وغيره من المفكرين النازيين)، لا يختلف كثيراً عن فكر سير آرثر بلفور صاحب الوعد المشهور (وغيره من الساسة والمفكرين الاستعماريين) . فكلٌ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطار الإمبريالي العرْقي المبني على الإيمان بالتفاوت بين الأعراق، وعلى حل مشاكل أوربا عن طريق تصديرها . وكلاهما يؤمن بفكرة الشعب العضوي ، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغوب فيه ويؤكد ، من ثم ، ضرورة وضع حل نهائي للمسألة اليهودية في أوربا . وكلاهما لا يلتزم بأية منظومة أخلاقية سوى منظومة المنفعة المادية ومنظومة الصراع الداروينية . وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل (ترانسفير) اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين .

وقد حاول هتلر ، في بداية الأمر ، أن يحل مسألته اليهودية بشكل نهائي أيضاً ، بالطرق الاستعمارية السلمية البلفورية التقليدية ، أي التخلص من الفائض البشري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليهودي عن طريق تصديره (ترانسفير) إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا . وكان هتلر يدرك أن الترانسفير (تفريغ الأراضي من سكانها ونقلهم) هو جزء من المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل . فقد أشار (في أغسطس ١٩٤٠) إلى أنه تم إفراغ بروسيا الشرقية من سكانها الألمان بعد الحرب العالمية الأولى ، وتساءل عن وجه الضرر في نقل ٦٠٠ ألف يهودي من أراضي الرايخ (وكان هناك مشروع نازي ترانسفيري أكبر وهو نقل ٣١ مليون « غير ألماني » من شرق أوربا ، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية») .

وداخل هذا التصور الترانسفيري البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيذ خطته :

١ ـ قام هتلر بشحن عشرة آلاف يهودي وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم (فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية) .

٢ ـ استمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي . فبُذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية . ولكن معظم هذه المشروعات فشلت ولم تُطرح بدائل أخرى ، فالمجال الاستعماري الحيوي لألمانيا ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان محدوداً .

٣ ـ لم تكن الدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي) .

وكان هتلر يسمي خطة الترانسفير هذه « الحل الشامل » و« الحل النهائي » ولكن هذا الحل النهائي البلفوري لم يكن متاحاً لهتلر ، ولذا لم يكن أمامه سوى استبعاد اليهود بطريقة غير بلفورية ، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسوقية . ومع هذا يميل كثير من العلماء إلى القول بأن «الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية» ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية ، أي حل نهائي من خلال الترانسفير ، أو التهجير القسري إما إلى المستعمرات في آسيا وأفريقيا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا ، التي لم تكن الأوضاع فيها تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان فكر هتلر هو نتاج لحضارة الغرب ، خصوصاً في القرن التاسع عشر ، والتي تدور داخل الإطار العرقي العلماني الإمبريالي الدارويني ، فلابد أن تكون هناك نقط اتفاق بين هذا الفكر والفكر الصهيوني الذي هو أيضاً نتاج المعطيات الفكرية نفسها . وبالفعل ، نجد أن الفكر الصهيوني يتحدث عن اليهود باعتبارهم عناصر بكتيرية . والواقع أن تعبير البكتريا المجازي (وهو تعبير دارويني لا علاقة له بقيم « بالية » مثل المحبة والمساواة والعدل) يستخدمه كل من هتلر ونوردو وهرتزل ، الذين يتحدثون عن اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا منبوذاً (قارن هذا بكلمات بوبر حيث يتحدث عن اليهود بوصفهم شعباً آسيويًا طُرد من آسيا ولكنها لم تُطرد منه ، أي أن آسيا تجري في دمه) . كما أن الصهيونية ترى ضرورة إخلاء أوربا من اليهود ، ولعل الخلاف الوحيد هو أن الصهاينة يفضلون الطريقة البلفورية على الطريقة الهتلرية .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة :

بعد أن درسنا الإبادة كإمكانية كامنة داخل الحضارة الغربية الحديثة وداخل المجتمع الألماني الحديث ، وبعد أن درسنا العناصر الحضارية التي ساعدت على تَحقُّق الإمكانية ، بوسعنا أن ندرس العناصر السياسية والاجتماعية الألمانية العامة والعناصر الألمانية اليهودية الخاصة ، التي ساهمت بدورها في تحقيق الإمكانية الإبادية . وقد يكون من المنطقي أن نبدأ بتناول أهم العناصر التاريخية في القرن العشرين وأثرها على ألمانيا ، أي عملية التحديث أو تحول المجتمع الغربي من النمط التقليدي إلى ما يُسمَّى «النمط العقلاني (المادي) أو الرشيد» في الإنتاج والإدارة ، والذي يخضع لعمليات الترشيد .

ونحن لا نشير عادةً إلى التحديث إلا عندما نتناول العالم الثالث ، وذلك بسبب وضوح هذه العملية فيه ، وبسبب كونها عملية مازالنا نعيشها في وقتنا الحاضر . لكن عملية التحديث هي المدخل الأساسي لفهم كثير من الظواهر في العالم الغربي منذ القرن الرابع عشر ، برغم أنها تأخذ أشكالاً أكثر تركيباً وتقدماً هناك .

ولعل من أهم الحقائق التي تسم عملية التحديث أو التصنيع في ألمانيا ، أنها بدأت في وقت متأخر قليلاً بالنسبة لغرب أوربا . فالجهود الرامية لتحديث ألمانيا ظلت متعثرة ولم تحرز تقدماً إلا في سبعينيات القرن الماضي بعد الحرب البروسية الفرنسية نظراً لعدم وجود سلطة مركزية . ولكن الوضع تغيَّر بعد أن أحرزت بروسيا انتصارها الساحق على فرنسا ، وبعد أن ضمت الألزاس واللورين ، إذ قامت بتوحيد ألمانيا ، ثم حققت عملية التحديث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من خلال قفزات هائلة في فترة وجيزة نسبياً ، بحيث أصبحت ألمانيا من كبريات الدول الصناعية لا يفوقها سوى إنجلترا ، بل إنها تفوقت على إنجلترا ذاتها في بعض الجوانب .

وعادةً ما يؤدي التحديث السريع إلى اضطرابات اجتماعية ، لأنه لا يتيح الفرصة أمام أعضاء كثير من الجماعات والأقليات الإثنية والدينية للتأقلم مع الوضع الجديد ، بحيث يمكنهم إعادة تحديد ولائهم وإعادة صياغة هويتهم بما يتفق مع متطلبات الولاء للدولة القومية الحديثة . وقد ظهر هذا الوضع ، أول ما ظهر ، حينما سعت الدولة الألمانية الجديدة ، ذات التوجه البروتستانتي الواضح أو ذات الديباجات البروتستانتية ، إلى وضع كل النشاطات الاقتصادية والثقافية تحت سيطرتها ، وهذا أمر أساسي في عملية الترشيد . وعلى سبيل المثال ، حاولت الدولة الجديدة السيطرة على النظام التعليمي بأكمله ، ومن ثم ، تدخلت في عملية تعيين (وفصل) المدرسين في المدارس الكاثوليكية حتى يمتثلوا لأوامرها هي ولا يخضعوا لسلطان الكنيسة ، وحتى تتحول الأقلية الكاثوليكية من جماعة شبه ألمانية لها سماتها الخاصة يتوزع ولاؤها بين القيم الدينية المطلقة والقيم القومية العضوية إلى جماعة ألمانية خالصة تدين بالولاء للدولة وحدها . وقد أدَّى هذا إلى صدام بين الدولة والكتلة الكاثوليكية الضخمة ، وأُطلق على هذا الصدام مصطلح «كولتوركامبف Kulturkampf» أي «الكفاح الثقافي» (وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب الدولة ضد أعضاء الجماعة الكاثوليكية) .

وأدَّى التحديث السريع إلى اقتلاع أعداد كبيرة من الجماهير الريفية من مجتمعاتهم المترابطة (جماينشافت) والإلقاء بهم في المدن الضخمة التي تسود فيها العلاقات التعاقدية (جيسليشافت) . وتزايدت درجة الاغتراب بين أعضاء الطبقة الوسطى وغيرها من الطبقات ، حيث تغيَّر أسلوب حياتهم نتيجةً لازدياد حجم المدن بسرعة مذهلة وظهور مؤسسات قومية رأسمالية ضخمة لم يألفوها . وفي مثل هذه الظروف ، يبحث أعضاء المجتمع في العادة عن عقيدة متكاملة تجيب عن أسئلتهم وتمنحهم الطمأنينة التي يفتقدونها في المجتمع الجديد وتحميهم من وحشية وتائر التغير السريع . وحيث إن العقائد الشمولية تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه ، فقد وجدت تربة خصبة في ألمانيا . (ويقف هذا الوضع على الطرف النقيض من التحديث التدريجي البطيء في غرب أوربا الذي سمح بترسيخ قيم الفردية والليبرالية ثم بهيمنة البورجوازية في نهاية الأمر على المجتمع ككل بمختلف أعضائه ومؤسساته) .

وتم التحديث في ألمانيا تحت ظروف خاصة ، (التحديث المتأخر الذى تزامن مع توحيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألمانيا) وقد نجح بسمارك في استغلالها ببراعة فائقة ، حيث اكتشف أن العناصر الثورية في الطبقة الوسطى والبورجوازية تبنت قضية توحيد ألمانيا وربطت بينها وبين قضية القضاء على القوى التقليدية والمحافظة في المجتمع والتي كان من صالحها أن تبُقي على وضع التجزئة . لكن بسمارك توصل إلى صيغة عقائدية تسمح بفصل الهدف الأول عن الثاني ، كما تسمح باستغلال قضية الوحدة في تصفية العناصر الليبرالية والثورية مثلما يحدث في العالم الثالث في (الوقت الحاضر) حين تُطرح قضايا قومية يُقال لها «مصيرية» بهدف التحكم في الجبهة الداخلية ولتصفية أية جيوب معارضة باسم الإجماع القومي (« في تلك اللحظة المصيرية من تاريخ الأمة ») . وانطلاقاً من هذا ، تبنت القوى والطبقات المحافظة والأرستقراطية ، بقيادة بسمارك ، قضية توحيد ألمانيا وضرورة قيام سلطة مركزية ، بعد أن أصبحت موضع إجماع قومي ، ثم أنجزت هذا الهدف التاريخي في نهاية الأمر . ولذا ، كان بوسع هذه القوى أن تبرم هدنة بينها وبين البورجوازية بحيث تحتفظ هي بالقيادة السياسية لألمانيا على أن تستفيد البورجوازية من النتائج الاقتصادية لعملية التوحيد ، أي أن عملية التحديث في ألمانيا تمت تحت مظلة القوى التقليدية المحافظة مثلما كان الحال ، وإن تباينت صورته ، في دول شرق أوربا . ومن ثم ، ظهر مجتمع حديث يُدار بشكل حديث من قبَل طبقة تقليدية ذات مُثُل تسلطية شمولية ، وهذا مغاير تماماً لنمط التحديث في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا .

ومن الحقائق الأساسية التي كثيراً ما نغفل عنها ، أن التحديث في العالم الغربي ، خاصةً في أوربا الغربية ، ارتبط ارتباطاً كاملاً وعضويّا بالمشروع الاستعماري الغربي . ولا تمكن رؤية عملية التحديث (والتراكم الرأسمالي المرتبط به) ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا وأمثالها ، خارج إطار التوسع الاستعماري وتحويل شعوب آسيا وأفريقيا إلى ما يشبه الطبقة العاملة (مصدر فائض القيمة) بالنسبة إلى شعوب الغرب (ولذا فنحن نفضل الحديث عن «التراكم الإمبريالي») . ومما لا شك فيه ، أن التوسع الاستعماري يُساهم في التخفيف من حدة كثير من المشاكل الناجمة عن التحديث مثل الأزمات الاقتصادية والانفجارات السكانية ، وذلك عن طريق تصديرها إلى المستعمرات . ولكن ألمانيا لم يكن لها مشروع استعماري مستقل نظراً لانقسامها ، وقد مرت عليها مرحلة الاستعمار المركنتالي (التجاري) في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما مرت عليها مرحلة الاستعمار في إطار المنافسة الحرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم تدخل ألمانيا الحلبة الاستعمارية إلا في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية بعد أن كانت إنجلترا وفرنسا (ومن قبلهما إسبانيا والبرتغال) قد التهمتا معظم أنحاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم . وبطبيعة الحال ، سعت ألمانيا ، بعد أن تسارعت وتيرة التحديث داخلها ، إلى بسط نفوذها على بعض مناطق العالم ، فأنشأت علاقات وثيقة مع الدولة العثمانية وحلّت محل بريطانيا وفرنسا كحليفة كبرى ، كما احتلت بعض المناطق في أفريقيا بل وفي أوربا ذاتها . وقد تحطم المشروع الاستعماري لألمانيا تماماً في الحرب العالمية الأولى ، إذ اقتسم الحلفاء (المنتصرون) مستعمراتها فيما بينهم ولم يعد لها مجال استعماري حيوي تقوم بتصدير مشاكلها إليه .

ويمكن القول بأن معاهدة فرساي لم تحطم المشروع الاستعماري الألماني وحسب ، بل حطمت المشروع التحديثي الألماني ، وحولت ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة . وقد مُنعت ألمانيا من الاتحاد مع النمسا ، مع أن ذلك كان مطلباً للشعبين الألماني والنمساوي كليهما . كما تم استقطاع أجزاء كبيرة منها ضُمت إلى كلٍّ من الدنمارك وبولندا وفرنسا وبلجيكا وليتوانيا . ووُضعت منطقة السار ، الغنية بالفحم ، تحت إشراف عصبة الأمم لمدة خمسة عشر عاماً أُديرت مناجمها أثنائها عن طريق فرنسا . وعلاوة على هذا ، تم تحديد حجم الجيش الألماني الذي سُلِّم كميات هائلة من الزاد والعتاد الحربي للحلفاء ، وخُفضت كمية الذخيرة المسموح بإنتاجها ، وخُفضت قوة السلاح البحري ولم يُسمح بوجود قوات جوية بتاتاً ، كما فُرضت غرامة مالية كبيرة على ألمانيا . وفضلاً عن ذلك ، تقرر أن تحتل قوات الحلفاء الضفة اليسرى للراين لمدة خمسة عشر عاماً للتأكد من تنفيذ شروط المعاهدة . وألغى الحلفاء المنتصرون المعاهدات التجارية المبرمة بين ألمانيا والدول الأخرى ، وصُودرت الودائع المالية الألمانية في الخارج ، وأُنقص حجم البحرية التجارية الألمانية إلى عُشر حجمها . وكل هذه الإجراءات تذكر المرء بما حدث لمحمد علي ، صاحب أول تجربة تحديث في الشرق العربي ، والذي هدَّد ظهوره الخطط الغربية للاستيلاء على تركة الدولة العثمانية ، رجل أوربا المريض . وفي نهاية الأمر ، كان على ألمانيا أن تدفع غرامة عينية قدرها ٢٠ مليار مارك ذهبي ، على أن تدفع جزءاً منها فوراً وجزءاً منها بعد حين . وتم تحديد الغرامة في نهاية الأمر ، في أبريل ١٩٢١ ، بمقدار ١٣٢ مليار مارك ذهبي . وبرغم معارضة جميع الأحزاب الألمانية لتلك الشروط ، اضطرت جمهورية وايمار في النهاية إلى أن ترضخ . وكما هو الحال في مثل هذه المواقف ، حينما تُجْرح الكبرياء الوطنية لشعب ما ، ذاع بين الألمان الاعتقاد بأن ألمانيا لم تُهزم وإنما طعنها الثوريون والليبراليون واليهود من الخلف .

وأدَّى الوضع المذكور إلى تدهور سعر المارك من ٤,٢٠ مارك للدولار في عام ١٩١٤ إلى ١٦٢ ماركاً للدولار ، ثم إلى سبعة آلاف مارك عام ١٩٢٢ . وقد احتلت فرنسا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منطقة الروهر عام ١٩٢٣ بحجة فشل ألمانيا في إرسال شحنة من الخشب على سبيل التعويض العيني ، ثم قامت القوات الفرنسية والبلجيكية بإلقاء القبض على العمال الألمان الذين رفضوا العمل في المناجم ، وفُرض حصار اقتصادي تم بمقتضاه فصل منطقة الروهر وكذلك وادي الراين المحتلين عن ألمانيا ، الأمر الذي كان يشكل ضربة اقتصادية هائلة لألمانيا ، خصوصاً بعد أن تم استقطاع منطقة سيلزيا العليا الغنية بالفحم . وبناءً على ذلك ، هبط المارك إلى ١٦٠ ألفاً للدولار في عام ١٩٢٣ ثم إلى ٤,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ في نوفمبر ١٩٢٣ . ولأن جمهورية وايمار لم تضع أية قيود على حرية رأس المال ، فقد استفاد كثير من الرأسماليين (ومنهم أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية) من هذا الوضع ، وحققوا أرباحاً هائلة وراكموا الثروات في وقت كانت فيه معظم طبقات الشعب الألماني تعاني من الفقر والهوان .

وبذلت حكومة ألمانيا قصارى جهدها لإصلاح هذا الوضع . وبالفعل ، تم تحديد ديون ألمانيا وطريقة دفعها ، وبدأت قوات الحلفاء في الانسحاب مع أوائل الثلاثينيات ، ثم عقدت الجمهورية بعض القروض لاستثمارها في الاقتصاد الألماني حتى ظهرت بعض علامات التحسن والاستقرار . ولكن هذا الاستقرار كان يعتمد بالدرجة الأولى على القروض الخارجية ، ومن ثم ، أدَّت أزمة الرأسمالية العالمية عام ١٩٢٩ وانهيار البورصة في نيويورك إلى انهيار الوضع في ألمانيا ، فوصل عدد العاطلين فيها عن العمل إلى ما يزيد على ستة ملايين (أي نحو ثلث مجموع القوى العاملة في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٢) ، وانخفض الدخل بنسبة ٤٣٪ ، وفقدت الطبقة الوسطى ما تبقى لديها من مدخرات .

هذا هو السياق الاجتماعي والسياسي العام الذي أدَّى إلى احتدام التناقضات والثورات داخل المجتمع الألماني والذي أدَّى في نهاية الأمر إلى تَفجُّر الوضع الداخلي وظهور الأفكار الشمولية الاستبعادية وإلى ظهور إمبريالية تتجه نحو « الداخل » الأوربي بعد أن حُرمت من « الخارج » الآسيوي والإفريقي « العالمي » . فقد اتجه المشروع الاستعماري الألماني بكل قوته ، حينما استعادها ، نحو الداخل ، أي نحو الشعوب السلافية المجاورة والأقليات المختلفة مثل الغجر واليهود ، حيث اعتبر المناطق التي تعيش فيها مجاله الحيوي ، الذي لابد من تفريغه من تلك العناصر التي لا تنتمي إلىَ الفولك والتي تعوق تحقيقه لمصلحته وأهدافه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة :

ولكن إلى جانب هذه الظروف الألمانية العامة ، كانت هناك ظروف خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ساهمت في تحويل الموقف المتفجر إلى وضع مدمر بالنسبة لهم ولغيرهم من الأقليات ، وهو ما سنتناوله في هذا الجزء .

لم يكن للجماعة اليهودية في ألمانيا وزن عددي يذكر . فمن الناحية الكمية المحضة ، لم يكن أعضاؤها يُشكلون أي تحدٍّ خاص للأغلبية الألمانية الساحقة كما يبيِّن الجدول التالي :

السنة	عدد اليهود	النسبة إلى عدد السكان
١٨٧١	٥١٢,١٥٠	٪١,٢٢
١٨٨٠	٥١٢,٦١٢	٪١,٢٤
١٨٩٠	٥٦٧,٨٨٤	٪١,١٥
١٩٠٠	٥٨٦,٨٣٣	٪١,٠٤
١٩١٠	٦١٥,٠٢١	٪٠,٩٥

ويُلاحَظ من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية لم تكن آخذة في التزايد برغم الانفجار السكاني في أوربا في القرن التاسع عشر (زاد عدد يهود شرق أوربا بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٥ بنحو ستة أضعاف) . كما أن نسبة يهود ألمانيا إلى عدد السكان كانت آخذة في التناقص ، وقد تزايد هذا الاتجاه ابتداء من عام ١٩١٠ بسبب التنصُّر والزواج المختلط الذي بلغت نسبته بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ نحو ٥ , ٤٤٪ من جملة الزيجات اليهودية .

ولذا ، لم تكن المسألة اليهودية في ألمانيا كامنة في الكم كما كان الوضع (إلى حدٍّ ما) في شرق أوربا ، وإنما في الكيف ، وعلى وجه التحديد في الوضع الوظيفي المتميِّز لأعضاء الجماعة اليهودية الذي تأثر تأثراً عميقاً بعملية التحديث في ألمانيا . فقد كان أعضاء الجماعة ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، يعيشون أساساً في الريف والمدن الصغيرة . ولكن ، مع بدايات القرن التاسع عشر وظهور الاقتصاد الجديد ، هاجرت أعداد هائلة منهم إلى المدن الكبرى . ومع نهاية القرن ، كانت أغلبيتهم تقيم في المدن الكبرى مثل براسلاو وليبزج وكولونيا ، بالإضافة إلى هامبورج وفرانكفورت ، وكانت برلين تضم ثُلث يهود ألمانيا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأدَّى تركُّز يهود ألمانيا في المدن إلى وضوح تمايزهم الوظيفي والمهني، وهي ظاهرة موغلة في القدم في دول وسط أوربا ، خصوصاً في ألمانيا . فلقد كان أعضاء الجماعة اليهودية في الإمارات الألمانية يُشكلون ، في العصور الوسطى، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بدور التاجر والصيرفي والمرابي ، ثم تم طردهم من عدة مدن وإمارات ألمانية ، فهاجروا منها إلى مدن وإمارات ألمانية أخرى . ولكن ، مع حلول القرن السادس عشر ، سُمح لليهود بالاستقرار في كثير من المدن والإمارات التي كانوا قد طُردوا منها ، وتم استقدامهم كعنصر تجاري نشط لديه رأس المال اللازم والاتصالات الدولية . وكان يهود المارانو (الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبريا) من أهم هذه العناصر. وعادةً ما كان يتم استقدام اليهود ، سواء في العصور الوسطى أو في القرن السادس عشر ، بأمر من الإمبراطور أو الأمير أو الملك أو النخبة الحاكمة. فكان أعضاء الجماعات اليهودية يتبعون النخبة الحاكمه (أو أحد أعضائها) بشكل مباشر ويُشكلون مصدر دخل كبير لها . فكان الممولون اليهود يقومون باعتصار الجماهير من خلال الفوائد الضخمة التي يُحصِّلونها على قروضهم . ولكن النخبة الحاكمة كانت تستولى على نسبة ضخمة من الأرباح في نهاية الأمر عن طريق الضرائب التي تفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي القرن السادس عشر ظهرت مهنة يهودي البلاط الذي يدير الخزانة الملكية ويعقد الصفقات والقروض بالنيابة عن الأمراء ويمول الحروب ويدير الاتصالات التجارية اللازمة ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا كانوا مرتبطين بالحاكم ملتصقين به ومتميِّزين طبقيًا ومهنيًا عن بقية أفراد الشعب ، وهو وضع ازداد تبلوراً في القرن التاسع عشر ، كما يبيِّن الجدول التالي الخاص بتوزيع أعضاء الجماعة اليهودية في المهن والحرف المختلفة :

المهنة أو الحرفة	١٨٩٥	١٩٠٣
الزراعة	١,٤٪	١,٣٪
الصناعة	١٩,٣٪	٢٢,٣٪
التجارة والنقل	٥٦,٠٪	٥٠,٦٪
عمال أجراء	٠,٤٪	٠,٦٪
مهن حرة	٦,١٪	٦,٥٪
أعمال حرة	١٦,٧٪	١٩,٠٪

وكان وجود بعض أعضاء الجماعة اليهودية كوسطاء أمراً واضحاً للغاية ، فقد تركزوا على صناعة الأثاث والملابس الجاهزة وارتبطوا بالصيرفة والمحال التجارية ، الأمر الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حولهم إلى شخصيات مكروهة من الطبقة الوسطى ، خصوصاً في ظروف الأزمة . واتضح كذلك وجود اليهود في مهنة الإقراض وتحصيل ريع الملكيات الزراعية (بالنيابة عن أصحاب الأملاك) ، كما عملوا تجار مواشٍ ، الأمر الذي جعلهم مكروهين من الفلاحين . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كان عدد يهود ألمانيا لا يزيد على ١٪ وكان يهود برلين يُشكلون ٥٪ من سكانها ، ومع هذا كانوا يُشكلون النسب التالية في بعض القطاعات الاقتصادية في برلين :

النسبة	القطاع الاقتصادي
٧٠٪	من مجموع أصحاب الحوانيت
٣٠٪	من مجموع تجار الملابس
٢٥٪	في تجارة الأثاث
١٧٪	من مجموع العاملين في المصارف
١٠٪	من الأطباء
١٦٪	من المحامين

ومن الإحصاءات الأخرى ذات الدلالة أن يهود برلين الذين كانوا يشكلون ـ كما أسلفنا ـ ٥٪ من سكانها كانوا يدفعون ٣٠٪ من جملة الضرائب ، وكان يهود فرانكفورت الذين يشكلون ٧٪ من سكانها يدفعون ٢٨٪ من ضرائبها ، كما بلغت نسبة أصحاب الأعمال ومديري البنوك من اليهود في برلين ١٥,٥٥٪ في عام ١٨٨٢ ، ثم هبطت إلى ٦,٣٢٪ في عام ١٩٢٥ (وهي أيضاً نسبة عالية) . وتقول **الموسوعة اليهودية العالمية إن** الهبوط في النسبة المئوية لم يصاحبه هبوط في النفوذ ، إذ كان اليهود ، في بعض السنوات ، يُديرون أهم ثلاثة بنوك تتحكم في ٦٠٪ من نسبة الإقراض في بعض السنوات ، وكانوا يديرون نحو ثلاثة أرباع القروض الأجنبية التي مُنحت لألمانيا من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩ . كما سيطر اليهود على ٣٢,٥٧٪ من صناعة المعادن في عام ١٩٣٠ . وهكذا ، ارتبط اليهود في العقل الألماني بالمشروع الحر والمضاربات والسياسات الليبرالية . ومن جهة أخرى ، كان والتر راتناو (وزير التعمير ثم وزير الخزانة في حكومة وايمار) يهوديًا ، كما كان واضع دستور هذه الجمهورية (التي استمرت فترة قصيرة) يهوديًا أيضاً .

وكانت هذه الجمهورية ترمز في العقل الألماني لليبرالية المتخاذلة المتهالكة أمام هجوم أعداء ألمانيا . ومن قبيل المفارقات أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالمثل الليبرالية في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقت كان فيه المجتمع الألماني (ككل) يتخلى ، بعد تَعثُّر التحديث ، عن هذه المُثُل ليبحث عن طرق أخرى شمولية لحل مشاكله . ولعل في هذا الارتباط الوثيق بين الرأسمالية الألمانية ويهود ألمانيا ما يُفسِّر النقد الاشتراكي الثوري العنيف لليهود باعتبارهم ممثلين للرأسمالية ، ولليهودية باعتبارها دين الاقتصاد الجديد . ولعل هذا يُفسِّر أيضاً السبب في أن ماركس يَقرن اليهودية بروح التجارة ويُوحِّد بينهما ، ويرى أن إله إسرائيل الطماع هو المال . وهذا التراث الاشتراكي في نقد الشخصية اليهودية نابع من تربة ألمانية أساساً ، حيث كان اليهود ممثلين بشكل واضح في الطبقات الرأسمالية . ولا ينطبق هذا ، بأية حال ، على شرق أوربا حيث تحوَّلت البورجوازية الصغيرة والجماعات اليهودية إلى بروليتاريا تعاني من ويلات الفقر .

وبرغم هذا الربط بين الجماعات اليهودية والرأسمالية في ألمانيا ، فقد انضم عدد كبير من المثقفين اليهود إلى الحركات الثورية فيها ، وكان ارتباطهم بها على المستوى الفردي واضحاً وضوح الارتباط الجماعي لليهود بالرأسمالية . فكان رئيس حكومة بافاريا الثورية (البلشفية) يهوديًا ، وكان كثير من قيادات الحركة الثورية المتطرفة (مثل روزا لوكسمبرج) من اليهود ، وكان هناك شبح ماركس يرفرف على الجميع . ثم اتضح عام ١٩١٧ الوجود اليهودي الملحوظ في الثورة البلشفية (التي كان يُطلق عليها في بعض الأوساط «الثورة اليهودية») .

وهكذا ، ارتبط اليهودي بالصناعة والاستغلال والمشروع الحر ، وكذلك بالثورة الاشتراكية المتطرفة والحركات الثورية ، أي أن اليهودي أصبح رمزاً جيداً لهذا المجتمع الحديث (جيسيلشافت) المبني على التعاقد والتنافس ، والذي قوض دعائم المجتمع الألماني المترابط (جماينشافت) ، وأصبح بؤرة تتجمع فيها مخاوف الطبقة الوسطى التي كانت آخذة في التدهور الاجتماعي والطبقي بسبب التضخم والبطالة . بل أصبح رمزاً لكل تلك القوى ، من اليمين واليسار ، التي أودت بألمانيا وفرضت عليها أن تذعن للحلفاء .

وحينما استأنفت ألمانيا عملية التحديث بعد الحرب ، تمت هذه العملية بقروض أجنبية وتحت رعاية الدولة ، أي أن النمط الاقتصادي السائد في ألمانيا لم يكن فيه مجال للرأسمال الحر تماماً ولا للنمط الاشتراكي الجمعي . وارتطمت الدولة النازية بكل من الرأسمال الحر الذي ارتبط به اليهود واليسار المتطرف الذي وُجد فيه اليهود بشكل ملحوظ .

وساهمت العوامل السابقة جميعاً ، بشكلٍ أو بآخر ، في عزل أعضاء الجماعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليهودية عن بقية التشكيل السياسي الحضاري الألماني . ولكن العنصرين التاليين كانا حاسمين في فصلهما عن سواد الشعب الألماني ، وفي تهميشهما تماماً . والعنصرين هما :

١ ـ العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني :

تعود العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وتُعتبر امتداداً لظاهرة يهود البلاط ولارتباط أعضاء الجماعة بالحاكم . (وتُعَدُّ عائلة روتشيلد مثلاً جيداً على ذلك ، حيث كانت آخر أسرة من أسر يهود البلاط وهي أيضاً أول أسرة يهودية ثرية تتولى مشاريع الاستيطان الصهيوني) .

والجدير بالذكر أن وضع اليهود تحسن كثيراً في منتصف القرن التاسع عشر مع توحيد ألمانيا ، فقد كان ثلاثة من أهم مستشاري بسمارك من اليهود . ويُقال إن اليهودي المتنصر فريدريك ستاهل هو مُنظِّر الدعوة إلى العسكرية البروسية . والواقع أن بسمارك كان يفكر ، حسب تقاليد النخبة الحاكمة الألمانية ، في استخدام اليهود دائماً في مشاريعه . ويظهر ذلك الاتجاه بشكل أوضح في تفكير إمبراطور ألمانيا (ويلهلم الثاني) الذي كان يرى إمكان استخدام اليهود في مشروعه الاستعماري ، كما كان واعياً بقدرات اليهود المالية وحجم اتصالاتهم الدولية . وكانت مفاوضات هرتزل ، مع إمبراطور ألمانيا ، تدور داخل هذا الإطار وتنطلق من هذا التفاهم الضمني . وفي الوقت نفسه ، كانت المنظمة الصهيونية في ألمانيا لا تكف عن الحديث عن نفع اليهود وإمكان استخدامهم في المشاريع الاستعمارية الألمانية ، وتوطينهم في فلسطين أو في غيرها تحت راية الاستعمار الألماني . وقامت جمعية الغوث الألمانية اليهودية بالمساهمة في النشاط الاستطاني الصهيوني باسم الاستعمار الألماني ، كما كان يُنظَر إلى العنصر اليهودي من شرق أوربا (المتحدث باليديشية) باعتباره عنصراً ألمانيًا ، يمكن تسخيره في صالح المشروع الألماني الاستيطاني .

وكما هو معروف ، صدر وعد بلفور الذي ينطوي ، بشكل ضمني ، على إمكان تحويل اليهود إلى عناصر تدين بالولاء للاستعمار الإنجليزي . ورغم هذا ، استمرت رئاسة المنظمة الصهيونية الموجودة آنذاك في ألمانيا في التقرب إلى النظام الحاكم ، واستمرت في بذل المحاولات لاستصدار وعد بلفوري ألماني . ولكن هذه الجهود لم تُثمر ، بسبب علاقة ألمانيا الخاصة بالدولة العثمانية ورفض الخليفة العثماني الموافقة على المشروع الصهيوني حتى ولو تم في إطار المشروع الاستعماري الألماني . ومع هذا ، أصدرت الحكومة الألمانية (بعد صدور وعد بلفور) تصريحاً مبهماً يشبه وعد بلفور من بعض الوجوه ، تَعد فيه بمساعدة المشروع الصهيوني على أمل أن تجند يهود العالم لصالحها وتكسبهم إلى صفها . وقد جاء هذا التصريح متأخراً ، ولم يؤد في النهاية إلى شيء يُذكر . ولكن ما يهمنا في هذا السياق هو أن التعامل مع اليهود (باعتبارهم جزءاً من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشروع الاستعماري الألماني) يُعتبَر (في جوهره) تهميشاً لهم من منظور المشروع القومي الألماني ، فهو يعطيهم حقوقاً للاستيطان في فلسطين ، كما يمنحهم الحق في التمتع برعاية الحكومة الألمانية " خارج " ألمانيا ، الأمر الذي يعني ضمناً إنكار حقوقهم " داخلها " . فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو الإطار الذي يتم من خلاله تصدير الفائض البشري غير المرغوب فيه إلى الشرق . ولكن القيادة الصهيونية ، بقبولها هذا الإطار ، رضيت بالتعريف الضمني الكامن لليهود كعنصر غريب غير منتم يجب أن يتم تصديره عن طريق التهجير . وهذا ، على كل حال ، هو التعريف الصهيوني (الواضح) لليهود .

٢ ـ تهميش اليهود من خلال هجرة يهود شرق أوربا :

تسبَّبت الهجرة الكثيفة ليهود اليديشية في أعقاب تعثر التحديث في شرق أوربا في تهميش اليهود وفصلهم عن التشكيل القومي الألماني العضوي . ومن الجدير بالذكر أن الهجرة اليهودية الحديثة اتسمت بأنها هجرة داخلية في أوربا (أي من بلد أوربي إلى آخر) حتى عام ١٨٨٠ . ولم تبدأ الهجرة عبر الأطلنطي بشكل مكثف إلا بعد ذلك التاريخ . وقد هاجر ، في المرحلة الأولى بصفة خاصة ، مئات الألوف ، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وتسببوا في استصدار وعد بلفور لتحويل سيل الهجرة عنها ، كما وصلت أعداد لا بأس بها إلى ألمانيا .

ومما زاد الأمور سوءاً أن ألمانيا قامت ، في نهاية القرن الثامن عشر ، بضم بولندا التي كانت تضم يهوداً من المتحدثين باليديشية (أوست يودين ، أي يهود شرق أوربا) ، وهو ما كان يعني أن يهاجر هؤلاء إلى المدن الألمانية الكبرى . وبالفعل ، انتقل معظم يهود بوزنان إلى ألمانيا ، وكذا أعداد كبيرة من يهود جاليشيا . ولا شك في أن ظهور هذه الكتلة الضخمة من يهود شرق أوربا ذوي الطابع الجيتوي المنغلق ، والذين لا يوجد لديهم (كغرباء مُقتَلعين) التزام قوي بالمعايير الأخلاقية المحلية أو بالقيم الغربية ، كما يفتقرون إلى الكفاءات المطلوبة في التعامل مع أوربا الحديثة والاقتصاد الجديد ، كان يمثل تهديداً للموقع الطبقي لليهود ولمكانتهم الاجتماعية . وقد شهدت سنوات العشرينيات من هذا القرن هجرة يهودية ضخمة من بولندا بسبب الأزمة الاقتصادية . وقد أشرنا من قبل إلى النسبة المرتفعة من الزيجات المختلطة بين يهود ألمانيا ، ويمكن أن نضيف هنا أننا نعتقد أن النسبة كانت عالية للغاية بين اليهود من أصل ألماني ، ولكن الإحصاءات لا تذكر سوى المتوسط العام دون أن تُفرِّق بين يهود شرق أوربا المقيمين في ألمانيا واليهود من أصل ألماني . وبوجه عام كان يهود ألمانيا يختفون ، بينما كان يهود الشرق يحلون محلهم ، أي أن الطابع العام للجماعة اليهودية كان آخذاً في التغير وفي اكتساب طابع غير ألماني (كانت نسبة اليهود الأجانب بين يهود ألمانيا هي ٢,٧٪ عام ١٨٨٠ ، ارتفعت إلى ١٢,٨٪ عام ١٩١٠ ، ولا شك فى أنها استمرت في التزايد بعد هذا التاريخ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحوّلت ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى مركز للثقافة العبرية نتيجةً لهرب عديد من الكتاب اليهود من روسيا ، فتم تأسيس دار نشر عبرية ، كما أسست الحركة الصهيونية كثيراً من المدارس لتعليم العبرية . (وهو اتجاه أيده النازيون فيما بعد ودعموه لأنهم كانوا يرون ضرورة عبرنة اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا مستقلاً عن الشعب العضوي الألماني . ولنا أن نلاحظ أن الدولة النازية سبقت الدولة الصهيونية في تبني كثير من مشارع العبرنة) . وكان من شأن هذا كله أن أصبح العنصر اليهودي مرة أخرى عنصراً عضويًا متماسكاً غريباً يقف خارج المجتمع أو على هامشه . ولذا ، كان أحد المطالب الأساسية لأعداء اليهود وقف الهجرة من شرق أوربا لأنها تأتي بالغرباء . وكانت حقوق اليهود الأجانب مثار نقاش حتى في عهد جمهورية وايمار الليبرالي ، ولهذا نجد بعض الألمان ، ممن لا يمكن اتهامهم بمعادة اليهود ، يطالبون بعدم السماح ليهود الشرق بامتلاك عقارات باعتبارهم أجانب لا باعتبارهم يهوداً .

بل لقد طرحت القضية نفسها داخل المنظمات اليهودية ذاتها : هل يُمنح اليهود الأجانب ، الذين كانوا يشكلون أحياناً الأغلبية في بعض المجتمعات ، حق التصويت في الانتخابات ؟ وبالفعل ، قرر كثير من هذه التجمعات السماح ليهود الشرق بالانضمام إليها بدون ممارسة حق التصويت . ولعل تأسيس جمعية الغوث كان يهدف إلى إبعاد يهود الشرق عن ألمانيا حتى لا يتأثر وضع اليهود داخلها ، كما هو الحال مع جمعيات الغوث الأخرى (التوطينية) التي أنشأها أثرياء اليهود في الغرب (أمثال هيرش وروتشيلد) .

وظهرت في هذه المرحلة جمعيات يهودية ، مثل : التنظيم المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جمعية يهودية تدعو إلى الاندماج) ، وجمعية غوث يهود ألمانيا (وهي جمعية خيرية قامت بنشاط استيطاني في فلسطين كما أشرنا) ، وغير ذلك من جمعيات دينية وثقافية . وتم تأسيس اتحاد عام لهذه الجمعيات في أواخر العشرينيات . ولكن الأمر الذي يجدر ذكره ، من وجهة نظر هذه الدراسة ، هو تأسيس فرع للمنظمة الصهيونية في ألمانيا (بل وأصبح المقر الرئيسي داخل ألمانيا منذ عام ١٩٠٤) . وترأس فرع ألمانيا رجل ألماني متزوج من يهودية من شرق أوربا (كورت بلومنفلد) طرح شعارات قومية عضوية كانت تسبب الكثير من الحرج لأعضاء الجماعة الذين كانوا يحاولون الاندماج . وتُوِّجت جهوده باستصدار قرار بوزنان الصهيوني عام ١٩١٢ الذي جعل من الهجرة إلى فلسطين هدفاً أساسيًا لكل يهودي . وظل الصهاينة ، ومعظمهم من أصل شرق أوربي ، يتقبلون مختلف المنطلقات القومية العضوية . فدافع مارتن بوبر عن علاقة التربة بالدم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما دافع عن أن اليهود شعب آسيوي أساساً . وتحدث ناحوم جولدمان عن اليهود كعنصر هدام في كل المجتمعات لأنهم غرباء ، وتحدث جيكوب كلاتسكين عن ازدواج الولاء عند اليهود ، وتحدث حاييم وايزمان عن اليهود باعتبارهم عنصراً فائضاً يقف في حلق الأمة الألمانية ، وهي شعارات تعود كلها لتيودور هرتزل وماكس نوردو اللذين وضعا أساس الصهيونية الألمانية . وأشاعت هذه الدعاية صورة سلبية للغاية عن أعضاء الجماعة اليهودية وعن عدم إمكان دمجهم في الشعب العضوي الألماني . وفي هذا المناخ ، ظهر هتلر وظهرت النازية . وأثناء محاكمات نورمبرج ، أصر الزعماء النازيون ، الواحد تلو الآخر ، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة .

ورغم هذا الجو الهستيري الصهيوني النازي ، ظلت الجماعة اليهودية رافضة للمنطق الصهيوني واستمرت في مقاومة المنطق النازي . ومع وصول هتلر للحكم ، استولى الصهاينة على قيادة الجماعة اليهودية وطرحوا برنامجاً عام ١٩٣٣ لإعادة صياغة الجماعة اليهودية في ألمانيا وتعليم اليهود ما يتفق مع التقاليد الصهيونية ، وذلك عن طريق مزج القومية بالدين بهدف تهجيرهم خارج ألمانيا .

وقد وَصفت جمعية التنظيم المركزي للمواطنين الألمان هذا الموقف من قبل الصهاينة بأنه طعنة في الخلف . أما النازيون ، فوافقوا على الطرح الصهيوني للقضية وَقدَّموا التأييد والدعم للأنشطة والمؤسسات الصهيونية .

وكانت كل هذه الأسباب النابعة من الملابسات التاريخية والسياسية والحضارية العامة (أي المرتبطة بالمجتمع الألماني ككل) ، والخاصة (أي المرتبطة بالجماعة اليهودية على وجه التحديد) ، هي التي أدَّت إلى ارتطامهم بالنظام النازي وإلى إبادة أعداد كبيرة منهم (بالمعنيين العام والخاص اللذين نطرحهما ، أي الإبادة من خلال التجويع والسخرة والتهجير والإبادة من خلال الإبادة الجسدية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني
بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا

تَصدُر كل عام عشرات الكتب والدراسات التي تتناول قضية الإبادة النازية ليهود أوربا. ولا شك في أن كثيراً من هذه الدراسات لها طابع دعائي ومضمون صهيوني. ولكن هناك أيضاً الكثير من الدراسات التي تحاول أن تفهم هذه الظاهرة، وأن تُعرِّف أسبابها وتفسرها وتطرح بعض الأسئلة وتُثير بعض الإشكاليات التي تتجاوز الحدث ذاته وترقى إلى مستوى حضاري ومعرفي عام. وسنحاول في هذا الفصل تناول بعض هذه الإشكاليات.

إشكالية انفصال القيمة والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا :

رغم هيمنة الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة على الإنسان الغربي (بجانبيها النفعي المادي الحيادي الأداتي والداروينى الصراعي الإمبريالي)، ورغم حوسلتها للعالم وتحويلها المنفعة المادية والقوة إلى قيمة مطلقة متجاوزة للخير والشر، إلا أن هناك من لا يتقبل هذه الرؤية ولا يذعن لها ويثير قضايا مهمة ذات طابع أخلاقي وإنساني، من أهمها قضية تطبيق المعايير العلمية المنفصلة عن القيمة وعن الغائية الإنسانية وتطبيق المنظومة الأخلاقية الداروينية النفعية المادية على الإنسان والمجتمع الإنساني. فقد أسس النازيون منظومتهم ـ كما أسلفنا ـ استناداً إلى مفاهيم علمية أو شبه علمية مثل النظرية الداروينية (وما يترتب عليها من مفاهيم مثل التفاوت بين الأعراق والمجال الحيوي والشعب العضوي)، كما تبنوا الرؤية العلمية المتجردة تماماً من القيمة ومن الغائيات الإنسانية باعتبار أن العلم وما يتولد عنه من قوانين وقيم مادية هو القيمة الحاكمة الكبرى والمرجعية النهائية للإنسان. وقد حقق النازيون نجاحاً منقطع النظير في هذا المضمار فركزوا على محاولة التحكم الكامل في كل العناصر البشرية الخاضعة لهم وتطبيق الحسابات الرشيدة المحايدة التي تهدف إلى تعظيم الإنتاج والأرباح وتقليل الاستهلاك والخسائر. ومن ثم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكن القول بأن الإبادة النازية لليهود وغيرهم هي التحقق الكامل للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة التي تم من خلالها حوسلة كل شيء بطريقة علمية محايدة رشيدة حديثة . ويتبدّى هذا في عدة أوجه سنوجزها فيما يلي :

١ ـ كان النظام النازي بمثابة يوتوبيا تكنولوجية تكنوقراطية حقة تم تنظيمها تنظيماً هرميّا ، ففي قاعدته تقف جماهير الشعب العضوي المتماسك تعلوه نخبة من العلماء والساسة ، يدورون جميعاً في إطار واحد هو الدولة القومية التي تَجُبّ مصالحها كل المصالح . وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التَجسُّد المادي والمحسوس للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) الذي تركزت فيه جميع القوى الحيوية الكامنة في النسق ، وهو القادر على تحريكها ، وهو القادر على حسم كل الاختيارات السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، تساعده النخبة العلمية والسياسية الحاكمة .

هذا الهرم الداروينى المنظم تنظيماً دقيقاً تحرك بشكل محايد ليدافع عن مصلحته ، كما يراها هو ، وعن منفعته ، كما حددها هو ، أو كما حددتها النخبة الحاكمة من علماء وساسة ! وكانت حركة الهرم النازي تتسم بالحياد الصارم ، والتجرد المذهل من القيم والعواطف والغائيات الإنسانية . وكانت واحدة من أهم مؤسسات الإبادة تُدعَى «مؤسسة تدعيم القومية الألمانية» ، وقد أُسِّست عام ١٩٣٩ لتوظيف العناصر الألمانية غير المرغوب فيها . وكان هملر (الذي أُسندت له مهمة إدارة هذه المؤسسة القومية) يرى أنها تجسد قيمة قومية عضوية مطلقة ، فهي تخدم المصالح العليا المطلقة لألمانيا ، وكان رجاله يؤدون واجبهم بأمانة وإخلاص شديدين لوطنهم .

٢ ـ أدار هملر مؤسسته بطريقة حديثة للغاية تبدت في كيفية استخدامه لليهود من خلال واحد من أهم أسس الإدارة الحديثة فيما يُسمَّى «الإدارة الذاتية» ، إذ كوَّن ، انطلاقاً من الرؤية الداروينية النفعية ، نخبة من اليهود نواتها الأساسية أعضاء المجالس اليهودية والموظفون الملحقون بها ، تدور حولها قطاعات أخرى مثل العمال اليهود في مصانع الذخيرة ، وبعض الشخصيات اليهودية العامة ، وتم وصفهم جميعاً بأنهم «يهود يتمتعون بالحماية من الترحيل» نظراً لنفعهم . (وهو امتداد للتقسيم الغربي القديم لليهود والذي ظل سائداً منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وإن كان قد اكتسب عمقاً خاصاً فى القرن الثامن عشر وعصر الاستنارة مع ظهور مبدأ المنفعة) . وقد أصبح هؤلاء أداة ذات كفاءة عالية في يد الإدارة النازية وتعاونوا معها تماماً .

٣ ـ وكانت عمليات السخرة والإبادة حديثة رشيدة بمعنى الكلمة يتم إنجازها من خلال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إجراءات محايدة . فعلى سبيل المثال ، استُخدم خط التجميع (بالإنجليزية : أسمبلي لاين assembley line) في عملية فرز المساجين (والمعروف أن خط التجميع استُخدم في الأصل في المذبح [السلخانة] في شيكاغو ، حيث رأى أحد مؤسسي علم الإدارة الحَديثة أنه يمكن توفير الوقت والجهد بأن تُعلَّق جثث الحيوانات الواحدة تلو الأخرى على سير متحرك أمام الجزارين ، لكي يقومون بتنظيفها وإعدادها) . وقد طُبِّق نفس الأسلوب على المساجين ، فكانوا يقفون صفاً واحداً ويُعطَى كل واحد منهم رقم ، ثم يتم فرزهم ، وهي طريقة أكثر كفاءة من التصنيف على أساس الأسماء . والملاحَظ أن عملية التوحيد والتنميط ، مثلها مثل المركزية ، تُعدُّ خطوة أساسية في عملية الترشيد ويتطلبها النموذج الآلي المادي ، إذ لا تمكن التعامل مع كل المعطيات بكفاءة عالية إن كانت غير متجانسة . فإن اختلفت العناصر أو الوحدات ، الواحدة عن الأخرى ، أدَّى هذا إلى بطء دولاب العمل . والنموذج الآلي المادي الهندسي يفترض تَشابُه جميع العناصر حتى يمكن معالجتها ماديًا وآليًا وهندسيًا . وقد طبَّق أيخمان هذه الآلية على نطاق واسع ، خصوصاً في حالة ترحيل يهود المجر . ويُقال إنه لم يكن من الممكن إنجاز مهمة الترحيل هذه إلا من خلال خط التجميع .

٤ ـ كانت آليات السخرة والإبادة كلها تتسم بتعظيم الإنتاج والمنفعة . ومن أطرف الآليات وأجداها اقتصاديًا وأقلها إيلاماً وأكثرها شيوعاً إرسال اليهود إلى معسكرات العمل بالسخرة لتزويد الشركات الألمانية بالعمالة الرخيصة ، وهو ما أفاد الاقتصاد الوطني الألماني فحقق تقدماً هائلاً لا يمكن للمراقب الموضوعي المحايد المتجرد من كل التحيزات الغائية والأخلاقية إلا أن يقر به . فكان يتم فرز المساجين بعناية شديدة ، حيث يُوجَّه القادرون على العمل إلى أعمال السخرة ، ومن ثم لا يُبدَّد شيء . وكان المعتقلون يعملون لساعات طويلة ، ويعيشون دون حد الكفاف الأمر الذي جعل من الممكن تحقيق أرباح هائلة وإنتاجية منقطعة النظير .

٥ ـ يبدو أن النازيين استفادوا بواحدة من أهم التجارب الحضارية الغربية ، وهي التجربة الإمبريالية ، إذ أُرسل اليهود أحياناً إلى جيتوات ، أسسها النازيون خصيصاً ، وكانت تأخذ شكل مناطق « قومية » مستقلة لها مجالسها التي تحكمها ونظامها المصرفي المستقل وعملتها الخاصة ونظامها التعليمي الخاص ، أي أن كلاً منها كانت جيتو/ دولة أو دولة/ جيتو تدخل في علاقة تبادل كولونيالية مع الدولة النازية . فكانت الجيتوات تزود الدولة النازية بالعمالة والخدمات وبعض السلع نظير أن تزودها الدولة النازية بالغذاء والملابس . ولكن علاقة التبادل كانت غير متكافئة لصالح الدولة النازية بحيث تكون الخدمات والعمالة الخارجة من الجيتو أكبر من قيمة ما يحصل عليه سكان الجيتو من المواد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغذائية التي كانت دائماً أقل من أن تفي باحتياجات العاملين اليهود ، أي أن العلاقة كانت تؤدي إلى انتقال فائض القيمة إلى النازيين وإلى إبادة العاملين واستهلاكهم كأداة إنتاج سريعة . ولذا يمكن القول بأن العلاقة بين الجيتو والدولة النازية كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الولايات المتحدة ببعض الدول العربية وغير العربية التي تسيطر عليها .

٦ ـ لم يتخل النازيون قط عن رشدهم وحداثتهم وحيادهم ، فكان يتم تقرير من يجب إبادته ، ومن يجب الإبقاء عليه وتسخيره بعد دراسة عملية موضوعية ، متمعنة ودقيقة . فقد قُسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ومن ثم لا يمكن نقلهم ، ويهود غير نافعين ومن ثم يمكن نقلهم والتخلص منهم . ولم تكن ظروف الحرب تعوق الألمان عن التحلي بالموضوعية الكاملة . فعلى سبيل المثال ، حينما وصلت القوات الألمانية إلى شبه جزيرة القرم ووجدت فيها بعض اليهود القرائين ، بيَّن لهم هؤلاء أنهم ليسوا يهوداً بالمعنى العام والسائد ، وأنهم لا علاقة لهم باليهود من أتباع اليهودية الحاخامية ولا يتسمون بما يتسم به اليهود عموماً من طفيلية (كما تزعم أدبيات العداء لليهود في العالم الغربي) . وأرجأ النازيون تنفيذ عملية الإبادة والتهجير ، وأرسلوا بأحد الضباط إلى برلين ليدرس القضية بشكل موضوعي رغم ظروف الحرب . وبالفعل توصَّل هذا الضابط/ الباحث إلى أن القرائين لا يتسمون بالسيكولوجية أو الطبيعة اليهودية ، وأخذ النازيون بتقريره ، ولذا لم يُطبَّق على اليهود القرائين قرار الإبادة . بل قرر النازيون ، انطلاقاً من الرؤية النفعية البرجماتية المرنة ، تجنيد بعض العناصر القادرة من بين اليهود القرائين في القوات النازية .

وانطلاقاً من الرؤية النفعية المرنة نفسها طوَّر النازيون مقياساً محدداً لتعريف من هو الآري ، ولكنه كان مقياساً مرناً منفتحاً ، ولذا كان الشخص السلافي ، الذي يتسم بقدر كاف من الصفات العرْقية البيولوجية الألمانية (من بينها الطول ولون العيون) ، يُعاد تصنيفهً «آريًا» ثم يُلحق ببرنامج خاص للأرينة (أي التحويل للآرية) ليتعلم الألمانية والسلوك الألماني الأصيل . وكانت هناك مؤسسة خاصة تُسمَّى Ru SHA المكتب الرئيسي للعرْق والتوطين ، كانت مهمتها تحديد الصفات الآرية وإمكانية الألمنة . (وانطلاقاً من الرؤية البرجماتية نفسها صُنِّف اليابانيون ، حلفاء الألمان ، «آريون شرفيون» رغم انتمائهم للجنس الأصفر !) .

وفي مؤتمر فانسي (الذي عُقد في ٢٠ يناير ١٩٤٢) أبدى المجتمعون اهتماماً شديداً بتصنيف الضحايا تصنيفاً دقيقاً إذ قُسِّموا إلى أربعة أقسام : فكان القسم الأول يضم من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ستتم إبادته على الفور، أما القسم الثاني فكان يضم من ستتم إبادته (إنهاكه) من خلال الجوع والعمل بالسخرة . ويضم القسمان الثالث والرابع من يُعقم ومن يمكن أن يؤلمن (على التوالي) . وقد قام النازيون بالتمييز بين الإبادة من خلال الجوع والإبادة من خلال العمل ، ففي عام ١٩٤٢ وجد الجيش الألماني أن المنهج الثاني من الإبادة أكثر رشداً من الأول فقام بتبنيه .

٧ ـ كان النازيون حريصين كل الحرص على استخدام مصطلح علمي محايد لا يحمل أية دلالات عاطفية غير علمية ، فإحدى مؤسسات الإبادة كانت تحمل اسم تي فور T4 ، وهو اسم يصلح لأية شركة تجارية أو سياحية أو حتى أي دواء مقو ، وهو منسوب إلى الشارع الذي تقع فيه المؤسسة وإلى رقم المبنى (تيرجارتن شتراسه رقم ٤ Tiergarten 4 Strasse ، أي ٤ شارع حديقة الحيوان) . ومن أسماء المؤسسات الأخرى «جمعية نقل المرضى» أو «المؤسسة الخيرية للعناية المؤسسية» .

وكان يُشار إلى عملية الإبادة بالمصطلح نفسه ، فيتم أولاً «الإخلاء» ، يليه «النقل» (الترانسفير) ثم «إعادة التوطين» ، وأخيراً «الحل النهائي» . (ويستخدم الصهاينة الخطاب نفسه ، فهم يستخدمون كلمة مثل «ترانسفير» للإبعاد . وحينما فر الفلسطينيون من قراهم عام ١٩٤٨ خوفاً من الإرهاب الصهيوني ، وصف وايزمان هذا الفرار بأنه عملية «تنظيف») . وتحييد المصطلح مسألة أساسية في التفكير النازي، فعملية تسييس العمال وترشيد حياتهم ، أي السيطرة عليهم وعلى حياتهم الخاصة أُطلق عليها اسم «القوة من خلال المرح» ، وكان مكتوباً على معسكر أوشفتس «العمل سيحقق لك الحرية» . وكما أسلفنا ، فقد جرى الحديث عن إبادة المعوقين وغيرهم باعتبارها نوعاً من «الصحة العرْقية» ومن «علاج الأمراض الوراثية الخطيرة» ، وكانت إبادة المجرمين والمتخلفين تُوصف بأنها «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» ، وأفران الغاز هي «أدشاش» ، والعملية كلها هي عملية «تطهير» لا أكثر ولا أقل . ويُلاحَظ أن كل المصطلحات لا تذكر أية إبادة (بالمعنى العام أو الخاص الذي نطرحه) ، ولذا فهي تجعل عملية إبادة البشر تبدو وكأنها مسألة مجردة وبعيدة ، ومن ثم مقبولة تماماً .

٨ ـ كانت عملية تحييد المصطلح بداية عملية تحييد كامل للإدراك ، فالمصطلح المحايد للغاية يقترب من المصطلح العلمي الدقيق المنفصل عن القيمة ، إذ لا توجد فيه عواطف أو إراقة دماء ، وهو يحاول أن يصف الظاهرة من الخارج باعتبارها مجرد موضوع ، دون أن يعطيها أي معنى إنساني داخلي أو أية قيمة خاصة ، بحيث ينظر الموظف النازي أو الألماني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الضحية وكأنه ينظر إلى موضوع وحسب ؛ حركة مادية خارجية ومادة استعمالية خام خاضعة للإجراءات . وكان يتم تدريب المشرفين على عمليات الإبادة المختلفة على التحلي بالبرود والتجرد للحفاظ على الحياد وكفاءة الأداء . فلم يكن مسموحاً للجنود الألمان بإساءة معاملة الضحايا حتى وهم في طريقهم إلى أفران الغاز ، لأن هذا يعني شكلاً من أشكال الانفعال والانغماس العاطفي الذي يتنافى مع الحياد العلمي ، والتجرد من العواطف والتحيزات والقيم أمر أساسي ومطلوب .

وعند اكتشاف أي انحراف عن الخط المحايد ، كانت القيادة النازية تعاقب المنحرفين . وقد وُجه اللوم إلى أحد الضباط لأنه كان يحيط أسر الضحايا علماً بإعدام أقاربهم على كارت بوستال مفتوح بدلاً من ظرف مغلق ! ويبدو أن الدكتور راشر ، العالم النازي ، تجاوز هو الآخر الخطوط المحايدة (!) حتى أنه أغضب هملر الذي أمر بإعدامه هو وزوجته قبل نهاية الحرب بقليل . كما أُعدم قائد معسكر بوخنوالد وزوجته (عاهرة بوخنوالد) التي كانت مغرمة بصنع الشمعدانات ومنافض السجائر من أشلاء البشر ، الأمر الذي يتجاوز حدود المعقولية والحياد والحوسلة . وقد أوضح المواطن النازي جوزيف كرامر أنه سمَّم ثمانين امرأة بالغاز أثناء خدمته في أوشفتس . وحينما سُئل عن مشاعره ، صرح ببرود أنه لم تكن لديه أية مشاعر على الإطلاق ، وقال للقضاة : « لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من النزلاء بالطريقة التي قلتها لكم . وبالمناسبة هذا هو الأسلوب الذي تدربت عليه » ، فهو يرى نفسه باعتباره «موظفاً فنيًا» وحسب ، ملتزماً بالترشيد الإجرائي ولا يصدع مخه بالقيم الأخلاقية أو بالمطلقات (فهذه مجرد ميتافيزيقا !) .

وحينما صدر قانون التعقيم والذي شمل الحالات المتطرفة لإدمان الكحول ، حاول البعض استصدار استثناء للمحاربين القدامى ممن أدمنوا الكحول نتيجة إصابات في المخ لحقت بهم أثناء الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . ولكن الحياد العلمي لا يعرف أي استثناءات ولذا رُفض الطلب ، « لأنه لو أُعفي هؤلاء لتم إعفاء المحاربين القدامي الذين أصيبوا في شجار في الشارع ، ثم المصابين نتيجة للعمل في المصانع » ، الأمر الذي يتناقض مع النموذج العقلاني المادي والنمطية التي يتطلبها الموقف العلمي الصارم .

٩ ـ تبدَّى الموقف الحيادي الداروينى في موقف النازيين من العلم ، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية ، في واحد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القرن التاسع عشر ، وهو مفهوم «الصحة العرْقية» ، الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه (فهما سر تفوقه ورقيه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة (التي تُعدُّ تعبيراً عن انهيار العرْق وانحطاطه) ؛ وثمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتابات عديدة بجميع اللغات الأوربية في هذا الموضوع . ومن أهم المفاهيم المرتبطة بالصحة العرْقية مفهوم اليوثينيجيا euthenesia أو ما يُسمَّى «القتل الرحيم» (وإن كان من الأفضل تسميته «القتل العلمي» أو «القتل المحايد» أو «القتل الأداتي» أو «القتل الموضوعي») ، أي التخلص من المعوقين وغيرهم (مثل المرضى بأمراض مزمنة) عن طريق التصفية الجسدية . وقد يبدو هذا المفهوم لنا مخيفاً ، ولكن في إطار الرؤية المادية الشاملة المحضة ، وفي داخل إطار داروينى نيتشوي ، يصبح الأمر منطقيًا ومتسقاً مع نفسه (ولذا، نجد كاتباً مثل برنارد شو أو هـ . جـ . ويلز يدافع عن مثل هذا المفهوم) .

وقد أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية ، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة :

* المستهلكون الذين ليس لهم نفع اقتصادي : مثل المعتوهين والمتخلفين عقليًا والمصابين بالشيزوفرنيا والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل والمرض الميئوس من شفائهم بل . ولكن يضم لهؤلاء أحيانا الجنود الألمان الذين أصيبوا أثناء العمليات العسكرية ، فعلاجهم كان يشكل عبئا على ميزانية الدولة .

* المنحلون : وهم الشيوعيون والشواذ جنسيًا وعدد كبير من أعداء المجتمع الذين يتسمون بالسلوك غير الاجتماعي (مدمنو الكحول والعاهرات والمجرمون ومدمنو المخدرات ومن لا مأوى لهم) والغجر .

* أعضاء الأجناس الدنيا : مثل السلاف والغجر واليهود والأقزام فهم غرباء داخل الفولك الألمانى ولا يوجد مبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى ، خاصة وأن بعضهم ، مثل البولنديين ، يشغلون المجال الحيوى لألمانيا .

وفي ١٤ يوليه ١٩٣٣ (في اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع الفاتيكان) ، أصدر النازيون قانوناً يُسمَّى «قانون التعقيم» لمنع بعض القطاعات البشرية (المعوقين ـ المرضى النفسيين ـ المرضى بالصرع ـ العمى الوراثي ـ الصمم الوراثي ـ التشوه الخلقي ـ الإدمان المتطرف للكحول) من التكاثر . وبالفعل، تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني . وفي عام ١٩٣٥ ، صدر قانون بمنع العلاقات الجنسية بين اليهود وأعضاء الأعراق غير الراقية من جهة والألمان من جهة أخرى ، وذلك للحفاظ على النقاء العرْقي . وأُعلن عام ١٩٣٩ عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة وطُلب من كل طبيب أو داية أن تُبلغ عن أي مولود جديد مُعوَّق . وبدأت عملية القتل الموضوعي (أو العلمي أو المحايد)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهؤلاء الذين لا يمكن شفاؤهم مثل المعوقين وغيرهم (مشروع تي فور T4) . وظهرت وثائق تبين أن سبعين ألف معوق وعاجز ممن يأكلون ولا ينتجون قد قُتلوا (حرفياً : «آكلون غير نافعين» أي «أفراد يأكلون ولا ينتجون» [بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters]) يُشكّلون عبئاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم . وقد تمت إبادتهم بمقتضى برنامج «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» (أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين) . وأدّى ذلك إلى توفير ٢٣٩,٠٦٧,٠٢٠ كيلو جراماً من المربى في العام (كما جاء في إحدى الدراسات العلمية الألمانية الرصينة وإن كان هناك دراسات لا تقل رصانه تصل بالرغم إلى أعلى من ذلك بكثير) . وأُنشئت لجنة للعلاج العلمي للأمراض الوراثية الخطيرة أوصت بقتل الأطفال المشوهين . وكان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات . فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاز عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة أدشاش ، ومحارق لحرق الجثث . وقد طُبّق المعيار نفسه ، بعض الوقت ، على الجنود الألمان الجرحى في الحرب ، إذ أن عملية علاجهم كانت ستُكلف الدولة الكثير . ثم طُبّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب .

وقد صُنّف اليهود باعتبارهم مرضى ، وذلك نظراً لعدم نقائهم العرقي . ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم ، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة . ومن جهة أخرى ، تم توسيع نطاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة ، يهوداً وغير يهود . وكان اليهود يُعتبرون أيضاً ذوي استعداد إجرامي طبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية . ولذا ، طُبّق البرنامج على اليهود الموجودين في المستشفيات جميعاً .

١٠ ـ ومن أهم تجليات الحياد العلمي ذات العائد المرتفع التي اتسمت بها الإبادة ، تلك التجارب العلمية التي كان النازيون يجرونها على خنازير التجارب البشرية وهي تجارب منفصلة تماماً عن أية منظومات قيمية . فكان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصة لإجراء التجارب عليها . وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسة ؛ لأن البشر تحولوا إلى موضوع أو مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب . فعلى سبيل المثال ، كان طبيب بوخنوالد (الدكتور هانس إيسيل) يقوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها . وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل . وكان بعضهم يُطلق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحرب ، وعُرّض آخرون لغازات سامة في عمليات اختبارية . وكان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حيّاً وهو على ارتفاعات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالية أو بدون أوكسجين . وكان الأوكسجين يُقلل تدريجيًا ويخفض الضغط ، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم . كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون .

وكان الدكتور راشر ، وهو عالم نازي آخر ، شموليًا في أبحاثه إلى درجة عالية ، فقام بتزويد غرف الضغط في النهاية بمبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية . وكان راشر مسئولاً أيضاً عن الكثير من تجارب التجميد التي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت . وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم ، وبقائهم أحياء ، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة . وكان بعض نزلاء داخاو ضمن ضحايا راشر أو ضمن خنازير تجاربه (إن أردنا التزام الدقة والحياد العلميين) . فكان يتم غمر الضحايا/ الخنازير في وعاء ضخم أو كانوا يُتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية . وفي أواخر شتاء عام ١٩٤٣ ، حدثت موجة برد شديدة ، فتُرك بعض السجناء عراة في الخلاء أربع عشرة ساعة ، تجمدت خلالها أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضت درجة حرارتهم الداخلية . وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجيًا مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك .

وكانت هناك تجارب أخرى من بينها تدفئة أشخاص مثلجين . وبناءً على تقرير راشر ، أُجريت أكثر من أربعمائة تجربة على ثلاثمائة ضحية . وقد مات من هؤلاء زهاء تسعين شخصاً نتيجةً لمعالجتهم ، وجُنَّ عددٌ ممن بقي . أما الآخرون ، فقد قُتلوا لكيلا يتحولوا إلى شهود مزعجين فيما بعد . وقد توصل راشر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثيراً من المقولات العلمية السائدة في عصره . وأُجريت بالطبع تجارب لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال ، من بينها الحقن بالسم أو بالهواء أو البكتريا ، معظمها مؤلم وكلها قاتلة ، كما أُجريت تجارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم .

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيار التوائم وإرسالهم إلى الطبيب النازي الشهير الدكتور منجل لإجراء تجارب علمية فريدة عليهم ، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعدم توفر العينات اللازمة . فكان يفصل التوأمين ويضعهما في غرفتين منفصلتين ، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر ، بل وكان يقتل أحدهما لدراسة أثر هذه العملية على الآخر . وكما قال بريموليفي إن ألمانيا النازية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى المكان الوحيد الذى كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جثتى توأمين قُتلا فى لحظة واحدة . ويُقال إن دراسات منجل على التوائم لا تزال أهم الدراسات في هذا المجال، ولا تزال الجامعات الألمانية والأمريكية تستفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون العلميون الألمان في ظروف فريدة لم تُتح لعلماء غيرهم من قبل ومن بعد . وقد أُثيرت مؤخراً قضية مدى أخلاقية الاستفادة من معلومات تم الحصول عليها في مثل هذه الظروف التجريبية الجهنمية ، وبهذه الطريقة الموضوعية الشيطانية .

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا وقد اختار د . برجر، التابع لإدارة الإس . إس . عدداً من العينات البشرية (٧٩ يهودياً ـ بولنديان ـ ٤ آسيويين ـ ٣٠ يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ الدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية (كما كان مهتماً بدراسة أثر الغازات الخانقة على الإنسان) . أما الدكتور برجر نفسه فكان مهتماً بالآسيويين وجماجمهم ، وكان يحاول أن يكوِّن مجموعته الخاصة .

ويبدو أن عملية جمع الجماجم هذه وتصنيفها لم تكن نتيجة تخطيط محكم، وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية المتجردة من القيمة . إذ ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أنباء عن إبادة بعض العناصر البشرية " التي لا تستحق الحياة " ، فقال للموظف المسئول بشكل تلقائي : " إن كنتم ستقتلون كل هؤلاء ، فلماذا لا تعطوننا أمخاخهم حتى يمكن استخدامها ؟ ، فسأله : كم تريد ؟ فأجاب : عدد لا يحصى ، كلما زاد العدد كان أفضل . ويقول البروفسور المذكور إنه أعطاهم بعد ذلك الأحماض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ . وكم كانت فرحة البروفسور حينما وجد أمخاخ معوقين عقليين (في غاية الجمال ، على حد قوله) و« أمخاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية » . وقد لاحظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، ونتيجة هذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ .

ومن أطرف الأمثلة الموضوعية قضية البروفسور النازي كلاوس الذي اكتشف البعض أنه يعيش مع سكرتيرته اليهودية ، وفي "دفاعه" عن نفسه قال إنه يواجه مشكلة في دراسته لليهود وهي أنه لا يمكنه أن يعيش بينهم ولذا كان عليه أن يحصل على «مُخْبِر» أو «دليل» (بالإنجليزية : إنفورمانت informant) أو عينة مُمثِّلة يمكنه دراستها عن قرب ، فهي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالنسبة له لم تكن سوى موضوعاً للدراسة فكان يراقبها " كيف تأكل وكيف تستجيب للناس وكيف تقوم بتركيب الجُمل بطريقة شرقية عربية " [كذا].

ويتضح حياد النازيين وحسهم العملى الفائق ، بشكل أخر تماما . فقد كانوا على إستعداد لأن يطوِّعوا النظرية العرْقية ذاتها لمتطلبات الواقع . فاليابانيون (أعضاء الجنس الأصغر ، حسب الرؤية النازية)أُعيد تصنيفهم « آريين شرقيين» ، بسبب عمق التحالف بين ألمانيا النازية واليابان ذات النزعه الأمبريالية ، ولم يكن اليابانيون هم وحدهم الذين خطوا لهذا الشرف ، فهنلك « برامج الأرينه » للسلاف ممن كانوا يتسمون بنسبة ٨٠٪ من السمات الآريه . بل وقد بدأت تظهر قرائن على أن آلاف الجنود الألمان كانوا يهوداً أونصف يهود ، رغم أن القانون الألمانى فى ظل الحكم النازى كان يمنع ، اعتبارا من عام ١٩٣٥ ، أى شخص ينحدر عن أجداد يهود أن يشغل وظيفة ضابط فى الجيش الألمانى (الديلى تلجراف ديسمبر ١٩٩٦) . وكان مكتب الأفراد فى الجيش الألمانى (عام ١٩٤٤ ، أى قرب نهاية الحرب) على علم بوجود سبع وسبعين ضابطاً من ذوى الرتب العاليه من أصول مختلطه يهودية أو متزوجين من يهوديات . ومع هذا وقع هتلر شهادات تبين أنهم من « ذوى الدم الألمانى » ، أى ينتمون للعرْق الألمانى . ومن بين هؤلاء الفيلد مارشال ابرهارد ميلخ ، الذى كان نصف يهودى (حسب التعريف النازى) ومع هذا كان يشغل منصب نائب هرمان جورنج ، قائد السلاح الجوى الألمانى ، والخلف المختار لهتلر . وقد غض جورنج الطرف عن هذه الحقيقة ، بل زوّر المعلومات المتعلقة بوالد نائبه . وتبين الوثائق التى تم كشف النقاب عنها مؤخرا أن القيادة النازية منحت وسام الصليب الفارس ، أعلى وسام عسكرى ألمانى ، إلى عسكريين سبق أن طُردوا من الخدمة بسبب انحدارهم من أصل يهودى ثم أعيدوا إليها . وتتضح المفارقة فى تلك الزيارة التى قام بها أحد كبار الضباط الألمان لوالده الذى كان قد نقل إلى أحد معسكرات الاعتقال والسخرة . وقد حرص الضابط على إن يرتدى النياشين والأوسمة التى منحت له بسبب مشاركته فى الحملات العسكرية التى شنها النظام النازى ، هذا النظام الذى كان يقوم بإبادة أعضاء كثير من الأقليات الاثنية والسينية ، ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية .

إن المفارقة هنا تدل على حس عملى عميق مستعد لتجاوز كل الأفكار المسبقة للتعامل بكفاءة مادية بالغة ولتجاوز الميتافزيقا والمطلقات والكليات مع الواقع العملى . وحينما وجد النازيون فرصة للاستفادة من أعضاء الجماعات اليهودية ، هذه المادة البشرية الاستعمالية النافعة ، لم يترددوا فى تعديل عقائدهم الدينية العرْقية نفسها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢ ـ ولكن إلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد ، كانت هناك المادة التي لا يُرجى منها نفع أو الضارة من منظور النازيين ، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة من خلال عمليات التصفية الجسدية السريعة ، التي تقوم بها جماعات خاصة أو فرق متنقلة تقف وراء خطوط الجيوش الألمانية (بالألمانية : آينساتس جروبين Einsatzgruppen) . وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغير مكلفة إذ كانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسهم . كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سيارات مجهزة بحجرة غاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى معسكرات الإبادة . وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جرحى الحرب الألمان ممن لا يُرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريضهم الكثير ، كما تمت إبادة أعداد كبيرة من أعضاء النخبة الثقافية البولندية ، والفائض السكاني الروسي .

١٣ ـ وحتى بعد قرار الإبادة (بمعنى التصفية الجسدية) ، كان ديدن النازيين دائماً هو الحوسلة الكاملة وتعظيم الفائدة والحرص الكامل على ممتلكات الدولة وخدمة مصالحها ، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة (حتى من الحشوات الذهبية التي في أسنانهم) ، ولا شك في أن هذا ساهم في تحسين ميزان المدفوعات الألماني . وقد أشرنا من قبل إلى استخدام الأمخاخ البشرية ولكن يبدو أن عملية التوظيف كانت أعمق من ذلك بكثير فقد كانت البقايا البشرية (مثل الشعر) تُستخدَم في حشو المراتب ، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسعار . ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب ، وإنما كمادة عازلة أيضاً . وكانت العظام البشرية تُطحن وتُستخدم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة . بل ويُقال إن بعض الأنواع الفاخرة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية . (ومع هذا ، صدرت مؤخراً دراسات تشكك في هذا) .

كانت الجدوى الاقتصادية لمعسكرات الإبادة إذن عالية للغاية ، كما كان التحكم كاملاً ، أي أنها عملية رشيدة بالمعنى الفيبري ، إذ يرى ماكس فيبر أن رشد الحضارة الغربية الحديثة ينصرف إلى الإجراءات وحسب ، ولا ينطبق على الأهداف فهو ترشيد مادي إجرائي أداتي ، منفصل عن القيم والعاطفة ، وأنه لهذا السبب سينتهي بالإنسان إلى " القفص الحديدي " حيث يوجد فنيون بلا قلب ؛ حسيون غير قادرين على الرؤية ، وهذا لا يختلف كثيراً عن معسكرات الاعتقال والإبادة . وقد أشار أحد العلماء الذين درسوا الظاهرة النازية إلى أن العلماء النازيين تبنوا ما سموه موقفاً موضوعياً متجرداً من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحكام القيمية ، ولكن هذا الموقف العلمي ذاته جعل كل شيء ممكناً . فقتل المصابين بالأمراض العقلية ، إن كان لازماً للبحث العلمي الموضوعي ، يصبح أمراً مقبولاً وربما مرغوباً فيه .

وتتبلور هذه النقطة في قضية المسئولية الخُلقية للتنفيذيين النازيين ، فهناك من ينطلق من المنظور الترشيدي المادي الإجرائي المنفصل عن القيمة ويذهب إلى أن المواطن النازي الذي اشترك في عمليات الإبادة لم يكن سوى بيروقراطي ، موظف تنفيذي («عبد مأمور» ، كما نقول بالعامية المصرية) ، يؤدي عمله بكفاءة عالية ، ويُنفذ ما يصدر إليه من أوامر تأتيه من عل ، ولا يتساءل عن مضمونها الأخلاقي ويُنفذها حتى لو تنافت مع القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة . فهذا الموظف لا يدين بالولاء الكامل إلا للدولة والوطن ولا يعيش في ازدواجية الدين والدولة أو الأخلاق والدولة ، فالمطلق الوحيد الذي يؤمن به ، شأنه في هذا شأن أي إنسان علماني شامل ، هو الدولة والوطن ، ولذا فعليه أن يذعن لما يصدر له من أوامر تأتيه من هذه الدولة التي تخدم صالح الوطن . وهذا ينطبق على الأوامر النازية الخاصة بالإبادة !

ولكن هناك آخرون ، ممن يؤمنون بالمطلقات الأخلاقية والإنسانية ، يذهبون إلى أن الإنسان الفرد كائن حر مسئول ، ولذا فعليه أن يتحمل المسئولية الأخلاقية الكاملة لما يأتيه من أفعال ، ومن ثم عليه أن يقف ضد عمليات إبادة الضعفاء (من المسنين والمعوقين وأعضاء الأقليات) ، حتى لو كانت عملية الإبادة تخدم " الصالح العام " أي صالح الدولة والوطن ! أي أن الإنسان الفرد يدين بالولاء لمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة تتجاوز ولاءه للدولة والوطن وكفاءة الأداء في الوظيفة .

وهذه إشكالية فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها المنظومة العلمانية الشاملة ، فهي منظومة فلسفية تنكر الميتافيزيقا والثنائيات والمطلقات وتؤكد نسبية المعرفة وكل القيم الأخلاقية ، وهو ما يعني ، بطبيعة الحال ، غياب المرجعية المتجاوزة (التي تتجاوز الأفراد) وظهور المرجعية المادية الكامنة ، حين يحدد كل إنسان قيمه بنفسه دون العودة إلى أية مطلقات أو ثوابت إنسانية (كما يدعو فكر ما بعد الحداثة) . وإذا كان الألمان ، انطلاقاً من المرجعية المادية الكامنة فيهم ، قد حدَّدوا قيمهم الأخلاقية على أسس نفعية مادية داروينية ، وسلكوا على هذا الأساس ، فكيف يمكننا أن نتجاوز ذاتيتهم الكامنة فيهم ؟ وكيف يمكننا أن نهيب بقيم أخلاقية وإنسانية ، عامة مطلقة ، تقع خارج نطاق مُثُلهم الذاتية ؟ كيف يمكن أن نفعل ذلك إن كنا نحن أنفسنا نؤمن بالنسبية المطلقة ؟ كيف يمكن اختراق المطلق الذاتي ؟ كيف يمكن أن نبيِّن للشعب المختار ، صاحب الحقوق المطلقة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلح بالمدافع الرشاشة والقنابل النووية ، أن ثمة إنسانية عامة وثمة قيم أخلاقية عامة ، إن كنا نحن أنفسنا نسبيين ، علمانيين شاملين حركيين نرفض الثبات ولا نرى إلا حركة المادة وقوانينها الصماء ؟ يقول البعض ممن يحاول اتخاذ موقف أخلاقي دون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة ، إن الإنسان بوسعه أن يأخذ موقفاً ذاتيًا وجوديًا ، ويرفض إبادة الآخر بإصرار وعناد ، أي أن الإنسان بوسعه أن يتبنى موقفاً أخلاقيًا دون السقوط في الميتافيزيقا ودون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة أو كليات مجردة . ولكن هل يمكن محاكمة الآخر من هذا المنظور إن كان لا يؤمن به؟ ألا يعني هذا أنني أفرض ذاتيتي الأخلاقية الوجودية على ذاتيته الداروينية النفعية المادية ؟

هذه هي الإشكالية التي نبهنا لها ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع والمفكرين الغربيين حينما بدأوا في إطلاق التحذيرات ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، من العلم المنفصل عن القيمة ، وهي إشكالية تثيرها ، وبحدة ، الإبادة النازية لليهود والأطفال والمعوقين والعجزة والغجر ، وكل من لا فائدة له ، من المنظور النازي . والحوار الدائر في الغرب بشأن الإبادة يركز على تفاصيل مثل عدد الضحايا وهل هم يهود فقط أو غيرهم (مما أسميه «لعبة الأرقام») ويهمل قضية إنسانية جوهرية مثل هذه تتجاوز حدود الإبادة النازية لتصل إلى مستوى المجتمع الحديث بأسره ، ومستقبل الإنسان على هذه الأرض .

وقد أثيرت مؤخراً قضية وثيقة الصلة تماماً بقضية انفصال العلم عن القيمة ألا وهي قضية انفصال الإجراءات الديموقراطية عن القيمة . فالديموقراطية هي في واقع الأمر اتفاق على مجموعة من الإجراءات تمكن من خلالها معرفة رأي الأغلبية ، وجوهر هذه الإجراءات كمي ، أي حساب عدد الأصوات المؤيدة والمعارضة ، فإن زادت الأصوات المؤيدة عن الأصوات المعارضة ولو صوتاً واحداً تم تمرير مشروع القانون ، وإن نقصت ولو صوتاً واحداً رُفض المشروع . فالاتفاق هنا اتفاق بشأن الإجراءات وحسب (وقوانين اللعبة ، كما تُسمَّى) ، وليس متصلاً بمضمونها أو اتجاهها ، فهذه أمور تحددها العملية الديموقراطية نفسها ، دون الالتزام بأية قيم أو مرجعيات مسبقة ، أي أن الديموقراطية تدور في إطار النسبية الكاملة ولا تتقيد بأية قيم أخلاقية مطلقة . ومن ثم سُمِّيت الأخلاق الحاكمة للديموقراطية بأنها «أخلاقيات الإجراءات والصيرورة» (بالإنجليزية : إثيكس أوف بروسيس ethics of process) . فالديموقراطية ، شأنها شأن الترشيد الإجرائي ، معقمة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والثوابت . فكما أن العلم انفصل عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبح مرجعية نفسه ، انفصلت الإجراءات الديموقراطية عن الغائيات والقيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسانية وأصبحت مرجعية ذاتها ، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها .

والقضية التي تثيرها النازية هي أن هتلر وصل إلى الحكم من خلال إجراءات ديموقراطية سليمة ، تماماً كما أن المشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق ديموقراطية سليمة . ومن المعروف أن عمليات السخرة والإبادة التي قام بها النظام النازي كانت تحظى بموافقة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني . وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الولايات المتحدة حينما قامت الحكومة الأمريكية بوضع ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبان الحرب العالمية الثانية كإجراء أمني، وقد حظى قرارها العنصرى الإرهابى بموافقة الأغلبية. وتصبح القضية أكثر خطورة حينما تظهر بين جماهير الشعب نزعات عسكرية وإمبريالية تتجاوز طموحات النخبة الحاكمة، الأمر الذى يضطرها إلى القيام بعمليات عسكرية عدوانية لتحظى برضى الجماهير . ويُلاحَظ أثناء حملات الرئاسة الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تأخذ مواقف عسكرية متشددة قد لا تضطر لاتخاذها بعد الانتخاب . وتظهر المشكلة بشكل أكثر حدة حينما يرى أحد الشعوب أن قطاع الاتجار في المخدرات هو عصب اقتصادها الوطني ، وتُنتخب حكومة تدافع عن مثل هذه السياسة . ومؤخراً رشحت إحدى نجمات أفلام الإباحية نفسها في انتخابات البرلمان الإيطالي ، وكانت حملتها الانتخابية تتلخص في خلعها لملابسها لإقناع وإغواء الناخبين (وقد نجحت في حملتها وتم انتخابها بالفعل بأغلبية كاسحة) .

والسؤال الآن هو : هل علينا أن نقبل بمثل هذه القرارات (ابتداءً من الإبادة النازية وانتهاءً بقبول المخدرات والإباحية) باعتبار أنها تعبير عن إرادة الشعب وصوت الجماهير طالما أنها اتبعت الإجراءات الديموقراطية السليمة ، أم ينبغي علينا أن نرفض مثل هذه القرارات الديموقراطية ، استناداً إلى مرجعية أخلاقية متجاوزة للإجراءات الديموقراطية ؟ ولكن هل يحق لنا أن نسأل أي سؤال يقع خارج نطاق أخلاقيات الإجراءات والصيرورة ؟ ألا يشكل هذا سقوطاً في الميتافيزيقا والماهوية والمطلقية ؟

توظيف الإبادة :

تتسم المجتمعات الغربية الحديثة بمقدرتها الفائقة على حوسلة كل شيء ، دون أي اعتبار لقداسة أو محرمات ، ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للإبادة . وتبدأ عملية توظيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإبادة ـ على يد الصهاينة ـ بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها جريمة العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب . ثم تُعطي واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربا وتاريخ العالم . ولذا صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم ، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها . وقد دخلت دراسة الهولوكوست عشرات الجامعات والكليات الأمريكية ، وأُقيمت نصب تذكارية للإبادة في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس وغيرها . وأنشأت الحكومة الأمريكية المجلس الأمريكي للتذكير بالإبادة ، وتم إنشاء متحف تُخلَّد فيه ذكرى الإبادة النازية في واشنطن بجوار المتاحف القومية الأمريكية . وباسم الإبادة ، حاولت المؤسسة الصهيونية التدخل (دون نجاح كبير) في انتخابات الرئاسة في النمسا عام ١٩٨٦ ، واعترضت بشدة (دون نجاح مرة أخرى) على زيارة الرئيس الأمريكي ريجان لمقبرة بتبرج الألمانية التذكارية لمجرد أن بعض المدفونين فيها من رجال قوات الصاعقة النازية .

ومن أهم أشكال توظيف الإبادة لصالح الصهيونية هو استخدامها كسحابة كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين . كما تُوظَّف الإبادة في جمع التعويضات التي تمول الكيان الاستيطاني الصهيوني (بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً) . ومن المعروف أن هذه التعويضات التي تلقتها الدولة الصهيونية انعشت الاقتصاد الإسرائيلي ، ومكنت الدولة الصهيونية من شراء مزيد من الأسلحة والمستوطنات والقنابل العنقودية !

والتعويضات تعني ، في واقع الأمر ، حصول إسرائيل (وبعض أعضاء الجماعات اليهودية) على مقابل مالي تعويضاً عن الآلام التي لحقت بهم . وهذا يخفف من البُعد الأخلاقي للقضية ، إن لم يكن يلغيه . ففي موقف مماثل رفضت الصين أن تتقاضى تعويضات مالية من اليابان على جرائمها ضد الصينيين باعتبار أن قبول التعويضات فيه تنازل عن الحق الأدبي ، وفيه تخلٍّ عن المنظور الأخلاقي (المطلق) حيث تتحول القضية إلى ما يشبه المقايضة .

ومن الواضح أن عملية توظيف الإبادة تتم من منظور نفعي مادي انتقائي محض ، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية . وفي هذا الإطار يثير بعض الدارسين قضية علاقة الدولة الصهيونية مع بعض الشخصيات والدول التي كانت لها علاقة بالنظام النازي . إذ لا تُمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقتها مع بعض حكومات دول أمريكا اللاتينية التي تأوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم إسرائيل أنها تطاردهم في كل زمان ومكان !) مادام هذا يخدم مصلحتها . وقد تعاونت إسرائيل مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي كانت معروفة بتعاطفها الكامل مع النظام النازي . وقامت باستضافة رئيس وزراء جنوب أفريقيا ب السابق بلثازار فورستر ، وهو جنرال سابق في الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا الموالية للنازيين والتي كانت تقاوم المجهود الحربي للحلفاء ، وقد اعتُقل لمدة عشرين شهراً بسبب اشتراكه في المقاومة . ورغم مرور عشرات السنين إلا أنه لم يُنكر موقفه الموالي للنازية . وقد سمحت له الحكومة الصهيونية بوضع إكليل من الزهور على ياد فاشيم (النصب التذكاري) المقام لضحايا الإبادة النازية لليهود ، الأمر الذي دفع جريدة **الجيروساليم بوست** (الصهيونية) إلى الاحتجاج وإلى الإشارة إلى الحقيقة البدهية التي أغفلتها إسرائيل وهي أن اليهود ينبغي عليهم ألا يرتبطوا بأحد المؤيدين السابقين للنازية .

وفي مجال توظيف الإبادة يلجأ الصهاينة أحياناً لاختلاق القصص أو تزييف الحقائق كما حدث في حادثة آن فرانك (١٩٢٩ ـ ١٩٤٥) ، وهي فتاة ألمانية هاجرت إلى هولندا مع أسرتها بعد وصول هتلر إلى السلطة في عام ١٩٣٣ . وحينما قرر النازيون إرسال أختها إلى معسكرات العمل ، اضطرت هي وأسرتها إلى الاختباء ، فعاشوا في مخبئهم ما يزيد على عام ، ثم أُلقي القبض عليهم ورُحِّلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث لقيت آن وأختها حتفهما بسبب المرض .

ويُقال إن آن فرانك كتبت ، أثناء فترة اختبائها ، مذكراتها التي نُشرت بعد الحرب وتُرجمت إلى الإنجليزية . وهناك الكثير من الشكوك التي تحيط بهذه المذكرات إذ يُقال إنها لم تكتبها بنفسها بل كتبها أبوها (أو بعض من حوله) بعد موتها بطريقة مثيرة ليحقق من ورائها ربحاً مالياً . ولهذا فهي لا تُعتبَر وثيقة تاريخية يُعتد بها . ومع أنها ليست ذات قيمة أدبية كبيرة ، إلا أنها أصبحت مصدراً لعدة أفلام ومسرحيات . كما غدت آن فرانك إحدى الأساطير التي تُستخدَم لتحويل الإبادة النازية من جريمة غربية ضد قطاعات بشرية عديدة داخل التشكيل الحضاري الغربي (تضم السلاف والغجر والجماعات اليهودية) إلى جريمة ألمانية ضد اليهود وحسب . وأصبح المنزل الذي اختبأت فيه أسرة فرانك متحفاً .

وتحاول الدعاية الصهيونية توظيف واقعة الإبادة في تعبئة أعضاء الجماعات اليهودية (باعتبارهم الضحية الوحيدة) وراء الأهداف الصهيونية . ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها . فالإبادة ، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها ، تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود ، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود الذين يُقدَّمون قرباناً على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحرقة . وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأزلية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها ، ومن ثم يتعيَّن على يهود العالم الهجرة إلى الوطن القومي . (ولكن يهود العالم ، مع هذا ، يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع مرة أخرى ، ومن الصعب أن يخطط المرء على أساس حادثة استثنائية وفريدة) .

ويحاول الصهاينة تقديم قراءة كاملة لما يسمونه «التاريخ اليهودي» بحيث تصبح الإبادة أهم معلم فيه ، فيُقال «قبل الإبادة» و«بعد الإبادة» ، تماماً مثل «قبل هدم الهيكل» و«بعد هدم الهيكل» . ويُشار للإبادة بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل» . والإبادة هي إذن هدم الهيكل للمرة الثالثة ، الأمر الذي يدخلها دورة التاريخ اليهودي المقدَّس . بل ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود إلى أن الإبادة غيَّرت من النسق الديني اليهودي ذاته . ولذا ، فإن من الضروري ، حسب رأيهم ، الحديث عن «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، أو «لاهوت الإبادة» الذي يرى حادثة الإبادة باعتبارها حادثة مطلقة لا يمكن فهمها ، وهي أكثر الحوادث أهمية وقداسة ، ويصبح الشعب اليهودي هو المسيح المصلوب . وينادي هؤلاء المفكرون بحتمية أن تصبح الإبادة هي المرجعية الأساسية لليهود ، ومن ثم ضرورة مناقشة مدى عدالة الرب ، وهل هو رب خيِّر أم شرير ، وهل يتدخل في التاريخ بمنحه الغرض والغاية أم يترك التاريخ في حالة فوضى كاملة ؟ كما أن البقاء (بقاء الشعب اليهودي) يصبح هو المطلق الوحيد الذي يَجُبُّ سائر الاعتبارات الأخلاقية الأخرى ويصبح النقطة المرجعية النهائية الوحيدة . ويساعد التركيب الجيولوجي لليهودية على السماح بإفراز مثل هذه الأفكار وإعطائها قسطاً من الشرعية . (ومما يجدر ذكره أن الجماعات الأصولية ذات التوجه الصهيوني المسيحي الواضح ترى أن الإبادة هي بالفعل دليل على أن الرب قد هجر اليهود بسبب الذنوب التي اقترفوها) .

ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود (الأرثوذكس) إلى أن الإبادة ذات مغزى ديني عميق ، فيرى بعضهم أن إبادة اليهود هي هدم الهيكل الثالث وأن هتلر هو أداة الخالق في حرق اليهود ، كما يذهبون إلى أنهم بمثابة الماشيَّح المذبوح الذي سيولد العالم من جديد بعد ذبحه . (ولكن هناك رأي مغاير لهذا، إذ يذهب بعض الحاخامات [مثل مناحم هارتوم وإليعازر شاخ ، الأب الروحي لحزبي شاس و ديجيل هاتورا] إلى أن الإبادة لها حقًّا مغزى ديني ولكنها عقاب على خطيئة اليهود لابتعادهم عن تنفيذ الأوامر والنواهي ، وسوف يقوم الإله بتدميرهم مرة أخرى إن لم يندموا ويعودوا عن طريق المعصية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الإستراتيجية الصهيونية ، فقد أشار كل من أبا إيبان ورابين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس» . وهناك قدر كبير من الادعاء في هذه التشبيهات وصل إلى قمته حينما قال مناحيم بيجين إن ياسر عرفات حينما كان مُحاصَراً في بيروت يشبه هتلر في مخبئه ، فالقائد الفلسطيني المحاصر والذي اغتُصبت أرض شعبه يشبه القائد النازي المُحاصَر الذي جيَّش جيوشه وأرسلها إلى الشعوب المجاورة ليستولي على أراضيها ويستعبدهم أو يبيد أعداداً منهم. وفي هذا تزييف كامل للحقائق ، ولكن هذه هي عقلية العنصري الفاشي الذي يرى أنه عضو في الشعب المختار ، ولذا فهو دائماً مضطهد ، حتى حينما يقوم بتدمير الآخرين .

وقد نجح الصهاينة فى ترسيخ واقعة الإبادة النازية ليهود أوربا فى وجدان الأغلبية العظمى من الإسرائيليين . فالصحف لا تكف عن الكتابة عنها ، وهناك يوم محدَّد لإحياء ذكرى الإبادة يُسمَّى «يوم الذكرى (يوم هازكرون)» ويقع في يوم ٤ ايار ، أي قبل عيد الاستقلال والذي يقع في يوم ٥ آيار (وهو اليوم الذي يحتفل فيه المستوطنون بإنشاء الدولة الصهيونية على أرض فلسطين بعد طرد سكانها منها) . ويبدأ اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق فتُنكس الأعلام ، وتُغلق دور اللهو بأمر القانون ، وتُقام الصلوات في المعابد اليهودية وتُوقد الشموع فيها ، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتين حداداً يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها . ثم تُطلق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال . ويُتلى في الصلوات التي تُقام في ذلك اليوم المزمور ١٤٤ الذي يقول : « مبارك الرب صخرتي الذي يُعلِّم يدي القتال وأصابعي الحرب » . وقد لاحَظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي يشياهو لابيوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم . بل وتؤكد بعض الأبحاث الإسرائيلية أن شبح الكارثة لا يزال منعكساً وجاثماً على عقل الإسرائيليين من الجيل الثاني . ويرى واحد وستون بالمائة من الإسرائيليين أن الكارثة كانت عنصراً أساسيًا من عناصر قيام الدولة الإسرائيلية والمسوغ الأساسي له . ويعتقد اثنان وستون بالمائة أن قيام الدولة الإسرائيلية يمنع حدوث كارثة مماثلة في المستقبل .

ومما لاشك فيه أن الإحساس بخطر الإبادة إحساس حقيقي تجذر فى الوجدان الإسرائيلى . ولكننا نذهب إلى أن أساسه الحقيقى ، ليس خطر الإبادة على يد النازيين ، وإنما هو الطبيعة الاستيطانية للتجمع الصهيوني الذي لم يضرب بجذوره في المنطقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية ، وبخاصة أن أصحاب الأرض الأصليين لم تتم إبادتهم ، بل ولم يكفوا عن المقاومة ، الأمر الذي يخلق عند الإسرائيليين ما نسميه «عقدة الشرعية» والخوف الدائم من عودة صاحب الأرض الذي يؤكد حضوره كذبهم (أرض بلا شعب) ، بل وقد يؤدي إلى غيابهم في نهاية الأمر . ولكن بدلاً من أن يواجه المستوطنون حقيقة وضعهم كمستوطنين ومغتصبين للأرض وبدلاً من أن يدركوا الأصل الحقيقي لمشاعرهم ومخاوفهم ، فإنهم يتجاهلونها ويفرضون عليها هذا التفسير الصهيوني . فالإدراك الحقيقي سيُفقدهم ثقتهم بأنفسهم وإحساسهم بشرعية وجودهم وأخلاقيته ، أما التفسير الصهيوني فسيسبغ عليهم المزيد من الشرعية وسيزيد إصرارهم على حقهم في البقاء وإبادة كل من يقف في طريق الضحية الوحيدة للمجازر ؛ المهددة دائماً وأبداً بالإبادة !

وقد لاحظ بعض التربويين أن هذا التركيز على فكرة الإبادة ، كفكرة رئيسية في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل ، يسبب لهم مشاكل نفسية عميقة ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة نفسية سوية ، وسط بلاد العالم أو بين أحد الشعوب ، وهو يعتقد أنهم قد يبيدونه تماماً في أية لحظة وأنه الضحية الوحيدة . ولذا ، بدأت ترتفع أصوات للتحذير من خطورة هذا الاتجاه . ولكن الصهيونية عقيدة تستند شرعيتها إلى الكوارث التي حاقت باليهود في الماضي والتي قد تحيق بهم في المستقبل ، ومن ثم ، فإن أية رؤية مركبة للتاريخ تسحب هذه الشرعية منها . وعلى هذا ، فليس من المتوقع أن يتغيَّر هذا الاتجاه في القريب .

احتكار الإبادة :

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب ، بحيث تُصوَّر الإبادة النازية باعتبارها جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم . ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية . كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال ، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم .

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، فعدد ضحايا الحرب العالمية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخمسين مليوناً . وأظهر معرض لحكومة بولندا كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازي كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئيًا وتوطين الألمان فيها .

وتوحي الأدبيات الصهيونية بأن العالم كله تجاهل اليهود وتركهم يلاقون حتفهم ومصيرهم وحدهم . ولكن من الواضح أن المسألة أكثر تركيباً من ذلك بكثير . فصحيح أن بعض الشعوب ساعدت النازيين ، كما حدث في النمسا ، ولكن البعض الآخر ساعد اليهود وآواهم كما حدث في بلغاريا (خصوصاً بين أعضاء الجماعة الإسلامية) وفي الدنمارك وفنلندا ورومانيا وإيطاليا وهولندا . وفي فرنسا ، تم تسليم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية ، ولكن تمت ، في الوقت نفسه ، حماية أضعاف هذا العدد . كما رفض السلطان محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك . ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفيتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون (رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر) . وتتجاهل التواريخ الصهيونية كل هذا ، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والزعامات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين .

ولكن هناك من يتحدى هذا الاحتكار الصهيوني للإبادة ، وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسةً . والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر ، وكانت يهودية . وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت وتكثلكت ثم ترهبنت ، وقام النازيون باعتقالها وقتلها . ويُصر الصهاينة على أن سبب قتلها هو كونها يهودية بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استُشهدت من أجل عقيدتها . والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس ، الذي طالب اليهود بإزالته وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا بالإبقاء عليه . وقد قامت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين . وكتب باتريك بيوكانان (الصحفي والمرشح الجمهوري في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦) ما نتصور أنه خير احتجاج على هذا الموقف في مقال بعنوان «الكاثوليك ليسوا بحاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق» جاء فيه :

« وفي متحف المذبحة النازية ، هناك ثلاثة ملايين يهودي بولندي سيظلون في الذاكرة ، ولكن ماذا عن ثلاثة ملايين تقريباً من الأوكرانيين والصرب والليتوانيين والمجريين واللاتفيين والإستونيين ، نُحروا في ساحات القتل على أيدي الوثنيين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العنصريين في برلين وعلى أيدي الملحدين المتعاونين معهم في موسكو ؟ وما الذي يتطلبه الأمر حتى يكون المرء ضحية من الدرجة الأولى ؟

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُلدت بنجمة داود ، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليكي الذين أفنُوا في أوشفتس بصليب ؟ وإذا كان التذكار حيويًا ، فلماذا يُستثنى المسيحيون ؟ » .

ونحن ، بطبيعة الحال ، نرى أن الإبادة لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، وإنما ضد سائر العناصر التي اعتُبرت ، من منظور النازية ، غير نافعة ، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعتبرها النازيون متدنية (مثل العرب) . ومن ثم ، فإن احتكار الصهاينة واقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي .

إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي :

«إنكار الإبادة» مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود ، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين ، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي . وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور :

١ـ كتب بول راسينيه Paul Rassinier في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان **أسطورة غرف الغاز** . وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال . وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها ، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة .

٢ ـ من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس Arthur Butz الأستاذ بجامعة نورث ويسترن **أكذوبة القرن العشرين** الذي يثير الشكوك بخصوص عملية الإبادة نفسها . ولا يزال البروفسير باتس يُدرِّس في الجامعة في الولايات المتحدة .

٣ ـ أصدر روبير فوريسون R. Faurisson (أستاذ الأدب في جامعة ليون) سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ تقدَّم هنري روكيه Henri Roques برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي» . وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز . ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة . ويُعد هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام .

٥ ـ أصدر ستاجليش Staglish ، أحد قضاة مدينة هامبورج ، كتاباً بعنوان **أسطورة أوشفيتس** . والكتاب هو رسالة الدكتوراه التى كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن ، وتوصل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود حول معسكر أوشفيتس تفيد أن ما هو شاع عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات . وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل . وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل . كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه .

٦ ـ يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج David Irving للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة **ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس The New York Review of Books** وصفته بأنه " يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل ، «وأشارت إلى كتابه عن **حرب هتلر** بأنه» أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب " . ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا ، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما . وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس .

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمى «قانون جيسو» (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تَبنَّى هذا القانون) . ويُحرِّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١ ، جاء فيها : " يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ ، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة ٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥ " .

وقد يظن المرء أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل : هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ؟ وعدد الضحايا اليهود ، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير ؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية . وقد يظن المرء كذلك أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسات السابقة هي دراسات عنصرية تآمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم . ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فهي دراسات علمية ، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية . وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير) ، إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات . ومما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين ، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لا تدلل على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة .

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الكتب بشدة ، العلمي منها وغير العلمي ، ويشجبها بعصبية واضحة ، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية ، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين ، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبِّرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة مليون . ولعله كان من الأجدى أن يميِّز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية ، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لنتبيَّن مدى صحة هذه الأطروحات . وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة . ولعل حالة ديمانجوك الذي اتُهم بأنه « إيفان الرهيب » ، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تربلينكا ، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها . فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والإسرائيليون تبيِّن أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب ، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل . ولكن، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، ظهرت وثائق تبيِّن بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأُفرج عن ديمانجوك .

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين ، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية . ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك . فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي ، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي، الحضاري والسياسي الحديث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ بالنسبة للمسئول عن الجريمة : تُخضَع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود .

ب) يتم توسيع نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق ، أو جريمة كلٍّ من الألمان والأغيار ، أو الألمان باعتبارهم أغياراً ، أو الألمان بموافقة ومالأة الأغيار .

٢ ـ بالنسبة للضحية : تُخضَع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم ، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهم) .

ب) يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود، كل اليهود، لا يهود العالم الغربي وحسب .

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة ، وبعد أن تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب ، قام الغرب بأيقنة الإبادة ، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها ، فهي مصدر المعنى النهائي . وكما قال دان داينر إن أوشفيتس هي أرض لا يمتلكها أحد ، هي فراغ يبتلع كل التفسيرات التاريخية (فهو يشبه الثقوب السوداء التي تتحطم فيها قوانين الضوء والزمان) . فأوشفتس هو «المعيار المطلق الذي يُحكَم من خلاله على التاريخ ، ولا يمكن أن يصبح هو نفسه جزءاً من التاريخ » ، وهو كلام لا معنى له بطبيعة الحال ، فأوشفتس حدث تاريخي ، وقع في الزمان ، ولا يصلح أن يكون معياراً أخلاقياً أو تاريخياً يُحكم به على كل الأمور الإنسانية في كل زمان ومكان (ألا يشكل هذا قمة التمركز الأوربي حول الذات [بالإنجليزية : إيورو سنترستي Euro-Centricity]) . ولكن مثل هذا الكلام الأجوف له معنى داخل الخطاب الحضاري الغربي بسبب عملية الأيقنة التي أشرنا لها (وتجدر ملاحظة أن الأيقنة ليست مقصورة على المفكرين اليهود وإنما تشمل أعداداً كبيرة من غير اليهود) . فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات ، التي تُشكِّل فَهْم الإنسان الغربي المسبق ، شأنها في هذا شأن مقولة " عبء الرجل الأبيض " في القرن التاسع عشر ، وشأن إحساس الغرب بمركزيته في القرن العشرين أو الإيمان بالتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض . والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج ، فهي التي تحدد حلاله وحرامه ، وما هو مقدَّس وما هو مدنَّس . ومن ثم أصبح التساؤل بشأن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإبادة هو تساؤل بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات ، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة ، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله .

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرِّض بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم سكورسيزي Scorsese « الإغواء الأخير للمسيح » ، وأعمالاً فنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو Andre Serrano الشهيرة بعنوان « فلتتبول على المسيح» (Piss Christ) حيث وَضَع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول ، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله ، إن كانوا يفعلون ذلك فلمَ لا يقبلون فتح ملفات الإبادة ؟ والرد على هذا هو أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدَّسات ، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك . وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي ، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها ، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف ، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً ، وبالتدريج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية) ، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه والتي يمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن . وبذلك تَحوَّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متبلوراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكتراثها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية) . وأصبح تَقَبُّل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية ، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل و "أصوليته " .

لكل هذا أصبح من الممكن ، داخل الخطاب الحضاري الغربي ، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة . وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفائيل ، فهو يربط بين الشذوذ الجنسي والهولوكوست ، فبطل إحدى رواياته يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته : هويته اليهودية ، وهويته كشاذ جنسي ، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست . فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه . ومنذ عدة سنوات أُقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل ، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسيًا والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي . ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدمنا ، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدَّس وما هو مدنَّس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة ، والهولوكوست أيقونة مقدَّسة والشذوذ أمر عادي ، بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمر محبب ، ومن يدري لعله أصبح أمراً له " قداسته " الخاصة ، ونحن لا نعرف بعد ، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية ؟

ولنا الآن أن نطرح السؤال التالي : لمَ تم تحويل الإبادة إلى أيقونة مقدَّسة ، ومُسلَّمة نهائية ؟ والإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات إلى عالم محفوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضاري والنماذج الحضارية . ولذا سنحاول أن نقدح زناد الفكر وأن نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقيني عال . وسوف نعمد بدايةً إلى استبعاد الصيغة العربية الجاهزة للإجابة على كل الأسئلة ، أي «اللوبي الصهيوني» أو «المؤامرة اليهودية» أو «النفوذ اليهودي» وغير ذلك من مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تُفسِّر كل شيء ببساطة بالغة ، وما يُفسِّر كل شيء بهذه البساطة لا يُفسِّر شيئاً على الإطلاق !

ونحن نذهب إلى أن ثمة خطاباً غربيًا واحداً بخصوص الإبادة ، يتفرع عنه الخطاب الصهيوني ، وهو خطاب لا يختلف عن الخطاب الغربي العام إلا في التفاصيل ، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة ، وعلاقة الواحد بالآخر هي علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع . وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيوني في تعميق الجوانب اليهودية وفي إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة . فالخطاب الصهيوني ينزع ، هو الآخر ، حادثة الإبادة من سياقها الحضاري والتاريخي الغربي ، ويتلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي ، فيُحول واقعة الإبادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها إلى جريمة ألمانية أو جريمة الأغيار ضد اليهود . ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقاً من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التي تسبغ القداسة على اليهود) يُعمِّق عملية التخصيص فتتحوَّل الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني ، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل ، وإلى نقطة نهائية ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ . والاختلاف هنا هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع ، إذ تظل هناك وحدة أساسية ، ولذا لا يجوز في الخطاب السياسي الغربي والصهيوني تشبيه إبادة أية أقلية بإبادة اليهود .

ويمكننا الآن أن ندرج بعض الأبعاد التي أدَّت إلى أيقنة الإبادة :

١ ـ يعيش الغرب في إطار أن الإبادة جريمة ألمانية نازية وحسب ضد اليهود وحدهم ، وليست حلقة في سلسلة الجرائم الإبادية التي ارتكبتها الحضارة الغربية ضد شعوب العالم والتى تنبع من رؤيتها النفعية المادية الإمبريالية المتجردة من القيمة . وقد استقر هذا المفهوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصبح إطاراً مرجعياً ينظر الإنسان الغربي إلى نفسه وإلى تاريخه من خلاله . وعملية الأيقنة تفصل هذه الجريمة عن نمط حضاري عام متكرر ولا تُذكِّر هذه الحضارة بماضيها الإبادي ، كما تعفيها من مسئولية الجريمة النازية ذاتها .

ورغم أن الإبادة هي إحدى ثمرات النازية والعلم المنفصل عن القيمة ، فإن عملية أيقنة الإبادة تصاحبها عملية أخرى ، وهي عملية تهميش النازية ومنظومتها القيمية ورؤيتها للكون بحيث تصبح النازية وجرائمها مجرد انحراف عن الحضارة الغربية . والتخلي عن هذا الإطار (الذى يأيقن الإبادة ويهمش النازية) سيكشف فضيحة الحضارة الغربية ومسئوليتها عن هذه الجريمة البشعة المنظمة وعن غيرها من الجرائم .

وفي هذه الإطار يمكن فهم الحرج الزائد الذي يسببه اكتشاف تورط كثير من الشخصيات الفكرية الأساسية في الحضارة الغربية (مثل هايدجر) مع النازيين، ومحاولة إخفاء هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق (مثل تلكؤ ايزنهاور فى ضرب القطارات التى كانت تقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال والسخرة ، ورفض الدول الغربية فتح أبوابها للمهاجرين اليهود) . فإبراز تورط هايدجر قد يشير إلى تورط الحضارة بأسرها وقد يقوض المعنى الغربي المفروض على الإبادة .

ولتوضيح هذه القضية سنشير إلى واقعة دالة للغاية . ففى عام ١٩٨٨ ، نشرت مجلة القوات المسلحة فى ألمانيا الغربية مقالا كتبه راينر راينهادت ، وهو مسئول كبير فى بافاريا ، وردت فيه العبارة التالية : « وهذا يثير السؤال الأساسى عما إذا كان الاقتصاد كمبدأ رسمى ، فى ظل سلطة مكدسة لخدمة الخير العام ، يمكن تطبيقه على صعيد عالمى . فإذا نظرنا إليه من وجهة نظر أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن استخدام الغاز السام لإبادة اليهود بصورة جماعية ، بدلا من الاعدامات الفردية ، كان يشكل فى هذه الحالة انتصارا للمبادىء الإقتصادية » . وكاتب المقال ، لم ينكر الإبادة وإنما بيّن الإطار النفعى المادى الذى تمت داخله ، ومع هذا قامت الدنيا وثار الجميع ضده . وقد وصف أحدهم مقاله بأنه «ذو ذوق سيىء»وعقلية معادية للديمقراطية و «مستهتر»، ولم يستخدم أحد كلمة «غير أخلاقى» مثلا ، ولم يبين أحد كيف يمكن إتهام شخص يدعو إلى اتخاذ موقف عملى متحرد من القيم المسبقة وإلى اتباع المبادىء الاقتصادية المجردة بالعداء للديموقراطية وللإستهتار .

٢ ـ لا يمكن إنكار الدور الذي يلعبه شعور الغربيين بالذنب تجاه ما حدث لليهود على يد النازيين . ولكن الإحساس بالذنب هنا يوجه نحو الأيقونة (الفريدة التي تشير إلى ذاتها) ومن ثم يتحول من إحساس خُلقي عميق ورغبة في إقامة العدل إلى حالة شعورية تدغدغ الأعصاب بل وإلى مصدر راحة ، إذ يمكن للإنسان الغربي أن يهنىء نفسه بأنه لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يزال يمارس مثل هذه المشاعر النبيلة. وبدلاً من أن يحفز الشعور بالذنب الإنسانَ الغربي إلى التصدي لما يجري في العالم من عمليات إبادة (تقوم بها حكوماته أو تقف موقف " الحياد " تجاهها) فإنه يتجه نحو تأكيد تفرد الهولوكوست والمبالغة في أهوالها ، وبالتالي يتحول الحس الخُلقي إلى حس جمالي أو حالة شعورية لا تُترجم نفسها أبداً إلى فعل فاضل ؛ إلى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وأيقنة الإبادة بذلك تغطي على ما يجري من مذابح سواء في فيتنام أو البوسنة والهرسك أو الشيشان أو لبنان .

٣ ـ لكن الفضيحة الأساسية التي تغطيها عملية أيقنة الإبادة النازية هي الجريمة التي ارتكبتها الحضارة الغربية في حق الشعب الفلسطيني الذي طُرد من أرضه بموجب وعد بلفور وقرار هيئة الأمم المتحدة وبدعم كل الدول الغربية . فإذا كانت الجريمة هي حقاً جريمة الألمان على وجه الخصوص أو الأغيار على وجه العموم ، وضد اليهود على وجه العموم وضد اليهود وحدهم كما يدَّعي الخطاب الحضاري الغربي ، فلابد إذن من حلها على مستوى عالمي وألماني ، ولابد من تعويض الضحايا اليهود وحسب وإهمال الضحايا الآخرين . ومن ثم ، يصبح من المنطقي أخذ (لا اغتصاب) فلسطين من « الأغيار » وردها «لليهود » بسبب الجرم الذي حاق بهم على يد هؤلاء الأغيار . كما يمكن أخذ التعويضات من الألمان وتمويل المستوطن الصهيوني باعتباره المأوى الذي «عاد» إليه ضحايا الإبادة . وإذا كانت الإبادة هي حقاً جريمة موجهة ضد اليهود وحسب ، فإن المتحدثين اليهود هم وحدهم أصحاب الحق في فرض المعنى الذي يريدونه على الواقعة ، وهم وحدهم أصحاب الحق في التعويض.

٤ ـ ترتكز المنظومة الغربية التحديثية بأسرها إلى العلم المنفصل عن القيمة وعن الغائية الإنسانية . ورغم الإدراك المتزايد لوحشية هذا الافتراض ، فإنه لا يزال هو المقولة المعرفية الحاكمة . وفتح باب الاجتهاد بخصوص الإبادة يعني في واقع الأمر فتح باب الاجتهاد حول الأساس الفلسفي الذي تستند إليه الحداثة الغربية بأسرها .

٥ ـ ويمكننا الآن أن نثير قضية ليست ذات علاقة مباشرة بالإبادة ، إلا أنها قد تلقي الضوء على عملية أيقنتها . فالمجتمعات الغربية مجتمعات تسيطر عليها العلمانية الشاملة ، وتسود فيها النسبية المعرفية والأخلاقية ، ولذا فهي تعيش بلا مقدَّسات أو ميتافيزيقا ، وهو أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر . إذ يبدو أن حياة الإنسان لابد أن يكون فيها شيء مقدَّس ما ، فإن لم يكن الإله فيمكن أن يكون أي شيء ، وكل شيء . وما حدث بالنسبة للإنسان الغربي أنه فقد إيمانه بمقدساته الدينية التقليدية ، فأخذ يبحث عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدسات مادية حديثة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة) وبوسعه أن يُقسِّم العالم من خلالها إلى مقدَّس ومدنَّس ، وإلى محرَّم ومباح . إن الإنسان الغربي دائب البحث عن ميتافيزيقا علمانية مادية ، تريحه نفسياً ولا تُحمِّله أية أعباء أخلاقية (مثل الإيمان بالأطباق الطائرة أو علاقة الأبراج بمصير الإنسان وسلوكه) . ويبدو أنه وجد ضالته في الإبادة النازية لليهود التي تولِّد فيه إحساساً لذيذاً بالذنب ، لا يكلفه أي جهد أخلاقي . وقد تحولت الإبادة إلى أيقونة تجسد ميتافيزيقا كاملة من خلال علمنة المفاهيم الدينية المسيحية ، إذ أصبح اليهود (في لاهوت موت الإله وفي الخطاب الحضاري الغربي ككل) هم المسيح المصلوب وأصبح ظهور الدولة اليهودية هو قيامه . والصلب والقيام هنا أمران ماديان يتمان داخل الزمان والتاريخ . فكأن الإبادة النازية لليهود هي الأيقونة العلمانية الشاملة المقدَّسة في الوجدان الغربي ، فهي مفهوم قبلي بُنيت عليها مجموعة من المفاهيم الأخرى ، فإن سقطت الأيقونة سقط كل ما بُني عليها وأصبح من الضروري مراجعة كل شيء ، وهو أمر صعب للغاية على البشر .

وهذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار أهمية البُعد الصهيوني للاستجابة الغربية الهستيرية .

١ ـ لا يمكن إنكار وجود قدر كبير من الضغط الذي تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفي والمعلوماتي القائم ، الذي يُحقق لها فوائد جمّة . كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تقاضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى وممن لا يزالون يطالبون بها ، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من « جماعة مصالح » تحوَّلت إلى جماعة ضغط . وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث .

٢ ـ أصبح الخطاب الصهيوني يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية ، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة . والشرعية عادةً لا تستند إلا إلى مطلقات ، لا يمكن إخضاعها للتساؤل .

ويميل كاتب هذه الدراسة إلى القول بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لا شك فيها ، وأن أفران الغاز هي الأخرى حقيقة (ومن ثم لا يمكن إنكار الإبادة باعتبارها تصفية جسدية متعمدة) . ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظل كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمي والوثائقي بل وتتطلبها ، فهي موضوعات خلافية . وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض في أن يُضخمها أو يُقلل من أهميتها . فإذا كان الحياد الكامل مستحيلاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في مثل هذه الأمور (كما في غيرها) ، فلابد ، على الأقل ، أن ننفصل إلى حدٍّ ما عن الظاهرة موضع الدراسة ونُعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب بإتاحة كل الوثائق السرية ، خصوصاً وأن الموضوع أصبح موضوعاً تاريخيًا مر عليه أكثر من خمسين عاماً .

إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي :

تزعم الأدبيات الصهيونية أنه في ٢٠ يناير ١٩٤٢ عُقد مؤتمر يُسمَّى «مؤتمر فانسي» بهدف التنسيق بين الوزارات المختلفة التي اشتركت هي والحزب النازي وقوات الإس . إس . في محاولة تنفيذ الحل النهائي ، باعتباره التصفية الجسدية لليهود . ويُقال إن رينهارد هايدريش دعي إلى هذا المؤتمر بناء على خطاب من هرمان جورنج بتاريخ ٣١ يوليه ١٩٤١ ، وأشار إلى « الحل الكامل للمسألة اليهودية » . وقد أعد أيخمان الإحصاءات والبيانات اللازمة لمناقشة الموضوع . وحضر المؤتمر كبار موظفي الدولة والحزب وناقشوا كيفية تهجير اليهود وإرسالهم إلى معتقلات العمل والسخرة .

وعبارة «الحل الكامل» هي صيغة أخرى لعبارة «الحل النهائي» (بالألمانية : إندلوسونج Endlosung) التي ترد في بعض الأدبيات النازية ، وتعني في الأدبيات الغربية التي تتناول الحركة النازية «المخطط الواعي الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود» ، أي بمعنى تصفيتهم جسدياً . والمفترض أن هذا المخطط تم تنفيذه من خلال المؤسسات الحكومية النازية . (وهذا المعنى خلافي كما سنبين فيما بعد) .

ويمكن القول بأن مقولة «الحل النهائي» ، مثلها مثل مقولة «نهاية التاريخ» ، كامنة في بنية الأيديولوجيا النازية ، وفي كثير من الأيديولوجيات الأخرى الشبيهة التي تعتمد العلم الطبيعي مصدراً أساسياً وربما وحيداً للمعرفة والقيم الأخلاقية . فهذه الأيديولوجيات تؤمن بإمكانية ، أو حتى بحتمية ، التقدم الدائم من خلال تراكم المعرفة حتى تتم معرفة قوانين الحركة أو قوانين الضرورة أو القوانين الطبيعية (التي تسري على الطبيعة والإنسان) . ومن خلال هذه المعرفة الكاملة أو شبه الكاملة ، يمكن ترشيد الواقع تماماً والهيمنة عليه ووضع الحلول النهائية لكل المشاكل وإعلان «نهاية التاريخ» (كما فعل فوكوياما في الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات) . والنازية ، من هذا المنظور ، ما هي إلا إحدى هذه الأيديولوجيات . ومن ثم ، فحتى لو لم يعلن النازيون الحل النهائي ، فإن الفكرة كامنة في بنية الفكر الغربي والنازي . وعلى كل ، لا يمكن فهم التجارب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاستيطانية الإحلالية ، سواء في الولايات المتحدة أو في أستراليا أو فلسطين ، إلا في إطار فكرة الحل النهائي الذي يُطبَّق على السكان الأصليين ، هنوداً كانوا أم فلسطينيين ، ويمكن إنجاز الحل النهائي إما عن طريق الإبادة أو عن طريق التهجير . ووعد بلفور وثيقة سياسية تهدف إلى وضع حل نهائي للمسألة اليهودية عن طريق التهجير . والمسألة الفلسطينية أو العربية ، من هذا المنظور ، هي نتيجة لعدم تطبيق الحل النهائي الصهيوني أو سببها الفشل في تطبيق هذا الحل حتى الآن . وقد عبَّر عن هذا المعنى صراحةً رحبعام زئيف (رئيس حزب موليديت) الذي انضم إلى الوزارة الإسرائيلية وطالب صراحةً بتهجير العرب ، فقد بيَّن بما لا يقبل الشك أن مقولة «الحل النهائي» مقولة أساسية في الفكر الصهيوني ، وتنتمي إلى عائلة من الأيديولوجيات الغربية الحديثة التي تبحث عن حل جذري ونهائي ومنهجي لمشكلتها السكانية كما فعل المستوطنون الأمريكيون من قبل ، وكما فعل النازيون في ألمانيا ، وكما يفعل الصرب في البوسنة والهرسك ، وكما يفعل المستوطنون الغربيون في كل زمان ومكان !

ويمكننا الآن أن نثير قضية ترادف عبارة «الحل النهائي» مع عبارة «الإبادة كتصفية جسدية» ، كما تزعم الأدبيات الصهيونية ، وهو ترادف ينكره رجاء جارودي ، وغيره من الدارسين ، للأسباب التالية :

١ ـ لوحظ عدم ورود لفظ «الإبادة كتصفية جسدية» مقروناً بعبارة «الحل النهائي» في أية مذكرة نازية . وقد بيَّن ريمون آرون وجاك فيوريت (عام ١٩٧٩) ـ في ختام مؤتمر عُقد خصيصاً لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالإبادة النازية ليهود أوربا ـ أنه لم يتم العثور على أية مذكرة تحمل هذا المعنى رغم كل الجهود المبذولة . وقد وافقهما المؤرخ الصهيوني النزعة وولتر لاكير على رأيهما هذا (عام ١٩٨١) ، ولذا أضاف أن مثل هذا الأمر لم يَصدُر قط .

٢ ـ يروج بعض الصهاينة فكرة مؤداها أنه لم يتم العثور على مثل هذه المذكرة لسبب بسيط وهو أن النازيين كانوا يستخدمون لغة مُشفَّرة أو رمزية حتى لا يكتشف أحد أمرهم . والرد على مثل هذا الرأي ـ كما بين جارودى ـ هو الإشارة إلى عدد لا حصر له من الوثائق النازية تضم أوامر صريحة بإبادة السكان الذكور في ستالينجراد (على سبيل المثال) وقتل الجنود البريطانيين الذين يتم أسرهم أثناء تأديتهم بعض العمليات الخاصة (الكوماندوز) ، وقتل المسنين بالوسائل العلمية . فلماذا يُشفِّر النازيون الأوامر الخاصة بإبادة اليهود وحدهم ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ حينما يذكر النازيون الإبادة فهي بديل ضمن بدائل عديدة ، كما أنها تتم بعدة طرق. وقد قسَّم مؤتمر فانسي طريقة التخلص من العناصر غير الاجتماعية غير المرغوب فيها من خلال أربعة طرق مختلفة : التعقيم أو الإبادة بالجوع أو الإبادة بالعمل أو حتى من خلال برنامج الألمنة .

٤ ـ كان النازيون يتحركون في إطار الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية وهو تصديرها للخارج . وقد بيَّن هتلر أنه يميِّز بين معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المنهجية ، فالأولى تنتهي بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بتهجير (ترانسفير) اليهود . وقد حدد هتلر مشروعه بالنسبة لليهود باعتباره عملية تهجير . وفي رده على سؤال وُجه إليه في اجتماع عام بشأن حقوق اليهود الإنسانية ، قال : « ليبحث اليهودي عن حقوقه الإنسانية في دولته فلسطين » .

وفي ١٠ أغسطس ١٩٤١ دافع هتلر عن الحل الشامل للمسألة اليهودية باعتباره نقل ٦٠٠ ألف من أراضي الرايخ . وكانت مجلة **الإس . إس** . قد استخدمت العبارة نفسها بهذا المعنى في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر ١٩٣٨ حين تحدثت عن الحل الشامل باعتباره « الفصل والعزل الكلي لليهود » .

٥ ـ طبَّق النازيون هذه الرؤية الإمبريالية (الصهيونية) على اليهود ، ولذا بدأ الحل النهائي بتهجير اليهود من أصل بولندي إلى بولندا ، ولكن الحدود أُوصدت دونهم . ثم طرح النازيون مشاريع صهيونية عديدة تهدف إلى توطين اليهود وتأسيس وطن قومي لهم في أي مكان خارج أوربا (أكوادور – سوريا – مدغشقر) .

وقد تعاون النازيون مع الصهاينة انطلاقاً من قبول هذا الحل الصهيوني النازي للمسألة اليهودية فتم توقيع معاهدة الهعفراة للمساعدة في تهجير اليهود إلى فلسطين . وحقق النازيون بعض النجاح في هذا المضمار إذ بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وحدها حوالي ١٥٠ ألف (بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨) وهي نسبة مئوية عالية . وظل النازيون يدافعون عن فكرة تهجير اليهود ، وكانوا لا يكفون عن الشكوى من أن سيل الهجرة لم يكن سريعاً بقدر كاف ، ومن أن الدول الغربية توصد أبوابها في وجه المهاجرين اليهود .

وفي السنين الأخيرة للحرب ، بعد مؤتمر فانسي (يناير ١٩٤٢) وبعد وقوع مساحات شاسعة من الأرض السوفيتية البولندية في أيدي النازيين ، بدأت فكرة توطين اليهود فيها تراود النازيين (« ترحيل اليهود إلى الشرق » في المصطلح النازي) . وقد جاء في مذكرة رسمية بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ صادرة من وزارة الخارجية الألمانية ما يلي : « إن الحرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضد الاتحاد السوفيتي وفرت لنا أراض جديدة لتنفيذ الحل النهائي . وقد قرر الفوهرر أنه بدلاً من إرسال اليهود إلى مدغشقر فسيقوم بإرسالهم إلى الشرق . ولذا ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في مدغشقر باعتبارها [مجال] الحل النهائي » .

وكل هذا يعني في واقع الأمر أن الحل النهائي هو حل صهيوني إقليمي، يعني التخلص من اليهود عن طريق ترحيلهم (ترانسفير) من مكان لآخر ، تماماً كما فعلت الحضارة الغربية مع اليهود حيث نقلتهم إلى فلسطين ، وكما فعل الصهاينة مع الفلسطينيين بنقلهم منها .

٦ ـ كان النازيون في حاجة ماسة للأيدي العاملة ، فلماذا تُضيِّع آلة الحرب النازية وقتها في إبادة الملايين بدلاً من توظيفهم في أعمال السخرة ؟ ومن الواضح أن النازيين كانوا أكثر رشداً ونفعية مما يتصوره الدارسون الصهاينة . فكانوا يزيدون من عدد العمال الذين يعملون نظير دولار واحد في اليوم للاستفادة من العمالة الرخيصة . وقد أرسل هملر مذكرة إلى أحد رؤساء معسكرات الإبادة (بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٤٢) يخبره فيها أن يستعد لاستقبال ٢٠٠ ألف يهودي حيث ستُسند للمعسكر مهام اقتصادية مهمة . وفي مايو ١٩٤٤ أصدر هتلر أمراً باستخدام ٢٠٠ ألف يهودي كعمال في أحد المشاريع الإنسانية . وقد أصدرت قيادة الإس . إس S. S. أمراً بمنح مكافأة لكل السجناء (ومنهم اليهود) الذين أبلوا بلاءً حسناً في العمل . كما وفرت المؤسسات النازية لهؤلاء العاملين كل الأنشطة الترفيهية ، وضمنها بيت دعارة، لزيادة الإنتاجية .

٧ ـ حينما يرد لفظ «الإبادة» في نصوص نازية فإنه لم يكن يعني دائماً «التصفية الجسدية» ، ففي ٢٦ مارس ١٩٤١ في حفل افتتاح معهد فرانكفورت لدراسة المسألة اليهودية أشار أحد المتحدثين إلى الإبادة (بالألمانية : فولكشتود Volkstod) باعتبارها الحل الشامل للمسألة اليهودية وعُرِّف هذا الحل بأنه « أن يترك اليهود أوربا » . وقد أفاض المتحدث وقال إنه يمكن أن يترك اليهود أوربا عن طريق وضعهم في معسكرات عمل في بولندا (حيث يتم إفقارهم) أو في مستعمرة . ولعل تجربتي جيتو وارسو وتيرس آينشتات (وغيرهما من التجارب) قد تمتا في هذا الإطار .

٨ ـ لوحظ أثناء محاكمات نورمبرج أن المدعين الذين مثَّلوا الحلفاء كانوا يحاولون قصارى جهدهم أن يلووا عنق بعض الكلمات الألمانية ليترجموها بكلمة «إبادة» . فكلمة «أوسروتونج Ausrottung» على سبيل المثال ، والتي تعني «استئصال شأفة» شيء ما بأية طريقة فعلية أو مجازية تُرجمت إلى «إبادة» بمعنى «تصفية جسدية متعمدة» ، مع أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النازيين استخدموا في إحدى وثائقهم عبارة «استئصال شأفة المسيحية» ، ولم يُفسِّر أحد هذه العبارة باعتبارها مخططاً نازياً لإبادة المسيحيين .

٩ ـ ما تهمله كثير من الدراسات الغربية هو ما يمكن تسميته «الاختفاء» ، أي اختفاء أعداد كبيرة من اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط والموت بسبب الغارات والأوبئة أثناء الحرب .

لكل هذا فعبارة «الحل النهائي» تعني ما تقول دون زيادة أو نقصان ، ومن ثم فهي لا تعني بالضرورة «تصفية جسدية مُتعمَّدة» ، وقد تعني «تصفية من خلال التهجير وأعمال السخرة» .

معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) :

أُقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم ، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات . وحين عظم نفوذ الجستابو وأُعطي الحرية المطلقة في التصرف ، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع ، فقُبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال . ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات ، وإنما كان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته . وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوخنوالد . ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى ، معسكر برجن بلسن .

وقد أُقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا ، وهذه المعسكرات هي :

١ ـ كلمنو (بالقرب من لودز) .

٢ ـ بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين) .

٣ ـ سوبيبور (بالقرب من لوبلين) .

٤ ـ مايدانيك (على حدود لوبلين) .

٥ ـ تربلينكا .

٦ ـ أوشفيتس ـ بيركناو ، وهو أشهرها جميعاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أُرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم ، من كل أنحاء أوربا . ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران ، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز ، والمحارق . ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن .

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي .Zyclon B في أفران الغاز . إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية ، مكلفة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً - لابد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها - يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون) . ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب ، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع . وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report ، الذي كان ، مستشاراً لولاية ميسوري ، وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما له دلالته أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة ، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين ، قررت الاستغناء عنه ، بسبب تكلفته العالية) .

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر . أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الذين لقوا حتفهم بعد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود ، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظروف الحرب وفقر الرعاية الصحية . ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصودة تمت دفعة واحدة ، وإنما تمت نتيجةً لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها ، وأن من أُبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعداد صغيرة للغاية ، وهي قضية خلافية . ويُقال إن كثيرين ممن أُبيدوا بطريقة منظمة لم تكن إبادتهم بدافع الحقد العنصري وإنما كانت جزءاً من محاربة النازيين للمرض وللتشوهات والانحرافات النفسية والخلقية . ولذا حينما كان يندلع وباء في أحد المعسكرات لم يكن النازيون يلجأون لمحاربته (فهذا أمر مكلف ، بخاصة في ظروف الحرب) وإنما كانوا يلجأون للتخلص من المرضى بطريقة عملية سريعة .

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدم لتحقيق أهدافه القومية ، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود . ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سياقها الحضاري والمعرفي العام . فمنذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبادة نمطاً متكرراً ، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلَق على كل واحد منها اسم «ريزيرفيشن reservation» تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر . وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي . وكان السود ، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا ، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة . وفي الحرب العالمية الثانية ، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة . وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها «البانتوستان» . وغني عن القول أن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال ، التي كانت أساساً معسكرات سخرة ، ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدَم في أعمال السخرة . وقد أُسس بجوار أوشفيتس ، على سبيل المثال ، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد الكيماوية اللازمة للعمليات العسكرية . وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيالي تماماً) ، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) . كما أُختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم .

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية ، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات ، وتكون بمثابة حلقة الوصل بين المساجين والألمان . ويُطلَق عليهم اسم «كابو» ، وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال . وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان . ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعُامَل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبرون خونة .

واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنَّف بعناية وتُوظَّف على أحسن وجه . وقد حققت هذه المعسكرات عائداً كبيراً للاقتصاد الوطني الألماني . هذا ، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشكلون عبئاً على ألمانيا، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكترث بالمطلقات . وبالطبع ، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي ، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة .

ويُعد أوشفيتس أهم معسكرات الاعتقال . وكان يُقال دائماً إن عدد من أُبيدفيه هو أربعة ملايين ، منهم مليون ونصف مليون يهودي، والباقون غير يهود . والسند الأساسي لأسطورة إبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج . وقد ثبت أن كثيراً من " أدلة " الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان . وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها . وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على ١,٦ مليون، وأنهم قضوا حتفهم لا من خلال أفران الغاز وإنما بسبب الجوع والمرض، والموت أثناء التعذيب، والانتحار . وفي عام ١٩٩٤ تم تغيير اللافتة الموضوعة على المعسكر، فبعد أن كانت اللافتة القديمة تتحدث عن مقتل أربعة ملايين رجل وامرأة وطفل أصبحت اللافتة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس (في الخطاب السياسي والحضاري الغربي) رمزاً ودالاً على عدة مدلولات . فهو رمز مباشر على الإبادة النازية لليهود (بمعنى التصفية الجسدية المتعمدة) ، أي أنه الجزء الذي يتبدّى الكل من خلاله . كما أصبح معسكر أوشفيتس دالاً يشير إلى كل جرائم الإبادة التي تتم بشكل منهجي لا شخصي بيروقراطي (ولكن الصهاينة يرفضون استخدام الاسم على هذا النحو حتى يحتفظ معسكر أوشفيتس بقداسته اليهودية) . ويقول تيودور أدورنو (أحد مفكري مدرسة فرانكفورت) : « لا شعر بعد أوشفيتس» ، أي أن أى إنسان لا يمكنه أن يقرض الشعر بعد أن كشفت الإنسانية عن وجهها القبيح في أوشفيتس . وفي هذا تلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ولعله كان من الأجدر بأدورنو أن يتحدث عن حضارة العقلانية المادية ، بدلاً من الحديث العام ، العائم الغائم ، عن الإنسانية جمعاء . وهذا ما فعله فاكيلاف هافيل ، المؤلف المسرحي ورئيس جمهورية التشيك ، حينما تحدث عن كبرياء العقل المادي الحديث وغروره الذي يطور مخططات علمية مجردة يحاول فرضها على الحياة الإنسانية (بكل ما تحويه من أسرار لا يسبر لها غور) ويفرض عليها التجانس والتنميط وينتهي به الأمر إلى اختزالها وتدميرها . ثم قال : "وماذا يكون معسكر الاعتقال سوى محاولة من جانب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعاة اليوتوبيا [التكنولوجيا البيروقراطية] أن يتخلصوا من العناصر غير الملائمة [للمخطط التكنولوجي] ؟ " .

أما في التفكير الديني (المسيحي واليهودي) في الغرب ، فقد أصبح معسكر أوشفيتس رمزاً للعالم المادي الذي لا معنى له والذي لا هدف له ولا غاية ، فهو عالم انسحب منه الإله ، ولذا يُقال «لاهوت ما بعد أوشفيتس» بمعنى «لاهوت موت الإله» . ويذهب البعض إلى أن معسكر أوشفيتس أصبح مدلولاً (متجاوزاً) لا يمكن لأي دال أن يدل عليه . فالتجربة اليهودية في أوشفيتس لا يمكن فهمها أو تفسيرها وإنما يمكن تجربتها وحسب . ومن لم يعش التجربة لن يفهم ما حدث ، ومن ثم فإن كلمة «أوشفيتس» بمثابة الأيقونة حيث يلتحم الدال بالمدلول وتختفي المساحة بينهما ، وتصبح الأيقونة (الرمز) هي نفسها ما ترمز إليه . إن أوشفيتس تتجاوز اللغة الإنسانية ولذا " لا شعر بعد أوشفيتس " .

وفي استخدام مغاير تماماً للكلمة صرح ناحوم جولدمان بأن إسرائيل هي كارثة تاريخية كبرى ، تفوق ما حدث في أوشفيتس ، ومن ثم تحل الدولة الصهيونية محل أوشفيتس باعتبارها أكبر كارثة حاقت بالجماعات اليهودية في العالم .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس موضع جدل كبير في الوقت الحالي فقد أُقيم دير للراهبات الكرمليات في بقعة أباد فيها الألمان كثيراً من البولنديين اليهود وغير اليهود ، على أن تُقام الصلوات يوميًا من أجل الجميع . ولكن بعض القيادات اليهودية في الولايات المتحدة أصرت على ضرورة أن يُزال هذا الدير حتى تظل أوشفيتس رمزاً يهوديًا . وقد أذعنت القيادة الكاثوليكية في نهاية الأمر لهذا المطلب .

ستة ملايين من اليهود : عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربا ؟ :

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «ستة مليون» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود . وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البدهيات ، ولكن هناك رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية . فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه **تدمير يهود أوربا** (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة مليون (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع) . وذكر سيسيل روث ، في موسوعته اليهودية ، أن الهولوكوست نُفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام ، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي . ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي(صهيوني النزعة) هوارد ساخار إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجح الأخذ برأي ساخار ، فالكتاب السنوي **وولد ألمانك** لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون . وفي عام ١٩٥٠ ، قُدر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً ، في حين قدرته صحيفة **نيويورك تايمز** عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و١٨,٦ مليون، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك ، وقد يصل إلى ما بين ١٣ و١٤ مليوناً . وفي جميع الحالات ، لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين . ومؤخراً ، ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور ، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية ، أن الرقم ستة مليون لا أساس له من الصحة ، وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك . وبيَّنت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير G. Wellers أن إجمالي عدد من أُبيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب ، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز وحسب وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار. ومما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة مليون وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة (التي تتزايد بسبب ظروف الحرب) .

وبغض النظر عن الرقم مليون أو الأربعة أو الستة ملايين ، فإن ثمة خللاً أساسياً في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي :

١ ـ التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى . فمع أن اليهود عانوا ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية ، إلا أن سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضاً نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقلياً والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص . وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون ، وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشرة وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين ، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود . وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني .

٢ ـ التركيز على المدنيين دون العسكريين . ومع ذلك ، فإنه من بين العشرين مليون سوفيتي الذين قُتلوا في الحرب ، كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقون من العسكريين ، ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر للموت في ساحة القتال . كما كان هناك كثيرون من جنود الحلفاء ضمن من قُتلوا في الحرب . ويجب ألا ننسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جُندوا ، رغم أنفهم ، ليشتركوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة .

٣ ـ التركيز على الماضي دون الحاضر ، وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن ، دون اهتمام مماثل بالملايين التي أُبيدت بعد ذلك . فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص ، وفقدت الجزائر نحو مليون شخص ، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل ، فضلاً عن مليوني مهاجر داخل البلد وخمسة ملايين مهاجر إلى خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم .

٤ ـ وهناك ، بطبيعة الحال ، مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طُردوا من ديارهم والذين يخضعون لظروف إرهابية شبه دائمة .

لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (الستة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية ذاتها ، فالجريمة النازية هي إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهوين من شأنها . وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل ، بحيث نُحدد هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد قطاعات بشرية عديدة بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محدَّدة ضد اليهود كلهم ، وضد اليهود دون سواهم . ونحن بهذا ننقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني ، ولعبة الأرقام الطفولية التي تخبئ الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة .

اختفاء وموت الشعب اليهودي :

يروج المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة مليون ، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدَّسة . وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدَّت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة سنتناولها في هذا القسم .

فمن المعروف أن الفترة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ شهدت تَناقُص عدد يهود العالم مليوناً ، فانخفض من ١٣,٨٣٧,٥٠٠ إلى ١٢,٩٨٨,٦٠٠ ، دون حدوث إبادة بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودون حالة حرب أو أوبئة . وقد تناقص عددهم لمركب من الأسباب أدَّى إلى ما يُسمَّى «موت الشعب اليهودي» . ومن الواضح أن يهود أوربا ، أي أغلبية يهود العالم آنذاك ، بدأوا يدخلون في مرحلة التناقص ابتداءً من القرن العشرين ، للأسباب التالية :

١ ـ أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر :

أ ـ أدَّت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً ، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها .

ب ـ كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أي بأعمال التجارة والمال . وكانوا ، لهذا ، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية . ومع منتصف القرن التاسع عشر ، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية ، فقد كان ثلث يهود روسيا يوجدون في خمس مدن وبقيتهم تعيش في مدن صغيرة . وكان أربعة وثمانون في المائة من يهود الولايات المتحدة يعيشون في ثماني عشرة مدينة كبيرة ونصفهم في نيويورك . كما كان معظم يهود النمسا في فيينا ، ومعظم يهود فرنسا في باريس ، وهكذا . ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة .

جـ ـ كان اليهود ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، جماعة بشرية مهاجرة ، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم .

د ـ كانت هناك عناصر أخرى أدَّت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب ، من بينها تحسن مستواهم المعيشي ، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية ، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات ، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال .

وبالفعل ، يُلاحَظ تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية . فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثُر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر ، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام ١٩٢٦ . فبعد أن كانت ٣٥,٩ في الألف ، انخفضت إلى ٢٤,٨ في الألف . وفي بولندا ، انخفضت النسبة من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ في وارسو ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإلى ٦ , ١١ في الألف في لودز عام ١٩٢٥ . أما يهود المجر ، فقد انخفضت النسبة بينهم من ٩١ , ٣٣ في الألف في بداية القرن الحالي إلى ٥ , ١٠ في الألف ، أي أنها انخفضت نحو ٤ , ٢٣ في الألف . وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) ٢ , ٥ في الألف عام ١٩٣٥ و٢ في الألف في لندن عام ١٩٣٢ . وقد حدا هذا الوضع بالكُتّاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوربا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات . وعلى مستوى العالم ، كانت النسبة ٥ , ٣٥ في الألف في الفترة ١٨٢٢ - ١٨٤٠ ، انخفضت إلى ٧ , ١٩ في الألف في الفترة ١٨٩٨ - ١٩٠٢ ، ثم إلى ١ , ٩ في الألف عام ١٩٢٩ . كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عاماً (١٩٢٩ - ١٩٤٩) . وكان معدل نسبة المواليد في الفترة ١٩٠٦ - ١٩١٠ هو ٣٢ في الألف ، ونسبة الوفيات ١٥ في الألف ، والزيادة الطبيعية هي ١٧ في الألف . ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً ، ففي الفترة ١٩٢٦ - ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هي ٢١ في الألف والوفيات ١٢ في الألف ، والزيادة الطبيعية ٩ في الألف (انخفضت إلى ٨ في الألف عام ١٩٣٢) . ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ - ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب ، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه .

٢ ـ عوامل تؤدي إلى الاختفاء :

أ ـ ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو أمر جديد كل الجدة ، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك ، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية . لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكلٍ غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب . كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادةً من الذكور في سن الخصوبة .

ب ـ تزايد نسبة الزواج المختلط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوربية .

جـ ـ تَنصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج . وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي . كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية . وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د ـ ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي . فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي ، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يهودياً وعرَّف نفسه بأنه «روسي »أو «أوكراني » فإن الأمر متروك له . ومع تآكل الهوية اليهودية ، لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم .

وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان ، عشية الحرب العالمية الثانية ، إلى ما سماه «العملية ذات الأبعاد الثلاثة» (تناقص المواليد، وتزايد الوفيات ، وتزايد معدلات الاندماج) باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود .

٣ ـ ظروف الحرب العالمية الثانية :

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة ، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة . كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز ، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف ، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض . ويُقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة ، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام . (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة ، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع . ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا) . كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية ، وانتهاءً بالغارات على المدن ، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم .

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة مليون يهودي (أو حتى الأربعة مليون حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب .

إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين :

تقوم إسرائيل بتعقب مجرمي الحرب النازيين بروح انتقامية مفترسة لا يمكن أن توصف إلا بالتطرف ، خصوصاً وأن الحرب انتهت منذ حوالي خمسين عاماً ، أي أن الغالبية الساحقة للشعب الألماني كانوا أطفالاً أثناء الحرب أو لم يكونوا قد وُلدوا بعد . كما أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحاكمات التي أجراها الحلفاء ، والتي تمت بمنهجية وشمولية كاملتين ، عاقبت الغالبية الساحقة من مجرمي الحرب النازيين والمتعاونين مع النظام النازي . ومع هذا تستمر عمليات الملاحقة والمحاكمة (كما حدث مع أدولف أيخمان وكلاوس باربي وكورت فالدهايم وجون ديمانجوك) .

وتهدف المطاردة المستمرة لمجرمي الحرب النازيين إلى تعميق الإحساس الغربي بالذنب تجاه اليهود وتذكير الشعب الألماني ، والشعوب التي قاتلت إلى جانب ألمانيا ، بمسئوليتها عن هذه الإبادة وإظهار الإبادة كما لو كانت موجهة ضد اليهود وحسب ، وتوظيف هذا الشعور في إضفاء شرعية على الوجود الصهيوني في فلسطين . كما تأتي في سياق السعي إلى تعميق إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بهويتهم اليهودية وبالمصير اليهودي المشترك، خصوصاً مع تزايد معدلات الاندماج وتآكل الجانب الديني للهوية اليهودية بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الأوربية والغربية الحديثة . ومن هنا تأتي ضرورة إحياء ذكرى الإبادة بصفة مستمرة عن طريق عمليات المطاردة للنازيين القدامى وتقديمهم إلى المحاكمة في ظل متابعة إعلامية كثيفة . بالإضافة إلى أن التذكير والتلويح بخطر الإبادة قد يدفع أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة إلى إسرائيل .

وقد نجحت إسرائيل عام ١٩٧٩ في إلغاء مبدأ تقادم جرائم مجرمي الحرب في ألمانيا الغربية ، ولكنها اعتقلت آلافاً منهم مع أن نسبة إدانتهم في النهاية كانت تتراوح بين تسعة في المائة عام ١٩٦٤ وواحد ونصف في المائة عام ١٩٧٦ . ففي عام ١٩٧٢ ، مثلاً ، اعتُقل ستة عشر شخصاً بشبهة أنهم مارتن بورمان (نائب هتلر) ، ثم ثبتت براءتهم جميعاً . وتحت الضغط اليومي المكثف ، أنشأت وزارة العدل الأمريكية عام ١٩٨٠ مكتباً للتحقيق مع مئات الأمريكيين من مجرمي الحرب ، ولكنها لم تُوفَّق كثيراً في التوصل إليهم .

وفي كندا ، صرح كثير من الصهاينة بوجود ما لا يقل عن ستة آلاف من مجرمي الحرب ، فأُسِّست في أوائل عام ١٩٨٥ لجنة للبحث عن مجرمي الحرب (لجنة ديشين Deschênes Commission) وقُدِّم لها ٢١١٤ اسماً . كما قدَّم سيمون ويزنتال ، المتخصص في تعقب مجرمي الحرب ، قائمة من ٢١٧ اسماً زعم أنهم أعضاء في فرق الإس . إس . من أوكرانيا وعملوا في جاليشيا . وقد استغرق عمل اللجنة سنتين ثم قدمت تقريرها في ديسمبر ١٩٨٦ ، وتبين أن هناك عشرين اسماً فقط ، من بين ٢١١٤ اسماً ، أوصت اللجنة إما بمحاكمتهم أو بترحيلهم . أما قائمة ويزنتال ، فقد ظهر أن ١٨٧ منهم لم يدخلوا كندا قط . ومن الثلاثين الباقين ، حضر اثنان بالفعل إلى كندا ثم غادراها ، ومات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحد عشر شخصاً ، بينما كان هناك ستة عشر شخصاً لم يثبت أي شيء ضدهم . أما المتهم الوحيد الباقي ، فلم يمكن الاستدلال عليه . وقد طلبت اللجنة من ويزنتال أن يزودها بمزيد من الأسماء ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . وهو أمر متوقع بعد أن قام الحلفاء بعملية " نزع الصبغة النازية عن ألمانيا " .

وقد بدأ كثيرون يُعبِّرون عن ضيقهم من عملية الملاحقة . فقد ذكرت صحيفة **التايمز** البريطانية في عام ١٩٧٢ أن ثمة دلائل متزايدة على أن الرأي العام صار ضد تَعقُّب الشيوخ بدعوى أنهم مجرمون نازيون . وأشارت جريدة **ديلي تلغراف** البريطانية إلى أن حراس السجون والكثير من الناس في ألمانيا نفسها يتساءلون عن الحكمة في استمرار محاكمات جرائم النازية بعد مرور كل هذه السنوات على انتهاء الحرب . وعندما زار الكاتب الألماني جونتر جراس إسرائيل عام ١٩٧١ صارح شعبها بأنه لا يحب عقلية التوراة التي تقول إن على الجيلين الثاني والثالث أن يحملا وزر جيل سبقهما .

وتُعدُّ الحالات التالية نموذجاً لعمليات الملاحقة التي تقوم بها إسرائيل ، بكل ما تنطوي عليه من دلالات :

١ ـ محاكمة أيخمان :

أدولف أتو أيخمان (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) مسئول نازي وضابط في فرق العاصفة ، ومن أهم الشخصيات في عملية الإبادة النازية ليهود أوربا . وُلد في ألمانيا لأسرة متواضعة هاجرت إلى النمسا حيث تلقى تعليمه . عمل بائعاً متجولاً ممثلاً لشركة سوكوني فاكوم من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٣٣ . انضم أيخمان للحزب النازي في عام ١٩٣٢ ، وبدأ منذ عام ١٩٣٤ يعمل في قسم اليهود بالمخابرات الألمانية ، حيث أُرسل إلى فلسطين بدعوة من المستوطنين الصهاينة ليدرس التجربة الصهيونية هناك . فبدأ يدرس اليديشية والعبرية والعقيدة اليهودية ، وبحلول عام ١٩٣٨ أصبح حجة في مسألة التنظيمات الصهيونية والهجرة اليهودية ، فأرسله النظام النازي إلى النمسا ليساعد في عملية تهجير أعضاء الجماعة اليهودية . وقد أظهر أيخمان كفاءة غير عادية إذ استخدم أسلوب خطوط التجميع ، المستخدم في المصانع ، لتسهيل العمل . وبعد عودته إلى برلين عام ١٩٣٩ ، عُيِّن مديراً لمركز الرايخ للهجرة اليهودية ، ثم عُيِّن فيما بعد رئيساً لقسم الشئون اليهودية في الجستابو حيث قام بالإشراف على عملية نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

قُبض على أيخمان بعد الحرب ، ولكن لم تُكتشف هويته الحقيقية ، ففر إلى الأرجنتين عام ١٩٤٥ واختبأ فيها إلى أن عثر عليه عملاء المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٦٠ . وساهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في عملية اكتشاف شخصية أيخمان في الأرجنتين المدعي العام في ألمانيا الغربية ، الذي وضع المعلومات التي حصل عليها تحت تصرف المخابرات الإسرائيلية ، فأوفدت إسرائيل مجموعة من رجال مخابراتها إلى بيونس أيريس حيث تحققت من شخصية أيخمان ، وتم اختطافه ونقله بعد عشرة أيام مخدَّراً متخفيًا في زي مضيف جوي على متن طائرة إسرائيلية كانت قد جاءت إلى الأرجنتين تحت ستار نقل وفد إسرائيلي رسمي للاشتراك في احتفال الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها .

وبدأت محاكمة أيخمان في ١١ أبريل عام ١٩٦١ بالقدس المحتلة ، حيث وجه إليه المدعي العام الإسرائيلي جدعون هاوزنر تهمة المشاركة في إبادة يهود أوربا ، وتولى الدكتور روبرت سرفاتيوس ، الذي تخصص في الدفاع عن مجرمي الحرب النازيين ، مهمة الدفاع عن أيخمان .

ولم يُنكر أيخمان أو محاميه أيًا من الاتهامات الموجهة إليه ، ولكنهما ركزا دفاعهما أساساً على أن أيخمان لم يكن سوى موظف في مؤسسة حديثة ضخمة يقوم بتنفيذ الأوامر التي يصدرها إليه رؤساؤه كما كان يُفترض فيه أن يفعل ، ولذا فهو مجرد بيروقراطي منفذ للإجراءات دون أن يسأل عن الأهداف ، وبالتالي يجب أن يُحاكم على مدى كفاءته أو عدم كفاءته في تنفيذ الأوامر لا على مدى تقييمه الأخلاقي لهذه الأهداف ، أي أن أيخمان طالب بأن يُنظر إليه باعتباره إنساناً حديثاً أداتياً يهتم بالإجراءات ويدين بالولاء للمؤسسة التي يعمل فيها ولا يكترث بالقضايا الأخلاقية النهائية . ولكن المحكمة رفضت دفعه ، وحكمت عليه بالإعدام .

وكان بن جوريون ، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك ، يهدف من وراء المحاكمة إلى زيادة الوعي اليهودي بين أعضاء التجمع الاستيطاني وأعضاء الجماعات اليهودية في العالم عن طريق تعميق الإحساس بأنهم الضحية الوحيدة وأن الآخرين أو الأغيار (ممثلين في النازيين) لا تأخذهم الرحمة باليهود . ومع هذا ، فجرت المحاكمة عدة قضايا لم يكن من أعدوا لها قد انتبهوا إليها :

* بيَّن أيخمان أن الرؤية الصهيونية لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤيته هو ، فكلاهما يؤمن بضرورة تهجير اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا منبوذاً إلى أرض خاصة بهم ، كما أشار أيخمان إلى أن المسئولين طلبوا منه ، عند تعيينه في وظيفته ، أن يقرأ كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، وأنه تأثر به أيما تأثر ، وأنه ، في هذا ، لا يختلف كثيراً عن الزعماء النازيين الذين تأثروا بالفكر الصهيوني وخصوصاً بوبر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* أشار أيخمان إلى التعاون بين السلطات النازية والصهاينة ، خصوصاً رودولف كاستنر وجويل براند ، وأوضح أنه كانت هناك صفقة هُجِّر بموجبها بضعة يهود " من خيرة العناصر البيولوجية " إلى المستوطَن الصهيوني . كما أُرسلت كميات من البضائع إلى هناك في نظير أن تضمن القيادات الصهيونية هدوء اليهود المرحلين إلى معسكرات الاعتقال .

* أثار سلوك الضحايا اليهود كثيراً من الدهشة ، حيث لاقوا حتفهم دون مقاومة ، ولعلهم لو قاوموا لعطلوا آلة الحرب النازية التي كانت مرهقة . وقد نظر الجيل الجديد من أبناء المستوطن الصهيوني إلى سلوكهم هذا باعتباره سلوكاً نموذجيًا ليهودي الجيتو الضعيف (مقابل العبراني الجديد القوي) ، وبالتالي نجم عن المحاكمة مزيد من الرفض ليهود العالم .

* أثناء تقديه لعريضة الاتهام ، بيَّن المدعي العام الإسرائيلي أن الشعب اليهودي تعرض للاضطهاد والطرد والملاحقة في كل البلاد عبر التاريخ . وهنا تلقف محامي الدفاع هذه الأطروحة وتساءل : ما هي طبيعة هذا الشعب الذي يجد نفسه عُرضة للطرد والملاحقة أينما كان ؟ ألا يوجد احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من أذى ، وأنه شعب مستفز يضطر كل الشعوب في كل زمان ومكان لطرده وملاحقته ؟ وقد أُصيب الحاضرون بالذهول من تساؤلات محامي الدفاع .

كما أثارت المحاكمة قضايا أخرى مختلفة مثل دور المجالس اليهودية التي شكلها النازيون وعينوا فيها يهوداً ، فكانوا أداة تنفيذية في يد النازي ، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول دور كثير من الحاخامات الذين لم يشاركوا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد كانت المحاكمة محط اهتمام دولي ، خصوصاً وأن الدولة الصهيونية انتهكت القانون الدولي وسيادة عدة دول (الأرجنتين وألمانيا) باختطاف أيخمان الذي حُكم عليه بالإعدام ، ثم أُعدم شنقاً في سجن الرملة وأُحرقت جثته ونُثر رمادها في البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ محاكمة كلاوس باربي :

كلاوس باربي ، الذي أُطلق عليه لقب «سفاح ليون» ، هو أحد ضباط الجستابو (البوليس السري الألماني) . وأُدين بارتكاب جرائم الحرب في فرنسا إبان الحرب العالمية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانية . وكان باربي قد تولى عام ١٩٤٢ قيادة قوات الجستابو في مدينة ليون الفرنسية ، كما تولى مهمة تعقب عناصر المقاومة الفرنسية والتصدي لنشاطها . وخلال فترة عمله التي استمرت عامين ، قام باربي بترحيل ٨٤٢ شخصاً من ليون إلى معسكرات الاعتقال النازية ، كان نصفهم من عناصر المقاومة والنصف الآخر من اليهود . كما أُدين كلاوس باربي بارتكاب عمليات التعذيب والمذابح ضد عناصر المقاومة والمدنيين في ليون والمناطق المحيطة بها .

ورغم ذلك ، قامت الاستخبارات المضادة التابعة للجيش الأمريكي المتمركز في ألمانيا بتجنيد باربي للعمل لصالحها عام ١٩٤٧ ، فتحول باربي إلى مصدر مهم وقيم للمعلومات (خصوصاً فيما يتعلق بالعناصر اليسارية والشيوعية) ، وهو ما دفع المسئولين الأمريكيين إلى عدم الاستجابة للمطالب الفرنسية بتسليمه للسلطات الفرنسية . بل وقاموا بتهريبه إلى بوليفيا عام ١٩٥١ حيث عاش تحت اسم مستعار هو كلاوس التمان . وقد قُدِّم باربي للمحاكمة غيابيًا في فرنسا في ١٩٥٢ - ١٩٥٤ حيث أدين بارتكاب المذابح والفظائع وصدر ضده حكم بالإعدام . وفي عام ١٩٧١ ، نجح فرنسيان من جماعة صائدي النازيين من العثور عليه . وأثمرت مساعي فرنسا عن طرده من بوليفيا عام ١٩٨٣ ، ثم تقديمه للمحاكمة في فرنسا عام ١٩٨٧ بتهمتين لم يتم توجيههما إليه من قبل ، وصدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة .

غير أن محاكمته أثارت اهتماماً واسعاً داخل فرنسا وخارجها ، حيث تخوَّف بعض أعضاء الجماعة اليهودية من أن ذلك قد يثير المشاعر المعادية لهم أو قد تتحول المحاكمة إلى منبر لنفي الإبادة النازية . ومن ناحية أخرى ، انتقد بعض الفرنسيين المحاكمة باعتبار أن الأعمال التي ارتكبها باربي لا تختلف كثيراً عما ارتكتبه قوات الحلفاء حين قتلت المدنيين العزل أثناء قصفها للمدن الألمانية .

٣ـ حادثة فالدهايم :

أثناء حملته الانتخابية لرئاسة النمسا عام ١٩٨٦ ، أُثيرت ضد كورت فالدهايم (الأمين العام السابق للأمم المتحدة) قضية ما يُسمَّى «ماضيه النازي» . وقد تزعم الحملة ضده المؤتمر اليهودي العالمي الذي اتهم فالدهايم بإخفاء جوانب من ماضيه أثناء الحرب العالمية الثانية وبالكذب حين ادعى عدم ارتباطه بالنازي بأي شكل من الأشكال ، مؤكداً أنه كان عضواً في اتحاد الطلبة النازي ، وأنه التحق (على حد زعم المؤتمر) بإحدى وحدات قوات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاصفة ، بل وأُلحق في نهاية عام ١٩٤٢ بالقوات الألمانية في سالونيكا والتي تولّت ترحيل اليهود من اليونان إلى معسكرات الاعتقال وقامت بعمليات عسكرية وحشية ضد المقاومة اليوغسلافية ومؤيديها من المدنيين . وفي إطار حملته المكثفة ضد فالدهايم ، كشف المؤتمر اليهودي العالمي النقاب عن بعض الوثائق التي ادعى أنها تؤكد إدانة فالدهايم ومن أهمها ملف «أودلو كائمر» (أو القرار) اليوغسلافي الذي ضم قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت السلطات اليوغسلافية تشتبه في تورطهم في ارتكاب جرائم الحرب وكان من بينها اسم فالدهايم . واستناداً إلى هذا الملف ، تم ضم اسم فالدهايم إلى ملف لجنة الامم المتحدة لجرائم الحرب . كما قام المؤتمر بإسناد مهمة البحث في ماضي فالدهايم إلى عَالم في التاريخ أشارت نتائج بحثه إلى أن فالدهايم عمل ضابطاً في قسم الاستخبارات العسكرية للجيش المتمركز في غرب البوسنة والذي كانت قواته مسئولة عن ارتكاب المذابح ضد آلاف اليوغسلاف في جبال كوزارا عام ١٩٤٢ ، وأن فالدهايم حصل على نوط الشجاعة من الحكومة الكرواتية الموالية لألمانيا في هذه الفترة . وفي ضوء هذه النتائج ، حث المؤتمر اليهودي العالمي الحكومة الأمريكية على وضع كورت فالدهايم على قائمة الأجانب غير المرغوب في دخولهم إلى الولايات المتحدة . وقد أقدمت الحكومة الأمريكية على ذلك بالفعل في أبريل عام ١٩٨٧ .

ورغم هذه الحملة الإعلامية المكثفة نجح فالدهايم في انتخابات الرئاسة النمساوية ، ولكن هذه القضية تركت أثارها على مكانته الدولية حيث رفض كثير من قادة أوربا والولايات المتحدة الالتقاء به أو حتى زيارة النمسا أثناء توليه رئاسة البلاد . وقد نفى فالدهايم مراراً الاتهامات التي وُجِّهت إليه ونفى اشتراكه في عمليات ترحيل لليهود أو في مذابح ضد المقاومة اليوغسلافية واعتبر هذه الاتهامات جزءاً من حملة تشهير وافتراء دولية بدأتها المعارضة النمساوية وتزعمها المؤتمر اليهودي العالمي والصحافة الدولية ، وأكد أن ماضيه قد بُحث بشكل واف من قبَل الأجهزة الأمنية النمساوية قبل توليه العمل في السلك الدبلوماسيَ النمساوي وأيضاً من قبَل أجهزة المخابرات الأمريكية (سي . آي . آيه) والسوفيتية (كي . جي . بي) والإسرائيلية (الموساد) عند ترشيحه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة ، ولم تجد أي منها ما يدينه . ولم يتم أبداً إثبات أيٍّ من الاتهامات الموجَّهة ضد فالدهايم ، بل وتبيَّن فيما بعد أن ملف أودلو كائمر (أهم وثيقة في القضية) تحيط به الشكوك . وقد قامت ثلاث جهات نمساوية وبريطانية ودولية مستقلة بالتحري والبحث في هذه الاتهامات ولم تجد أيٌّ منها ما يدين فالدهايم بأي عمل إجرامي أو يؤكد تورطه فيما نُسب إليه . وقد ساعد ذلك على فك العزلة المضروبة من حوله إلى حدٍّ ما ، فالتقى به

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البابا عام ١٩٨٧ ثم رئيسا ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ ، كما رحَّبت به عدد من الدول العربية .

ومن ناحية أخرى ، كانت هذه القضية محاولة ناجحة إلى حدٍّ كبير للنيل من سمعة كورت فالدهايم التي شهدت الأمم المتحدة خلال فترة توليه منصب الأمين العام (١٩٧١ - ١٩٨٢) دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ولأول مرة ، لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكذلك صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

٤ ـ محاكمة ديمانجوك :

جون ديمانجوك مواطن أمريكي من أصل أوكراني اتُّهم بارتكاب جرائم حرب إبان الحرب العالمية الثانية . وأشارت الاتهامات والادعاءات الموجَّهة إليه ، إلى أنه كان يقاتل في صفوف الجيش السوفيتي حينما وقع في أسر الألمان ورُحِّل إلى أحد معسكرات أسرى الحرب . وأثناء ذلك ، وافق ديمانجوك على الانضمام إلى إحدى الوحدات العسكرية المشكلة من الأجانب والعاملة في خدمة قوات الإس . إس . الألمانية . وقد تدرب أولاً في أعمال الحراسة ثم نُقل إلى معسكر تربلينكا حيث أشرف على غرف الغاز وأُطلق عليه لقب «إيفان الرهيب» بسبب قسوته البالغة ، وظل في المعسكر حتى إغلاقه عام ١٩٤٣ . ومع انتهاء الحرب ، انتقل ديمانجوك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة هادئة إلى أن علمت السلطات الأمريكية بماضيه ، فقامت بتجريده من جنسيته الأمريكية . وفي عام ١٩٨٦ ، تم ترحيله إلى إسرائيل حيث قُدِّم للمحاكمة عام ١٩٨٧ بعد أن وُجِّهت إليه اتهامات بالقتل وارتكاب جرائم ضد الإنسانية وارتكاب جرائم ضد الشعب اليهودي . وقد أكد الدفاع أن هناك خطأ ولبساً في شخصية المتهم ، فجون ديمانجوك ليس هو «إيفان الرهيب» ، كما شكك الدفاع في الأدلة المقدمة ضده وفي قدرة الشهود على تذكر أحداث جرت منذ أكثر من ٤٥ عاماً . ورغم ذلك ، أُدين ديمانجوك بالتهم الموجهة إليه وحُكم عليه بالإعدام عام ١٩٨٨ .

وبطبيعة الحال ، حاولت المؤسسة الصهيونية استثمار عملية المحاكمة نفسها ، بغض النظر عن نتائجها ، في تحقيق أهدافها الخاصة برفع ما يُسمَّى «الوعي اليهودي» بين الأجيال الجديدة من أعضاء الجماعات اليهودية . كما حاولت تذكير العالم (الغربي) بالجرم النازي ضد اليهود ، وذلك في محاولة للتغطية على القمع الإرهابي الذي تمارسه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إسرائيل للقضاء على الانتفاضة الفلسطينية . ولكن محاكمة ديمانجوك تبين أن هذه العملية تقترب من نهايتها . فقد اعترف بعض المسئولين الأمريكيين (في مكتب التحقيقيات التابع لوزارة العدل الأمريكية) بجرمهم في إخفاء الأوراق التي تثبت أن ديمانجوك ليس إيفان الرهيب . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفتح كثير من الملفات السرية ، ظهرت دلائل جديدة تؤكد أن ديمانجوك ليس هو إيفان الرهيب وأنه عمل حارساً في معسكر آخر غير تربلينكا . وكتبت **النيويورك تايمز** تقول إنه لابد من الإفراج عنه لعدم توافر أية أدلة ، ونبه باتريك بيوكانان (منافس بوش ثم دول على الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية عن الحزب الجمهوري) إلى أن السلطات الإسرائيلية تماطل في إصدار الحكم ببراءة ديمانجوك على أمل أن يموت في السجن ولا تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بخطئها . بل إن الصحف الإسرائيلية ذاتها بدأت تنبه إلى أن الاستمرار في مثل هذه المحاكمات قد يؤدي إلى نتائج عكسية . ولعل حكم البراءة الذي اضطرت المحكمة الإسرائيلية العليا إلى إصداره عام ١٩٩٣ هو نهاية هذه المهزلة . وقد عاد ديمانجوك فيما بعد إلى الولايات المتحدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

من الموضوعات التي لم يتم بحثها بالقدر الكافي ، لأسباب معروفة ، قضية تورُّط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) في علاقة تعاون وثيقة مع النازيين . وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة من بينها عدم الاشتراك في المقاومة أو التعاون الاقتصادي مع النازيين أو الانخراط في التنظيمات النازية . ولكن أهم أشكال التعاون وأوثقها هو التعاون المؤسسي بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازي والنظام الفاشي ، وسنتناول في هذا الفصل أشكال التعاون هذه .

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية :

يُثير بعض الدارسين تساؤلاً بخصوص المقاومة اليهودية والصهيونية للنازيين، وهي مسألة خلافية مركبة . ومما يجدر ذكره أنه حين استولى هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ ، ظلت هناك جيوب رافضة داخل المجتمع الألماني صعّدت المقاومة ضده من منظور ليبرالي . كما كانت هناك حركة مقاومة ثورية نظمتها الأحزاب الشيوعين والاشتراكيه ، فالنازية حركة رجعية شمولية تقف ضد مصلحة الطبقة العاملة . كما كانت هناك مقاومة من منظور يميني تدعمها قطاعات معينة من الرأسمالية الألمانية الكبيرة . وكانت هناك أيضاً مقاومة من منظور تقليدي أرستقراطي باعتبار أن النازية تقضي على امتيازات الطبقة الأرستقراطية الألمانية التقليدية ومكانتها ، إذ كانت النازية ، على مستوى من المستويات ، عملية تحديث سريعة وراديكالية تمت تحت إشراف عناصر من البورجوازية الصغيرة لا تحترم التقاليد وتقضي على سائر الخصوصيات وتحاول أن تنجز في عشرة أعوام ما أنجزته أوربا في مئات الأعوام . وقد تمركزت المقاومة التقليدية في الجيش ووزارة الخارجية ، وكانا يضمان أعداداً كبيرة من أعضاء الطبقة الأرستقراطية . وبالمثل قام البولنديون بحركة مقاومة عنيفة ضد النازيين ، هذا بخلاف حركات المقاومة في فرنسا وغيرها من الدول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية في أرجاء أوربا ، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تحد من سرعتها أو تعطلها، خصوصاً وأنها كانت مرهَقَة . ولم تبدأ المقاومة اليهودية جديًا في وارسو ، التي كان ٤٥ في المائة من سكانها من اليهود ، إلا في أوائل عام ١٩٤٣ ، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قررت برلين تدمير حارة اليهود ، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات .

ومن الأسباب الأساسية التي يطرحها البعض لتفسير ضعف المقاومة اليهودية رغم الشراسة النازية هو الموقف الصهيوني ، إذ يبدو أن الصهاينة لم يبدوا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية ، وكانوا غير مكترثين بالمقاومة ضد النازيين . وفي مجال هجومه على المشروع الصهيوني ، حذر المفكر الاشتراكي كارل كاوتسكي من الآثار الضارة للصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الاتجاه الخاطئ (الاستيطان في فلسطين) في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) حيث يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم . وكان كاوتسكي يشير بذلك إلى أن ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) لم يكن من الممكن تهجيرهم إلى فلسطين . وبدلاً من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم ، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة ، كانت القيادات الصهيونية تركز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد .

ولكن الاعتبارات الصهيونية كانت مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك ، إذ قرر الصهاينة اتخاذ موقف الحياد من المقاومة ، باعتبار أن اليهود لهم مصالحهم وحروبهم المختلفة ، وأن هدفهم الوحيد هو تأسيس الدولة الصهيونية . ولذا نادى كثير من الصهاينة بعدم الاشتراك في الحركات المعادية للنازية والفاشية . وقد بيَّن ماريك إيديلمان ، أحد قواد تمرد جيتو وارسو ، في حديث له مع مجلة **هآرتس** أن الأبطال الحقيقيين للمقاومة كانوا أعضاء حزب البوند واليهود المعادين للصهيونية والشيوعيين والتروتسكيين والصهاينة اليساريين ، أما أعضاء التيار الصهيوني الأساسي فكان موقفهم هو موقف الحياد . وكلما كان النضال ضد النازية يزداد ضراوة ، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود . ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية ، ويُقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمحيص) . ومن الثابت تاريخيًا أن المجالس اليهودية كانت أداة ذات كفاءة عالية في إدارة عملية الإبادة .

وقد تعاون كثير من الأفراد اليهود (غير الصهاينة) مع النازيين ، وهم في هذا لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يختلفون عن مئات الأوربيين الآخرين الذين كانوا مجرد موظفين ينفذون الأوامر التي تصدر إليهم . كما لم يكترث يهود فرنسا بنقل اليهود الذين ليسوا من أصل فرنسي ، تماماً مثلما أظهر يهود ألمانيا عدم اكتراث بنقل اليهود الأوست يودين (أي يهود شرق أوربا) . بل إن بعض الكُتّاب اليهود أثاروا قضية دور الحاخامات في أوربا وفشلهم في قيادة حركة المقاومة . ومن المعروف أن قساً كاثوليكيًا وواعظاً بروتستانتيًا تطوعا للذهاب مع المرحلين إلى معسكرات الاعتقال ، بينما لم تلعب الحاخامية دوراً مماثلاً .

والموضوع ، كما أسلفنا ، خلافي للغاية ، فثمة نظرية تذهب إلى أن المقاومة لم تكن على أية حال لتجدي فتيلاً ، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني لم تكن تمانع في الإبادة ، كما أن آلة الحرب والمخابرات والإبادة الألمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة والقدرة على الفتك . ومن الممكن تطبيق المقولة نفسها على هؤلاء الأغيار المتهمين بعدم مقاومة النازي ، فلعلهم توصلوا هم أيضاً إلى عدم جدوى المقاومة . ولكن هذا القول الذي ينطبق على الجماعة اليهودية في ألمانيا لا يسري بأية حال على يهود بولندا الذين كانوا يُشكلون كثافة سكانية لا بأس بها ، وكان بوسعهم المقاومة والانضمام إلى الشعب البولندي الذي كان يقاوم الغزو النازي .

ومن القضايا الأخرى التي تُثار في هذا السياق موقف المستوطنين الصهاينة . فقد كانت إحدى دعاوى إقامة الدولة الصهيونية أنها ستكون ملجأ لليهود يحميهم من هجمات الأغيار ومذابحهم . ولكن حينما دخلت قوات روميل حدود مصر وبدأت تتقدم نحو الإسكندرية ، اكتشف المستوطنون الصهاينة عبث المقاومة ، بل ووضعت بعض الكيبوتسات خطة للانتحار . والقدرة على الانتحار تختلف بشكل جوهري (في تصورنا) عن المقاومة والإنقاذ . ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الانتحار يفقد الجيب الصهيوني شرعيته كملجأ أخير ونهائي لليهود .

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا . وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية ، عام ١٩٨١ ، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم ، وهو كذلك بالفعل . لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق ، خصوصاً وأن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاشية والصهيونية :

من أهم الأفكار الغربية التي نبتت الصهيونية في تربتها ، الأفكار السياسية الخاصة بالقومية العضوية وبالدولة القومية باعتبارها المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية للنسق وهي الأفكار التي تصبح تقديساً للدولة وانصياعاً لزعيمها في الأنساق الشمولية . و تبنت الصهيونية كل هذه الأفكار وتحركت في إطارها ، فأنشأت علاقة مع النظام الفاشـ (في إيطاليا) والنظام النازي (في ألمانيا) .

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشيه لا علاقة لها بالعداء لليهود. وفي أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل يهود إيطاليا بغير استثناء ، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكو الفاشية . حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن اليهود هم سفر الفاشية للعالم ، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا النشاطات الدينية والاجتماعية ليهود العالم ، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم

وفي يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيا موسوليني، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه ب الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية . فرد وايزم عليه رداً مقنعاً بيّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخر للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيا تجارية ، على حد قول وايزمان) ، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزا اللازمة . وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين ، سمح موسوليني على أثره بتعي يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية .

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦ ، عرض موسوليني يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم ، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالا مؤيدة للصهاينة . كما قام ناحوم سوكولوف ، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظ الصهيونية ، بزيارة إيطاليا عام ١٩٢٧ وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقة للفاشية ، وأكد اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها . ولا شك أن كلماته هذه تحمل معنى التأي الكامل للنظام الفاشي، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا . ومن الزعم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصهاينة الذين زاروا إيطاليا الفاشية ، ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي الذي استمع إلى الزعيم الإيطالي وهو يُعرب عن حماسه للمشروع الصهيوني وعن استعداده الكامل لمساندته .

وقد تعلم جابوتنسكي الكثير من الفاشية الغربية ، وكان يعبِّر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره ، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زيها الرسمي . وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما : " كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية ، والشخص الذي يفهم ذلك حقّا هو الفاشي جابوتنسكي " . كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية . ورغم أن جابوتنسكي لم يكن يرتاح أحياناً إلى وصفه بالفاشي ، فإن موقفه بشكلٍ عام كان موقف المؤيد للفاشية والمعجب بها .

أصول النازية والصهيونية الفكرية المشتركة :

رغم الدعاية الصهيونية الشرسة وتأكيد احتكار اليهود لدور الضحية في عملية الإبادة التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الإثنية والدينية والعرقية ، فإن ثمة علاقة وطيدة بين الصهيونية والنازية تستحق الدراسة . وقد يكون من المفيدَ ابتداءً أن نقرر أن النازية والصهيونية ليسا بأية حال انحرافاً عن الحضارة الغربية الحديثة بل يمثلان تيارين أساسيين فيها . ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية أن الغرب يحاول تعويض اليهود عما لحق بهم على يد النازيين بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتس يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت أو مذبحة قانا . وقد أنجزت الصهيونية ما أنجزت من اغتصاب الأرض وطرد وإبادة للفلسطينيين من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ، واستخدمت كل أدواته من غزو وقمع وترحيل وتهجير . والغرب ، الذي أفرز هتلر وغزواته ، هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي . وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية داروينية للجريمة التي ارتكبت والتي تُرتكب يوميّا ضد الشعب الفلسطيني .

ولابد أن نقرر أن الصهيونية لم تقم بعملية إبادة شاملة (بمعنى التصفية الجسدية) للفلسطينيين ، إلا أن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بالبنية الإبادية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للأيديولوجية الصهيونية ، من بينها تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين ، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام . كما كان شأن الكثافة السكانية العربية وتماسك العرب وانتمائهم إلى تشكيل حضاري مركب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة أن أصبحت الإبادة حلاً مستحيلاً (ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية والتي تمت في صفد ودير ياسين وكفر قاسم ، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين ، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادتهم . وبالمثل كانت عملية صابرا وشاتيلا ذات طابع إبادي واضح) . كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال هي حدث يومي داخل الإطار الصهيوني .

إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنفعية الداروينية والنازية والصهيونية ، ولذا فليس من المستغرب أن نجد مجموعة من الأفكار المشتركة بين الرؤيتين النازية والصهيونية التي تُشكل الإطار الحاكم لكلٍ منهما :

١ ـ القومية العضوية والتأكيد على روابط الدم والتراب ، وهو ما يؤدي إلى استبعاد الآخر (الشعب العضوي المنبوذ) .

٢ ـ النظريات العرْقية .

٣ ـ تقديس الدولة .

٤ ـ النزعة الداروينية النيتشوية .

كما يظهر التماثل البنيوي بين النازية والصهيونية في خطابهما . فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي (فولك)» و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار» . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود ، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية : " لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا شعب الإله المختار . هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟ " . ويتحدث مارتن بوبر عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة ، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يتمكن الدم اليهودى من التفاعل معها والإبداع من خلالها ، وهي مسألة أشار إليها كل من الكاتبين الصهيونيين ميخا بيرديشفكي وشاؤول تشرنحوفسكي ، حيث تحدثا عن الشعب العضوي اليهودي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعبارات نفسها ونسبا إليه الخصائص نفسها . كما استخدم الصهاينة مفهوم «الدم اليهودي» لتعريف الهوية اليهودية .

وأثناء محاكمات نورمبرج ، كان الزعماء النازيون يؤكدون ، الواحد تلو الآخر ، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية ، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة . وقد أشار ألفريد روزنبرج ، أهم المنظرين النازيين ، إلى أن " بوبر على وجه الخصوص هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا ، فهناك فقط يمكنهم العثور على جذور الدم اليهودي " . ولعله ، بهذا ، كان يشير إلى حديث بوبر عن اليهود باعتبارهم آسيويين حيث يقول " لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين ، ففلسطين لم تُطرد منهم " .

ومن الموضوعات الأساسية المشتركة فكرة النقاء العرْقي . وكان سترايخر (المُنظِّر النازي) يؤكد أثناء محاكمته ، أنه تعلَّم هذه الفكرة من النبي عزرا : لقد أكدت دائماً حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس ، فلقد خلقوا قانوناً عنصريًا لأنفسهم ، قانون موسى الذي يقول : " إذا دخلت بلداً أجنبيًا فلن تتزوج من نساء أجنبيات " . وكانت الأدبيات الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرقي ثرية إلى أقصى حد في أوربا حتى نهاية الثلاثينيات .

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الداروينى نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقيةً . إذ يستخدم الصهاينة – شأنهم في هذا شأن النازيين – مصطلحاً محايداً ، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن " تهجيرهم " أو " دمجهم في المجتمعات العربية " . وهم لا يتحدثون مطلقاً عن " تفتيت العالم العربي " وإنما عن " المنطقة " ، ولا يتحدثون عن «الاستيلاء» على القدس وإنما عن «توحيدها» ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو «احتلالها» وإنما عن «استقلال» إسرائيل أو عن «عودة الشعب اليهودي» إلى أرض أجداده .

ويتضح التطابق بين النازيين والصهاينة بكل جلاء في واحد من أهم التنظيمات النازية . فقد كان النازيون – شأنهم شأن أية عقيدة تدور في إطار القومية العضوية – يؤمنون بوجود دياسبورا ألمانية («أوسلاندويتش Auslandeutsch») تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية . وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي يدينون بالولاء للوطن الأم ويجب أن يعملوا من أجله . وربما لأن العودة للوطن الأم أمر عسير ، كما هو الحال مع الصهاينة ، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات (مثل صهيونية الشتات)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانيتين . وكان للنازيين ما يشبه المنظمة النازية العالمية التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية ، وكانت لها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان ، في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان ، تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم .

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية . فتيودور هرتزل وماكس نوردو وألفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها ، كما كانوا ملمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنون لها الإعجاب ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية (وقد غيَّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور» حتى يؤلمن اسمه ، وسمَّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنورديين) . ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً . ومن جهة أخرى ، كانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية ، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني . وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين . وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية ، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمُثُلها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا . بل وعدوا النازية حركة تحرر وطني . وقد سجل حاييم كابلان ، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي) ، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية ، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية .

وقد ظهرت في ألمانيا ، في الثلاثينيات ، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذي أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية الصهيونية وأبعادها العدمية . ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة ، كما عَرَّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا النزعة الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) ، وهما من الأمور المادية ، إلى كيانات ميتافيزيقية ، أي إلى دين . وأشار إلى أن النازية والصهيونية تتبنيان الرأي القائل بأن ألمانيا لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم .

وفي عام ١٩٢٦ ، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العضوي . فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية ، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية ، الدم والتربة ، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية ، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء . ومن ثم ، توصل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) الصهيونية أو النازية . كما توصل إلى أن كلاً من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية . وبالتالي ، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي تحوِّل الدنيوي المدنَّس إلى مقدَّس ، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية ، بل وللجنس البشري بأسره .

النيتشوية والصهيونية :

تنبع النازية من عدة روافد في الفكر الغربي الحديث لعل أهمها على الإطلاق الفكر الفلسفي الرومانسي الألماني ، وبخاصة الفكر النيتشوي أو النيتشوية . وقد يكون من المفيد أن نشير ابتداءً إلى أننا نميِّز بين الفكر النيتشوي وفلسفة نيتشه . ففلسفة نيتشه توجد في أعماله الفلسفية ، وهي فلسفة متناقضة تحوي الكثير من الأفكار النبيلة والخسيسة والعاقلة والمجنونة . أما الفكر النيتشوي فهو منظومة شبه متكاملة ، استنبطها الإنسان الغربي من أعمال نيتشه وحققت من الذيوع والشيوع ما يفوق أعمال نيتشه الفلسفية . وما يهمنا في دراسة تاريخ الأفكار هو الفكر النيتشوي وليس أعماله الفلسفية . فهناك الكثير من النيتشويين ممن لم يقرأوا صفحة واحدة من أعمال نيتشه ، بل والذين اتخذوا مواقفهم النيتشويه قبل أن يخط نيتشه حرفا واحدا . فالخطاب الإمبريالى ، منذ لحظه ظهوره فى القرن السابع عشر ، كان خطابا نيتشويا .

يتَّسم موقف نيتشه من اليهود بالغموض ، فهناك رأي يذهب إلى أنه كان معادياً لليهود . ومما ساعد على تدعيم هذا الرأي أن أخته إليزابيث - والتي نفذت وصيته الأدبية - كانت متزوجة من برنارد فوستر وهو من أهم الداعين إلى معاداة اليهود . بل ويُقال إن إليزابيث زيَّفت بعض خطابات نيتشه لتشيع هذه الصورة عنه . لكن مما لا شك فيه أن أعمال نيتشه تحتوي على إشارات لليهود واليهودية تحمل دلالات سلبية . وينبع سخطه على اليهودية بالدرجة الأولى من تصوره أن اليهودية هي أحد أشكال أخلاق الضعفاء . فعندما فقد اليهود دولتهم ولاقوا الاضطهاد وحُرموا من حريتهم في العالم الروماني ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجمَّع لديهم شعور مكبوت بالإساءة وصل إلى أقصى درجات غليانه فوُلدت المسيحية من رحم اليهودية ، فهي ديانة التواضع والضعف والعبودية . وأخلاقياتَ المسيحية ألحقت ضرراً بالغاً بالحضارة الغربية الوثنية ، ولكن القيم الأرستقراطية ثارت من جديد في عصر النهضة التي عارض رجالها القيم المسيحية التي سادت في العصور الوسطى . ثم عاد الإصلاح الديني يحاول أن يفرض أخلاق العبيد مرة أخرى ، وهذا ما حاولته الثورة الفرنسية بعد ذلك . ووسط ثورة العبيد الأخيرة هذه ، ظهر المثل الأعلى القديم مرة أخرى: نابليون . وبسقوطه سقط آخر شعاع نور صادر عن قيم السادة .

ولكن هناك جانباً آخر لنيتشه وهو رفضه لمعاداة اليهود ، بل إنه اعتبر معاداة اليهود مجرد شكل آخر من أشكال ثورة العبيد الحديثة ضد السادة . كما كان نيتشه معجباً بالعهد القديم وما تصوره أسلوبه غير الأخلاقي ووصاياه التي لا تتضمن أي تهاون أو مساومة . وفي كثير من كتاباته ، نجده يكيل المديح لليهود أكثر من الألمان ، فاليهود عنصر قوي يتمتع بالصحة ، وتدل صلابتهم وإبداعهم على مقدرتهم على القيام بعملية إعادة تقييم القيم . ولكن بغض النظر عن موقف نيتشه من اليهود أو اليهودية يظل ما يعنينا في هذا الجزء من دراستنا هو الفكر النيتشوي وأثره في الفكر الديني اليهودي وفي الفكر الصهيوني .

ولفهم هذا الجانب ، قد يكون من المفيد أن نعرض لآراء المفكر الصهيوني الروسي أحاد هعام في هذا الموضوع ، فهو يرى أن نيتشه لم يفهم اليهودية حق الفهم وخلط بينها وبين المسيحية . والعارفون باليهودية ، حسب رأيه ، سيكتشفون في التو أنه لا توجد أية حاجة لاستحداث نيتشوية يهودية ، ذلك أن الجزء العام من الفلسفة النيتشوية (أى الجزء الذى يتجاوز الخصوصية الألمانية)موجود في اليهودية نفسها منذ قرون عديدة . فاليهودية ديانة لم تستند إلى فكرة الرحمة وحدها ، ولم تُلزم الإنسان الأعلى اليهودي بالخضوع للجماهير ، كما لو كان الهدف الأساسي من وجوده هو مجرد زيادة سعادة الأغلبية . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى لم يذكرها أحاد هعام ، فالعقيدة اليهودية ، مثلاً ، أصبحت نسقاً دينيًا حلوليًا متطرفاً ، وهو ما يعني تحول الشعب اليهودي إلى شعب مقدَّس، مكتف بذاته ، يحوي مركزه داخله، لا يمكن الحكم عليه بمعايير أخلاقية خارجة عنه . بل إن الشعب اليهودي ، حسب التراث القبَّالي ، هو امتداد للخالق في الكون . ووجود الخالق ذاته وتوحده بعد تبعثره (كما جاء في التراث الأسطوري القبَّالي) يتوقف على قيام اليهود بممارسة الأوامر والنواهي . ويُبيِّن أحاد هعام أن المقولة الأساسية النيتشوية ، الخاصة بتفوق النموذج الإنساني الأعلى على بقية البشر، هي نفسها مقولة يهودية . ولكن أحاد هعام يُحل فكرة الأخلاق محل القوة ، ويشير إلى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نيتشه يشكو من أنه (حتى الآن) لا توجد محاولة واعية لتعليم الناس بطريقة تؤدي لظهور الإنسان الأعلى ، وهو ما يعرقل ظهوره . فالإنسان حيوان اجتماعي ، ولذا فإن روح الإنسان الأعلى نفسها لا يمكنها أن تتحرر من الجو الأخلاقي الذي تعيش فيه . ويخلص أحاد هعام من هذا التحليل إلى أنه إذا كان الهدف من الحياة هو الإنسان الأعلى ، فيجب أن نقبل بارتباط ظهوره بظهور الأمة الممتازة أو الأمة العليا ، أي ينبغي أن تكون هناك أمة لها من السمات الذاتية ما يجعلها على استعداد أكبر للنمو الأخلاقي بالمعنى النيتشوي ، ولتنظيم حياتها على أساس قانون أخلاقي يعلو على النموذج العادي . هذه الأمة هي ولا شك التربة الخصبة التي ينبت فيها الإنسان الأعلى .

وإذا نظرنا إلى اليهودية من زاوية هذه الفلسفة ، لتبين لنا ، على حد قول أحاد هعام ، أن معظم نقائصها ، أو تلك النقائص التي يشير إليها الآخرون والتي يحاول العلماء اليهود أنفسهم إنكارها ، تشكل نقطة قوة ولا تحتاج لإنكار أو اعتذار . ومن المعروف للجميع أن اليهود واعون بأنهم متفوقون أخلاقيًا على الأمم كافة ، وهو وعي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار . والاختيار غير مبني على حكم القوة لأن جماعة يسرائيل هي أصغر الأمم . فقد اختار الإله يسرائيل ، لكي يعبِّر هذا الشعب بشكل متعيِّن في كل جيل عن أعلى نموذج أخلاقي ، ولكي يحمل عبء الواجبات الأخلاقية دون اعتبار للربح و الخسارة بالنسبة لبقية البشر ، بل وللحفاظ على وجود هذا النموذج الراقي .

ويرى أحاد هعام أن هذه الفكرة تسيطر على الدين اليهودي . ولذلك ، لم يحاول اليهود التبشير بدينهم لا بسبب الغيرة (كما يدَّعي الأعداء) ولا التسامح (كما ينادي المعتذرون) ، ولكن لأنهم لا يقبلون أن يجعلوا واجبهم نحو تجسيد النموذج الراقي هو واجب كل البشر ، ففي هذا خفض لمستواه وتدن له . وهم في محاولتهم هذه ، لن يفرضوا المسئولية على الآخرين ولن يشركوهم فيها ، ووصف أحاد هعام للأمة المختارة هو ذاته وصف نيتشه للإنسان الأعلى .

ويشير أحاد هعام إلى محاولة بعض العلماء اليهود إضفاء غلالة من المعاصرة على فكرة الشعب المختار ، كأن يحاولوا أن يوفقوا بينها وبين فكرة مساواة الشعوب ، حيث يرون أن رسالة الشعب المختار هي نشر الخير وطريقة الحياة الخيرة بين كل الشعوب (كما يرى اليهود الإصلاحيون) . ولكن أحاد هعام يرفض هذه الليبرالية ، فهو يصر على أن رسالة الشعب هي بكل بساطة أن يقوم بواجبه دون أي اعتبار للعالم الخارجي ، لأن تأدية الواجب هي غاية في ذاتها وليست وسيلة لإسعاد العالم . وإذا كان اليهود القدامى قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبَّروا عن الأمل في أن اليهودية سيكون لها أثر طيب على الأمم الأخرى ، فهذا مجرد نتيجة وليس هدفاً ، إذ يظل الهدف هو الانتماء لمثل أعلى ونموذج متفوق لا ينتمي إليه الآخرون ولا يشاركون فيه .

ويميِّز أحاد هعام بين وحش نيتشه الجميل الأشقر القوي المُدافع عن الجسد والعنف (الذي أصبح المثل الأعلى النازي) وبين الإنسان الأعلى اليهودي الذي يُدافع عن القيم اليهودية الخلقية ويقف ضد العنف ، وهذا هو الفارق بين النيتشوية الآرية والنيتشوية اليهودية . ولنلاحظ أن أحاد هعام لا يعترض على بنية النيتشوية التي تستند إلى التفاوت بين الناس وإنما على مضمونها وحسب . وحديثه عن الأخلاق اليهودية لا يُغيِّر من البنية في شيء ، فالنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوق اليهود وتعاليهم على البشر ، وهو الأمر الذي يميزهم بحقوق مطلقة ، من بينها ، على سبيل المثال ، حقهم في أن يعودوا إلى الأرض المقدَّسة متى شاءوا ذلك ، وأن يؤسسوا فيها مركزاً روحيًا إن أرادوا ، وأن يستوطنوها ويعمروها أو يخربوها حسبما تملي مشيئتهم ، باعتبارهم السوبر أمة أو الأمة الأعلى (وهذا هو جوهر كل المنظومات المعرفية والخلقية العلمانية الشاملة ، بل إن أصحاب المنظومة يجسدون المطلق ويصبحون هم المرجعية الذاتية وتصبح إرادتهم هي الحق المطلق) . فإذا جاء الفيلسوف النيتشوي الصهيوني بعد هذا وأضاف زخارف أخلاقية وأصر على أن تكون الدولة الصهيونية تجسيداً للقيم الأخلاقية النبيلة ، فإن الزخارف الأخلاقية تظل مجرد زخارف لا علاقة لها بمنطق النسق العام ، بينما يظل العنف هو الجوهر والمحك وقانون البنية . وقد أثبتت التجربة التاريخية (من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا وقانا) أن الأبعاد الأخلاقية إن هي إلا زخارف وأقوال ودبلوماسية ، وأن وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ يفترض قتل العرب وسفك دمائهم .

ولم يكن أحاد هعام فريداً في دفاعه عن النيتشوية . فقد تأثر كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة منهم) بالفكر النيتشوي . ومن بين هؤلاء مؤسسو الحركة الصهيونية : تيودور هرتزل والفريد نوسيج وماكس نوردو ، وكلهم ذوو ثقافة ألمانية ، كما تأثر بها مفكرون صهاينة آخرون ، مثل : ميخا بيرديشفكي وحاييم برنر وشاؤول تشرنحوفسكي .

ولا يمكن فهم كتابات أهم الفلاسفة الدينيين اليهود المحدثين (مارتن بوبر) إلا من خلال نيتشه (وكذا كتابات ليو شستوف) . وتسري القاعدة نفسها على مفكري مدرسة لاهوت موت الإله . وأثر نيتشه في جاك دريدا وإدمون جابيس واضح تماماً . كما أن المكوِّن النيتشوي في الفكر الصهيوني مكوِّن أساسي . ولا غرو في هذا فجميعهم أبناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصرهم العلماني الإمبريالي الأداتي الشامل . ولكل هذا ، فليس من قبيل الصدفة أن يكون التشابه بين الصهيونية والنيتشوية مدهشاً حقاً ، ويمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية :

١ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة ملحدة أو حلولية بدون إله ، أو هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة والإنسان الأعلى عند نيتشه ، وهو إرادة القوة اليهودية وبقاء الشعب اليهودي عند الصهاينة . فبقاء الشعب لا يتحقق إلا من خلال إرادة الشعب ومن خلال قوته الذاتية .

٢ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، تعبير عن توثن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه ، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه ، أي الذات القومية المقدَّسة ، باعتبارها تجسيداً لذاته .

٣ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، نسق عضوي دائري يقرن بين البدايات والنهايات ، وتسود فيه صورة مجازية عضوية .

٤ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور ، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي ، وهو ما يُطلق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة» ، وهو ما نسميه «النفعية الداروينية» .

٥ ـ الحياة بالنسبة للنيتشوية توسُّع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له ، ومعاداة للفكر واحتقار له ، وتمجيد للفعل المباشر ولأخلاق السادة الأقوياء ، وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر . والآخر هو أولاً الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض ، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق العبيد .

٦ ـ وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدَّسة ويكون كالحيوان المفترس الأشقر وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء (يبني منزله بجوار البركان ويعيش في خطر وفي حالة حرب دائمة) ، فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحول يهود المنفى المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش يهود يؤمنون بأخلاق القوة ، مفتولي عضلات يحسمون كل القضايا بالقوة ويفرضون رؤيتهم ، ولذا فالمستوطنون الصهاينة يعيشون حرفيًا بجوار البركان في حالة حرب دائمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ ـ وتفكير نيتشه تفكير نخبوي إذ يرى أن حركة التطور الحقيقية لابد أن تؤدي إلى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال ، وما الإنسان العادي سوى الحلقة أو الجسر الموصل إلى هذه المرحلة العليا ، التي توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى المطلق غير المعروف . ويسيطر على الصهيونية أيضاً تفكير نخبوي يُحوِّل حياة جماهير اليهود في أرجاء العالم خارج فلسطين إلى مجرد جسر يؤدي إلى ظهور الدولة الصهيونية . كما أن الفكر الصهيوني، بتحويله الأمة إلى مطلق مكتف بذاته ، كان يتضمن معرفيًا عملية نقل العرب وإبادتهم .

٨ ـ وداخل هذه المنظومة ينقسم العالم وبحدة إلى السوبرمن ، السادة الأقوياء من أعضاء الشعب العضوي ، والسبمن ، العبيد الضعفاء الذين ينتمون للفريق الآخر . والسادة الأقوياء لهم حقوق مطلقة فهم يجسدون المبدأ الواحد ، أما الضعفاء فإن مآلهم إلى الاختفاء (عن طريق الإبادة بالمعنى العام والخاص) . وعند نيتشه ، نجد أن هناك الوحوش الشقراء وهناك بقية الشعوب . وفي المنظومة الصهيونية ، هناك من ناحية اليهود أصحاب الحقوق المطلقة ، ومن ناحية أخرى الأغيار (خصوصاً الفلسطينيون) الذين لا حقوق لهم ، وهذه الحقوق اليهودية المقدَّسة المطلقة تجُبُّ حقوق الآخرين .

٩ ـ الفكر النيتشوي ، مثله مثل الفكر الصهيوني ، فكر تختفي فيه حدود الأشياء ومعالمها ، وهو ينفي التاريخ وحدوده فتظهر حالة من السيولة والنسبية التي لا تحسمها سوى إرادة القوة . ومن هنا حديث بن جوريون عن الجيش الإسرائيلي باعتباره خير مفسر للتوراة ، وهو موقف لا يختلف كثيراً عن موقف نيتشه من تفسير النصوص . والنص هنا هو فلسطين التي تحمل معنى عربيًا ، إذ تقطنها أغلبية عربية وتوجد داخل التاريخ العربي . حيث يقرر الصهاينة أن يفصلوا الدال عن المدلول ويعلنوا أن فلسطين ليست وطناً بل أرض والبشر الذين يقطنون فيها ليسوا شعباً ، وأن الشعب المرتبط بها هم اليهود وحدهم ، والجيش الإسرائيلي هو خير مفسر لهذا النص ، فهو الذي سيفرض عليه المعنى الصهيوني ! (تماماً كما يفعل نقاد ما بعد الحداثة) .

١٠ ـ يتحدث نيتشه في كتاباته (دائماً) عن الماضي والمستقبل ، ولا يركز عيونه على الحاضر أبداً . ولكن الماضي (دون الحاضر الحي) يتحول إلى أسطورة وأيقونة ، والمستقبل بدوره يتحول إلى عصر ذهبي وفردوس أرضي خال من التاريخ . والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادةً إلا عن الماضي العبري (قبل أن تظهر اليهودية وتفسد الشخصية اليهودية بأخلاق الضعفاء) والمستقبل الصهيوني (حين يعود اليهود إلى صهيون ليؤسسوا الدولة الجيتو المعقمة من التاريخ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ ـ ونيتشه ، بتفكيره المجرد ، لا يتحدث عن السعادة الفردية أو عن السعادة عامةً . فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد ، أما الإنسان الأعلى فيعلو على الخير والشر ويتجاهل اللذة والألم . وتجاهل السعادة ، كقيمة إنسانية ، هو أيضاً إحدى سمات الفكر الصهيوني ، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المشيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار ، وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودي المتعيِّن الذي يعيش في وطنه ، فالصهيونية لا تُشكل بالنسبة له سوى أيديولوجية مجردة غريبة ، لا يمكنه أن يُنظم حياته من خلالها . ومع هذا فهم يدعون إلى تصفية الجماعات اليهودية في الخارج وإنهاء التاريخ اليهودي في المنفى ، فهو تاريخ الضعفاء والمهزومين ، من وجهة نظرهم .

وتفصح كل هذه العناصر النيتشوية عن نفسها تماماً في كتابات هارولد فيش أحد منظري جماعة جوش إيمونيم ، التي تؤمن بضرب من الصهيونية نسميها «الصهيونية الحلولية» أو «الصهيونية العضوية» لأنها نيتشوية كاملة ، حيث يتحد الإله بالإنسان اليهودي وبالأرض اليهودية ليكوِّنوا نظاماً مقدَّساً دائرياً مغلقاً عضويًا يُهلك من يقع خارج دائرة القداسة ، مثل العرب ، أما من يقع داخلها فيتمتع بسائر الحقوق . ولكن القداسة هي ، في واقع الأمر ، القوة . ولهذا ، يشير أحد مفكري جوش إيمونيم إلى الجيش الإسرائيلي باعتباره القداسة الكاملة . وهذا الخطاب لا يختلف كثيراً عن خطاب الرايخ الثالث .

قانون العودة الصهيوني :

يتضح التشابه بين النازية والصهيونية في قانون العودة الصهيوني . ومن المعروف أن جميع أجنحة الصهيونية تعاونت في مرحلة ما قبل ١٩٤٨ على إنجاز أهم عنصر متُضمَّن في الصيغة الصهيونية الأساسية ، أي التخلص من السكان الأصليين وتغييبهم . وثمة أدبيات ثرية في هذا الموضوع توثق النية الصهيونية المبيتة لطرد العرب ، وتبيِّن الطرق المختلفة التي لجأت إليها قوات المستوطنين لطرد الفلسطينيين . وقد وصف حاييم وايزمان خروج العرب بشكل جماعي (هرباً من الإرهاب الصهيوني) بأنه تبسيط لمهمة إسرائيل ونجاح مزدوج ، إذ يمثل انتصاراً إقليميًا وحلاً ديموجرافيًا نهائيًا ، بمعنى أن الأرض تم الاستيلاء عليها وتم تفريغها من سكانها حتى يتسنى للشعب الذي لا أرض له أن يهاجر إليها ويستوطنها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن وايزمان كان مخطئاً في نبوءاته متعجلاً فيها ، فالأرض لم يتم تفريغها تماماً من سكانها ، حيث بقيت أقلية من العرب وهي آخذة بالتزايد . وقد لجأت دولة المستوطنين إلى اتخاذ إجراءات قانونية للضرب على يد هذه الأقلية العربية وتكبيلها . ولم يكن ذلك أمراً عسيراً ، إذ ورثت هذه الدولة ، فيما ورثت ، خاصية اليهودية باعتبارها خاصية رئيسية ومحورية تسم اليهود الذين تقوم على خدمتهم مجموعة من المؤسسات الاستيطانية المقصورة عليهم . وبصدور قانون العودة في يوليه ١٩٥٠ ، تحوَّلت خاصية اليهودية هذه إلى مقولة قانونية تمنح صاحبها حقًا تنكره على غير اليهود .

وقد صدر هذا القانون عن الكنيست الأول عام ١٩٥٠ ، وخضع لتعديل لاحق في أغسطس عام ١٩٥٤ ، وهو ينطلق من الافتراض الصهيوني القائل بأن اليهود " شعب بلا أرض " ، شعب عضوي نُفي قسراً من وطنه فلسطين منذ ألفي عام . ولكن هذا النفي لم يؤثر في أعضاء هذا الشعب ، فغالبيتهم ـ حسب التصور الصهيوني ـ مرتبطون عضوياً تماماً بوطنهم ويريدون "العودة" إليه لينهوا حالة الشتات وليحققوا وحدة الشعب اليهودي بأرضه اليهودية . ومن هنا تسمية القانون بـ«قانون العودة» .

ويعني هذا الافتراض أيضاً أن فلسطين " أرض بلا شعب " ، وأنه إن وُجد شعب فيها في عشرات القرون الماضية فهو وجود عرضي ومؤقت ولا يُضفي على أعضاء هذا الشعب أية حقوق ثابتة ، إذ أن اليهود وحدهم لهم حقوق عضوية مطلقة في أرض فلسطين ، أو إرتس يسرائيل ، كما يُقال في الأدبيات الصهيونية والإسرائيلية واليهودية .

لكل هذا نص قانون العودة صراحةً على حق كل يهودي في الهجرة أو العودة إلى إسرائيل (بعد آلاف السنين من الغياب المؤقت) ، وأنكر بشكل ضمني هذا الحق على الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم عام ١٩٤٨ حتى يبقى المجال الحيوي لليهود وللدولة اليهودية ، خالياً من العرب (بالألمانية : أراب راين Arabrein) . ونص القانون على حق كل يهودي في الهجرة إلى إسرائيل ما لم يكن وزير الداخلية مقتنعاً بأن طالب الهجرة يمارس نشاطاً موجَّهاً ضد اليهود ، أو أنه يمكن أن يعرض الأمن والصحة العامة للخطر ، أو أن له ماضياً إجراميًا . وتضمن مواد هذا القانون الفريد حق اليهودي ، في حالة رفض هجرته لغير الأسباب السابقة ، في اللجوء إلى المحكمة العليا الإسرائيلية لإجبار السلطات على السماح له بذلك حتى ولو ظل مواطناً أجنبيًا على أرض دولة أخرى . كما يمنح القانون الأشخاص الذين يدخلون إسرائيل بموجبه الجنسية وحقوق المواطنة على الفور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبموجب المادة الرابعة من قانون العودة ، يُعتبر كل يهودي هاجر إلى فلسطين (قبل سريان القانون) وكل يهودي مولود فيها (قبل سريانه أو بعده) شخصاً جاء إلى فلسطين بصفة " مهاجر عائد " . ورغم أن هذا القانون قانون هجرة وليس قانون جنسية ، فإن اعتماد جوهره في قانون الجنسية الإسرائيلية جعل منهما كلاً متكاملاً .

وقد أشار بن جوريون إلى طبيعة قانون العودة إبان عرضه على الكنيست ، حيث ذكر أن هذا القانون لا يمنح اليهودي " الحق " في الهجرة إليها ، فهذا الحق كامن في كل يهودي باعتباره يهوديًا ، وإنما يهدف القانون إلى تحديد الطابع والهدف الفريد للدولة الصهيونية ، فهذه الدولة تختلف عن بقية دول العالم من حيث عناصر قيامها وأهدافها ، وسلطتها محصورة في سكانها ولكن أبوابها مفتوحة لكل يهودي حيث وُجد . وأكد بن جوريون أن قانون العودة هو التعبير القانوني عن الرؤية الصهيونية .

وفي مارس عام ١٩٧٠ ، أدخل الكنيست تعديلاً جديداً على القانون ، عقب نشوب أزمة وزارية متكررة الحدوث حول تعريف من هو اليهودي . وتَضمَّن التعديل أن اليهودي هو «المولود لأم يهودية أو المهتدي إلى الدين اليهودي والذي ليس على دين آخر» . كما نص على أن تُمنح الجنسية الإسرائيلية بصورة آلية لجميع أفراد الأسرة المهاجرة من غير اليهود .

وعُدِّل قانون العودة فيما بعد ، ووفقاً لهذا التعديل لا تُشترط الإقامة في إسرائيل أو إتقان اللغة العبرية أو حتى التنازل عن الجنسية الأخرى ، ويُكتفى للاستفادة بقانون العودة أن يعرب المهاجر على نيته في الاستقرار في إسرائيل .

وقد قارن كثير من الكُتَّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة والقوانين النازية . فعلى سبيل المثال ، أعرب الأستاذ الإسرائيلي د . كونفيتس ـ خلال النقاش الذي دار قبل الموافقة على قانون العودة ـ عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية ، ما دام يُجسد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس ديني أو عِرقي .

وبعد صدور هذا القانون ، حذرت جريدة **جويش نيوزلتر** ، في عددها الصادر في ١٢ مايو ١٩٥٢ ، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألماني يتمتع بمزايا جنسيته ، بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه .

وفي مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية ، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأي يهودي بموجب تعريف قوانين نورمبرج : أي أن يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جده يهوديًا . ويؤكد حاييم كوهين ، الذي كان قاضياً بالمحكمة العليا في إسرائيل أن : " من سخرية الأقدار المريرة أن تستخدم الأطروحات البيولوجية والعنصرية نفسها التي روج لها النازي والتي أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة ، كأساس لتعريف الوضع اليهودي داخل دولة إسرائيل " .

وهناك ، على الأقل ، حالة واحدة معروفة ، قامت فيها السلطات الدينية في إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية ، للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين . ورغم أن قانون العودة هو الإطار القانوني للتوسعية والعنصرية الصهيونية وهو مصدر الهوية اليهودية المزعومة للدولة الصهيونية (ومن ثم فهو أساس عزلتها وعدائها لجيرانها) ، ورغم أن أعداد اليهود التي ترغب في " العودة " إلى إسرائيل آخذة في التناقص (ومن هنا الضغط على اليهود السوفييت للهجرة إلى إسرائيل) ، فإن جميع اتفاقيات ومعاهدات السلام لم تتعرض له من قريب أو بعيد . بل وطُلب من منظمة التحرير الفلسطينية أن تلغي بنوداً أساسية في ميثاقها ، بينما لم يطلب أحد من إسرائيل أن تلغي قانون العودة .

العلاقة الفعلية بين النازية والصهاينة :

تتعدى العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البنيوي والتأثير والتأثر الفكريين ، إذ أن ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة . ولنبدأ بأدناها ، وهي كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم . فقد نشر الصهاينة في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتميز اليهودي العرْقي والانفصال القومي العضوي عن كل أوربا ، وذلك حتى قبل ظهور النازيين كقوة سياسية . ففي عام ١٩١٢ ، قدَّم عضوان في المنظمة الصهيونية مشروعاً بإيعاز من كورت بلومنفلد جاء فيه أنه ، نظراً للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الفلسطيني (أي الصهيوني) ، يعلن أن من الواجب على كل صهيوني ، خصوصاً من يتمتع باستقلال اقتصادي ، أن يجعل الهجرة جزءاً عضويًا من برنامج حياته . وقد سُمِّي هذا القرار «قرار بوزن» ، وأصبح منذ ذلك الحين الإطار العقائدي للصهيونية الألمانية التي تخلت بفضله عن أية أبعاد غير قومية ذات طابع خيري أو توطيني ، وأصبحت أيديولوجيا قومية عضوية ذات طابع استيطاني . وكان بلومنفلد خبيراً بالمناورات السياسية ، ولذلك نجح في تمرير قراره من خلال ما سماه بعض معارضيه «الأغلبية الطارئة» ، أي عن طريق تقديم مشروع القرار أثناء وجود المؤيدين وغياب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعارضين والحصول على موافقة الحاضرين . وقد اتهمه المعارضون بالمزايدة ، وفسَّروا تطرفه على أساس أنه يقبض راتبه من المنظمة الصهيونية وليس من الحكومة الألمانية أو أية هيئة أو مؤسسة ألمانية ، وأن هذا يسمح له بأن يتخذ مثل هذه المواقف وأن يمرر مثل هذه القرارات التي لا تعكس وضع يهود (أو حتى صهاينة) ألمانيا أو تطلعاتهم .

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية ، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية . وابتداءً من العشرينيات ، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية . ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر **كفاحي** بثلاثة عشر عاماً) ، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بيَّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية ، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة ، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني . أما وايزمان ، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم ، فقال : إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود . وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من اللازم ، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي . وفي الفترة نفسها ، وصف كلاتزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسكهم القومي . وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو ، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص ، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك . وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (المفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانيين في ألمانيا ، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق . فاليهود يواجهون خياراً نهائياً : إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا ، أو لا يكونون .

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني ، لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتَفهُّم وجهة نظره . فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ بأن اليهود ليس لهم مكان يمكنهم أن يختبئوا فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال : بدلاً من الاندماج ، نرى نحن الصهاينة وجوب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعرْق اليهودي . وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة ، كتبت **يوديش روندشاو** (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية . وفي نبرة ترحيب واضحة ، صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بالآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها . وقال : " ولذا ، فأنا شخصيًا ممتن لهم " . وترد نفس الفكرة النازية الصهيونية على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا ، ويضيف : " أنا أيضاً مثل هتلر أؤمن بفكرة الدم " . وبكثير من القلق ، لاحظ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمانيين) أنشطة الصهاينة وتصريحاتهم واعتبروها طعنة من الخلف في الحرب ضد الفاشية .

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي أصدرته المنظمة الصهيونية في ألمانيا ، في ٢١ يونيه ١٩٣٣ ، بعد وصول النازيين إلى السلطة (إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة) ، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat . والذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه . وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة . فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة ، دولة البعث القومي ، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم . وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي ، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل ، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه ، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها) . وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية ، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية ، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود . وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرْق ، أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثوابت الرؤية النازية ، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرْقية . كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرْقيًا ، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية .

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي ، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات . وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها ، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي . وكما يقول المذكرة الإعلان : " على تربة الدولة الجديدة ، ألمانيا النازية ، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم ، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين " . وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد : اليهودي المتجذر في تقاليده الروحية ، الواعي بنفسه الذي لا يحس بالحرج تجاه هويته ، وهو نموذج مختلف تماماً عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له والذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني ، وهو مختلف أيضاً عن اليهود المندمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية وللعرْق اليهودي وللماضي اليهودي (ولابد هنا من ملاحظة أن النموذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي) . ثم تمضي المذكرة قائلة إن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكلٍ أساسي، إذ لا مجال للعواطف عند تناول المسألة اليهودية ، فهي مسألة تهم كل الشعوب (وخصوصاً الشعب الألماني) في الوقت الراهن . وفي نهاية المذكرة/ الإعلان، شجب الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر ، والتي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصاديًا . ومما يجدر ذكره أن هذه الوثيقة لم تُكتشف إلا عام ١٩٦٢ ولم تُعط الذيوع الذي تستحقه ، رغم أنها تُلقي الكثير من الضوء على علاقة النازيين بالصهاينة. وربما لو عرف مؤرخو الإبادة النازية في الشرق والغرب بها لنظروا إلى الإبادة النازية لليهود نظرة مختلفة بعض الشيء .

ونشرت **يوديش روندشاو** مقالاً تعلن فيه عن استعداد الصهاينة للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم ، حيث أن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب . وهذا الموقف امتداد لموقف هرتزل حين ميَّز بين التعصب الديني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) والمعاداة الحديثة لليهود والتي وصفها بأنها حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول بالمعاداة المنهجية الرشيدة لليهود أو التي تم ترشيدها . وقد تبنى هتلر موقفاً مماثلاً حين ميَّز هو الآخر بين المعاداة العاطفية لليهود والمعاداة المنهجية لهم ، إذ تنتهي الأولى بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بالحل الصهيوني ، أي تهجير جميع اليهود من ألمانيا إلى " وطنهم " فلسطين . وقد حدَّد هتلر مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة (وهي القومية العضوية). كما قرر روزنبرج ضرورة مساندة الصهيونية بكل نشاط " حتى يتسنى لنا أن نرسل سنويًا عدداً محدداً من اليهود إلى فلسطين ، أو على الأقل عبر الحدود " . وحينما استولى النازيون على السلطة ، سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية ، سواء اتخذت شكل اجتماعات أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف ، أي أنهم سمحوا لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل . كما كانت المجلات الصهيونية هي المجلات الوحيدة غير النازية المسموح لها بالصدور في ألمانيا . وقد وتمتعت هذه المجلات بحريات غير عادية ، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة . وحتى عام ١٩٣٧ ، لم يتأثر عدد صفحات **يوديش روندشاو** بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات كل المجلات (وضمنها المجلات الآرية) . كما نشرت دور النشر الألمانية أعمال حاييم وايزمان وبن جوريون وآرثر روبين . ويقول إدوين بلاك مؤرخ اتفاقية الهعفراه (أي النقل) ، إن « الصهيونية هي الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون ».

وقد بيَّنا من قبل عدم اكتراث الصهاينة بالمقاومة اليهودية وغير اليهودية للنازيين . ولكن يبدو أن المسألة كانت تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود وعدم الاشتراك في المقاومة ، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا ، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود ، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود .

وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تعد مشكلة آلاف اليهود المهددين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني . وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين . وأكد بن جوريون أنه إن استولت " الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد " فإن ذلك سيؤدي إلى " شطب الصهيونية من التاريخ " . وفي العام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التالي صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية : " لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا ، مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين ، فإني أختار الحل الثاني ، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا ، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب ، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل" . وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً ، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣ ، صرح قائلا إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون " كلاً ثم كلاً " بشكل قاطع . وأضاف : " يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية . . . إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا " . وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال : " إن العجائز سيموتون ، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم ، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك " . وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي ، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من العالم ، مثل جمهورية الدومينيكان ، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين . ولهذا ، التزمت جولدا مائير ، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين ، الصمت الكامل حيال مداولات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها . (وقد فسَّرت موقفها هذا ، فيما بعد ، بأنها لم تكن تدري شيئاً عن عمليات الإبادة النازية) .

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني . فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوي وثني يشبه الإطار النازي) ، على عكس اليهودي المتألمن المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها ، لأنه حبيس هويته اليهودية ، شاء أو أبى . ولعل هذا يُفسِّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هو اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية . ولعله يفسر أيضاً لمَ كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم . فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين ، وباندماجهم في مجتمعاتهم ، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق ، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته ، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب ، أو الإدلاء بتصريحات ، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر . وقد قام كورت جروسمان ، في **كتاب هرتزل السنوي** (الجزء الرابع) ، بدراسة الموضوع ، ونشره تحت عنوان " الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات " . وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية . وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/ ٣٤ ١ ١ ٨) صادر عن الشرطة السياسية في بافاريا بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥ ، وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي . وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية التي تدرب اليهود تدريباً مهنيًا على الزراعة والحرف ، قبل تهجيرهم إلى فلسطين ، هو أمر في صالح الدولة النازية . بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٧١٨٦/ ٣٥ ١ ١ ٨) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه " يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا " . وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب ، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/ ٣٥١ ١ ١ ب) ليصحح هذا الوضع ، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه " لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق " .

كما اهتم النازيون كثيراً بنشاط التصحيحيين . ولهذا ، صدر تصريح (رقم ١٧٩٢٩/ ٣٥ ١ ١ ب) لمنظمتي الشباب القومي الهرتزلي وعصبة الأشداء (بريت هابريونيم) بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم . وقد مُنح التصريح ، كما جاء في التوجيه ، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي التصحيحيين) برهنوا على أنهم هم الذين يمثلون المنظمة التي تحاول ، بكل السبل ، حتى غير الشرعية منها ، أن ترسل أعضاءها إلى فلسطين . وكان من شأن التصريح بارتداء الزي أن يحفز أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الانضمام إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة ، حيث كان يجري حشهم بشكل أكثر كفاءة على الهجرة إلى فلسطين . وقد صدر تصريح (رقم ١٩٠٥٢/ ٣٥ ١ ١ ب) للمنظمات الصهيونية بتاريخ ٩ يوليه ١٩٣٥ بجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين ولشراء الأراضي هناك . ومُنح التصريح " لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية " . كما شجع النازيون المدارس العبرية والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودي التي تساعد على إظهار الهوية اليهودية والرجوع عن الاندماج ، بل ومنعوا اليهود من رفع الأعلام الألمانية وسُمح لهم برفع " العَلَم اليهودي " (أي عَلَم المنظمة الصهيونية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملاحظ أن أشكال التعاون بين النازيين والصهاينة ، والتي تناولناها حتى الآن ، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون) ، أو هي التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون) . ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الواعي . فهناك دلائل تشير إلى أن الجستابو وفرق الإس .إس S.S. (الصاعقة) ساعدت في تهريب المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين ، أي أن النازية لم تدعم الصهيونية التوطينية وحسب ، بل امتد دعمها إلى الصهيونية الاستيطانية أيضاً . ولكن أهم أشكال التعاون مع الصهاينة الاستيطانيين تم من خلال اتفاقية الهعفراه المبرمة بين النظام النازي وصهاينة المستوطن (دون علم الصهاينة التوطينيين أو يهود العالم) . ولا تكمن أهمية الاتفاقية في تبيان مدى عمق العلاقة بين الصهاينة والنازيين وحسب ، بل إنها تبين أيضاً مدى عمق التناقض بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين ، وهو تناقض سيطر على الحركة الصهيونية منذ ولادتها ولم تفلح الأيام إلا في زيادته حدة . ويمكن القول بأن إبرام اتفاقية الهعفراه كان أول مواجهة حقيقية بين الفريقين ، وقد كسب المستوطنون هذه الجولة الأولى .

وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نقل اليهود وإبادتهم (كاستنر ونوسيج) . كما توجد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح ، وهي عصبة الأشداء التي سبقت الإشارة لها . وبالمثل ، حاولت منظمة ستيرن تقنين عملية التعاون . وسنتناول أشكال التعاون هذه في بقية هذا الفصل .

معاهدة الهعفراه (الترانسفير) :

«هعفراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانسفير» . والنقل هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية . والهعفراه هو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأية طريقة ، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي ، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا ، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام . ومن أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صموئيل أُنترماير المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود بقيادة الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود ، وأسس منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة . وشكلت المقاطعة ، خصوصاً في الشهور الأولى ، تهديداً خطيراً للنظام النازي . ويذهب إدوين بلاك (مؤلف كتاب **الهعفراه** ، وهو أهم كتاب صدر في الموضوع في جميع اللغات) إلى أنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة ، فلربما كانت قد نجحت في تعبئة الجماهير غير اليهودية ، وانضمت بعض الحكومات إليها ، ولما نجح النازيون ، خصوصاً في الأشهر الأولى من تسلمهم السلطة ، في الإمساك بزمام الأمور " فاستجابة مباشرة وموحَّدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣ " .

ولكن المستوطنين الصهاينة كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم، فسافر الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩ – ١٩٣٣) إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها . وكانت المسألة بالنسبة إلى المستوطنين ملحة للغاية، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه رأس المال اليهودي المتوقع (وقد تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام) . وكان هنريش وولف قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجو له وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيداً وموضحاً المزايا التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم . وفي النهاية ، تم توقيع الاتفاق عام ١٩٣٣ الذي كان يقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة . وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك ووربورج في هامبورج ثم يُسمح باستعمال هذا المبلغ فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا ويتم تصديرها إلى فلسطين . وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين ، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها .

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً ، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها ، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أيّا كان نوعها . وأثناء تنفيذ الاتفاقية ، اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المستوطَن الصهيوني . كما قام المستوطنون الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة فرسان الهيكل) بالضغط ولكن دون جدوى، إذ أن هتلر نفسه قرر وجوب الاستمرار في العمل بالاتفاقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان (من المنظور النازي) كسر طوق المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم . وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي ، قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم أحسن ضمان لأقوى تأثير مضاد لإجراءات المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية . كما أكد القنصل الألماني العام في القدس الفكرة نفسها حين قال : " بهذه الطريقة ، يمكن أن نقوم نحن الألمان بحملة ناجحة في مواجهة المقاطعة اليهودية في الخارج ضد ألمانيا . وقد يكون بإمكاننا أن نحدث ثغرة في الحائط " . ولاحَظ القنصل أنه في الصراع الدائر ، بين الصهاينة التوطينيين (في الخارج) والصهاينة الاستيطانيين (في فلسطين) ، بدأت موازين القوى تتغيَّر لصالح المستوطنين : " إن فلسطين هي التي تعطي الأوامر ، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول ، وسيترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة " .

وقد أيَّده في ذلك فريتز رايخرت عميل الجستابو في فلسطين حين قال : " إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع ، انطلاقاً من فلسطين ، توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة لألمانيا . . . لقد دمرنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهعفراه في فلسطين ، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس ، أرسل برقيات إلى لندن أحدثت الأثر المطلوب " .

ويقول إدوين بلاك : " إن احتمالات انهيار الاقتصاد الألماني بدأ بالتناقص بسرعة بمرور الوقت . فحينما عقد أُنترماير اجتماعاً لاتحاده الدولي في أمستردام في أواخر يوليه ١٩٣٣ ، كانت الفرصة لا تزال جيدة . ومع نهاية أغسطس ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة " .

فماذا حدث في هذا المؤتمر ؟ لعل دراسة الوقائع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين الصهاينة وصهاينة الخارج التوطينيين وكيفية إدارتها ، وكذلك عن بعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي . فقد وُقِّعت الاتفاقية بشكل مبدئي في ١٧ أغسطس ١٩٣٣ وسُوِّيت كل النقط الفنية المعلقة في ٢٢ أغسطس بعد افتتاح جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (تشيكوسلوفاكيا) . وقد أدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر وركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية . وبعد افتتاح جلسات المؤتمر ، ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة عن يهود ألمانيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة . ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكاسب الإعلامية التي يطمحون إليها ، ولهذا أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ أغسطس ، وهو اليوم الذي كان محدداً لمناقشة وضع يهود ألمانيا في المؤتمر ، وقد تناقلت صحف أوربا الخبر ، وألقى سوكولوف خطبة ملتهبة قال فيها : " إن اليهود يحترمون إسبانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأن خروج اليهود جميعاً أفضل من إهانتهم على هذا النحو " . ورغم أن ألفاظه جاءت غاضبة شكلاً إلا أن مضمونها كان نازياً صهيونياً ، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود في أوطانهم وإنما عن حقهم في الخروج الكامل والنهائي منها .

وقدَّم الصهاينة التصحيحيون قراراً محدداً خاصًا بالمقاطعة ، ولكن العماليين نجحوا في فرض قرارهم . وكان النازيون قد أوقفوا مجلة **يوديش روندشاو** عن الصدور مدة ستة أشهر ، فرُفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تتباهى فيه بأن المؤتمر الصهيوني هزم بأغلبية ساحقة اقتراح التصحيحيين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة . وصدرت الصحف النازية مرحبة هي الأخرى بالموقف الإيجابي للمؤتمر .

وحينما افتُتحت جلسة ٢٥ أغسطس ، انهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصداقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تماماً في نهاية الأمر . فصعّد النازيون حملتهم الإعلامية الذكية ، وأعلنوا يوم ٢٧ أغسطس عن صفقة برتقال ضخمة مع المُستوطَن الصهيوني (أشار إليها أحد صهاينة الخارج بـ «البرتقالة الذهبية» قياساً على «العجل الذهبي») . وأرسل أُنترماير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت ، وهدد بأنه إن كان الأمر حقيقةً ولم يتم إلغاء الصفقة ، فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستنسحب من المنظمة الصهيونية . وفي يوم ٣١ أغسطس ، نشرت الحكومة الألمانية النص الكامل لاتفاقية الهعفراه ، فقُوبل الحدث بعدم تصديق من جانب يهود الخارج . ونشرت **جويش كرونيكل** النص باعتباره نكتة نازية رائعة ، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أية علاقة بالموضوع ، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية .

وفي ٢ سبتمبر ، طرح العماليون مشروع قرار يُحكم سيطرتهم الكاملة على الصهاينة التوطينيين جاء فيه : " كجزء من الانضباط الصهيوني ، لا يُسمح لأي فرد أو مجموعة داخل المنظمة الصهيونية بأن يشتغل بالسياسة الخارجية ، أو أن يتصل بالحكومات الأجنبية أو بعصبة الأمم ، أو أن يقوم بأية نشاطات سياسية من شأنها المساس بصلاحيات اللجنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التنفيذية " . ويتضمن هذا القرار تحريماً لكل أشكال الاحتجاج ضد النازية وضمن ذلك اتفاقية الهعفراه . وقد تم التصويت على القرار الساعة الثالثة صباحاً ووُفق عليه ، وأُجِّل التصويت على الاتفاقية ذاتها حتى آخر يوم . وبعد طرح مشروع قرار عمالي ومشروع قرار مضاد ، قام الزعيم العمالي برل كاتزنلسون فتحدث عن الانضباط وكيف أن مناقشة الهعفراه خرق له ، وبيَّن للمؤتمرين أنه توجد ، في كل الاجتماعات الديموقراطية ، مسائل مهمة لا يمكن مناقشتها . ثم اختتم كلمته قائلاً إن على كل هيئة صهيونية أن تعترف بأن إرتس يسرائيل لها أولوية على أي شيء آخر ، وأهم واجب هو إنقاذ حياة اليهود وممتلكاتهم من الخطر الذي يتعرضون له (ورغم أنه استخدم لغة الإنقاذ والإغاثة إلا أنه أحاطها بالإطار الأيديولوجي بتأكيده أولوية المُستوطَن على أي شيء آخر) . وقد وافق المؤتمر على مشروع القرار العمالي ، الذي لم يأت فيه سوى أنه لن يتم اتخاذ أي شيء من شأنه أن يتعارض مع موقف المؤتمر فيما يتصل بالمسألة اليهودية الألمانية ، أي أنه لن يقوم أي شخص بأي نشاط وسيُترك الأمر برمته للجنة التنفيذية . وقد وافق المؤتمرون في الجلسة نفسها على أن يصبح عَلَم المنظمة هو علم الدولة ، وأن يصبح نشيد الهاتيكفاه النشيد الوطني للدولة عند إنشائها ، وأنشد المؤتمرون النشيد واختُتمت أعمال المؤتمر . وقد أدركت **جويش كرونيكل** في ٣ سبتمبر أن الاتفاقية لم تكن نكتة نازية خفيفة بل حقيقة صهيونية نازية ثقيلة مريرة ، ونشرت جرائد أخرى أنباء الاتفاقية وما حدث في المؤتمر .

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ سبتمبر . ولما كانت أنباء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لبس أو إبهام ، فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن . وكانت هذه الفرصة كما يقول إدوين بلاك ، هي " الفرصة الأخيرة " أمام اليهود والصهاينة لكي يتخذوا قراراً حاسماً (خصوصاً وأن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة في التزايد) . ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بشأن المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني ، واكتفى بتأييد المعارضة التلقائية بين الجماهير . وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف الزعيم الصهيوني الأمريكي ستيفن وايز ، وكان قد أفشل قبلاً اجتماع أُنترماير في أمستردام ولندن . وحينما عُرضت الاتفاقية مرة أخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) ، بهدف نقضها ، رُفض مشروع القرار وتَقرَّر وضع نشاطات الهعفراه كافة تحت إشراف الإدارة الصهيونية .

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة . فقد نجح النازيون في تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود . وأما بالنسبة إلى المستوطنين ، فإن فترة الهعفراه تُعد أهم فترة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في تاريخ المُستوطَن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية . وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذي هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويُشكلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وكان بينهم ٦,٥٢٩ رأسماليًا يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمُستوطَن و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين.

كما ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥ ، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر ، بل وتخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه. وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل ، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول . ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً .

أشكال أخرى من التعاون بين النازيين وأعضاء الجماعات اليهودية :

لعل معاهدة الهعفراه هي أهم أشكال التعاون المؤسسي بين النازيين والصهاينة . ولكن يجب ألا نغفل أشكال التعاون المؤسسي الأخرى ، المتنوعة والمتعددة ، والتي سنورد بعض أشكالها وجوانبها في بقية هذا الفصل .

١ ـ المجالس اليهودية :

«المجالس اليهودية» ترجمة للعبارة الألمانية «يودين رات Judenrat» . وهي مجالس كان يقيمها النازيون بين الجماعات اليهودية التي تقع تحت سلطتهم . وكان سلوك أعضاء المجالس يندرج تحت واحد من أربعة أنماط :

أ) تعاون من نوع ما في المجالات الاقتصادية والمادية .

ب) استعداد للاستجابة للمطالب النازية حين يتعلق الأمر بمصادرة الممتلكات والأشياء المادية الأخرى ، مع رفض كامل لتسليم اليهود .

جـ) قبول اضطراري لإبادة جزء من الجماعة اليهودية على أمل إنقاذ الجزء الآخر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د) الخضوع التام للمطالب النازية نظير حماية مصالح القيادة اليهودية .

ويبدو أن القيادات اليهودية القديمة كانت تسلك وفق النمطين الأولين . ولكن النمطين الثالث والرابع سادا في المراحل الأخيرة حينما ترأست المجالس اليهودية شخصيات يهودية جديدة لم تضطلع بدور القيادة من قبل .

وكان النازيون يحاولون ، قدر المستطاع ، أن يضموا إلى هذه المجالس العناصر الصهيونية أو اليهودية القومية باعتبارها عناصر حديثة تشاركهم الرؤية في أن أوربا ليست وطن اليهود ، وأنه يجب إخلاؤها منهم ، وأن كفاح اليهود (باعتبارهم شعباً عضوياً [فولك]) يجب أن ينصرف إلى الهجرة لا إلى المقاومة والثورة . وقد نجحت هذه المجالس في إدارة أمور الجماعات وضمان سكوتها . وكان كثير من الصهاينة أعضاء في هذه المجالس ، بل ويُقال إن النازيين كانوا يفضلون الصهاينة على غيرهم من اليهود بسبب اتفاق الفريقين في المنطلقات الفكرية بينهما .

وتُثير المجالس اليهودية قضية التعاون مع النازيين . وقد عَرَّفت **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** التعاون بأنه علاقة تعني قدراً من المشاركة ، وأنها اتفاق إرادي حر بين فريقين . ومن ثم خَلُصت **الموسوعة** إلى أنه لا يمكن اتهام المجالس اليهودية بالتعاون مع النازيين ، لأنها كانت مجرد أداة سلبية خاضعة للضغط النازي تنفذ ما يُطلب منها . كما أن المقاومة على أي حال لم تكن تُجدي فتيلاً لأن المخطط النازي كان لابد أن يُنفَّذ مهما كان حجم المقاومة .

ووجهة النظر التي تطرحها **الموسوعة اليهودية** مقبولة إلى حدٍّ كبير ، وتتسم بشيء من التعاطف الإنساني المطلوب مع أفراد وجدوا أنفسهم تحت سكين الجلاد فسلكوا سلوكاً إجرامياً قد لا يوافقون عليه بالضرورة ، ولهذا فلا يمكن أن يُعدوا مسئولين عما ارتكبوه من جرائم . لكن التعاطف الإنساني يجب ألاَ يعرف أية حدود ، ويجب ألا يُميِّز بين اليهود والأغيار ، ولذا ينبغي أن يُطبَّق هذا المعيار على كل من تعاون مع النازيين ، فهم أيضاً كانوا يعيشون في ظل الإرهاب النازي ، وكثيرون منهم نفذوا تعليمات النازي خشية الإرهاب ، ومن ثم لم يكن هناك أي قدر من المشاركة والاختيار الحر . وانطلاقاً من ذلك ، فإن محاكمة مجرمي الحرب ، خصوصاً من صغار الموظفين ، تصبح مسألة غير قانونية وغير إنسانية . بل إن قبول مثل هذه الأطروحة يجعل من الممكن استبعاد جميع المتعاونين تقريباً من قوائم الاتهام ، بل وتبرئة ساحتهم . فالنظام النازي كان نظاماً حديثاً شمولياً حقق مستوى عالياً من الكفاءة العميقة في الوصول إلى جميع الأفراد وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محاصرتهم إعلامياً ، وكان يمتلك جهازاً أمنياً تنفيذياً قادراً على الحركة السريعة ، وعلى معاقبة كل المنحرفين . وكان المنحرفون من الألمان يُعاقبون بقسوة بالغة ، لأنهم أعضاء في الشعب الألماني العضوي (المختار) وانحرافهم أمر غير مفهوم وغير مبرر ، ويتطلب إنزال عقوبات عليهم تفوق ما ينزل على البشر العاديين من عقوبات .

أما افتراض عدم جدوى المقاومة من البداية فهو افتراض خاطئ ، إذ يمكن للمرء تخيل ملايين الضحايا من اليهود وغير اليهود وقد رفضوا أن يستقلوا القطارات التي تقلهم إلى معسكرات السخرة والإبادة تحت ظروف الحرب ، فلعل مثل هذه المقاومة كانت ستوقف آلة الحرب الألمانية أو على الأقل ترهقها لدرجة تجعل القيادة تعدل عن تنفيذ مخططها الإبادي . وهنا تبرز مسئولية مجالس اليهود ، فهي التي قامت بتهدئة الضحايا بشتى الوسائل وبإقناعهم بالرضوخ حتى تم تنفيذ المخطط النازي أو معظمه . ويذهب أيزياه ترانك (في كتاب له صدر عام ١٩٧٢) إلى أن هناك من يرى أنه لو لم يتبع اليهود تعليمات المجالس اليهودية لتمكن ما يزيد عن نصفهم من الهرب من الإبادة .

ويرى المفكر الديني اليهودي ريتشارد روبنشتاين أن تراث يهود العالم، منذ أن تركوا فلسطين بعد تحطيم الهيكل ، ولّد فيهم قابلية للاستسلام والخنوع ، وأن هذه القابلية هي التي جعلت بإمكان المجالس اليهودية أن تلعب هذا الدور، وأن تضع أعضاء الجماعات اليهودية في براثن النازي .

٢ ـ رابطة الثقافة اليهودية :

«رابطة الثقافة اليهودية» (بالألمانية : يوديشر كولتوربوند Juedischer Kulturbund) منظمة ألمانية يهودية تأسست في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ ، بمبادرة من النظام النازي وبعض المثقفين الألمان اليهود مثل كورت باومان وكورت سنجر ويوليوس باب وفرنر ليفي . وتصدر الجماعة عن الإيمان بفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ . حيث ذهبوا إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية هم أعضاء في شعب عضوي (فولك) ، ومن ثم لا يحق لهم المشاركة أو المساهمة في الحياة الثقافية العامة في ألمانيا ، وهو افتراض قبله الصهاينة وكثير من المثقفين اليهود في ألمانيا وخارجها قبولاً تامّاً . وكان مفهوم الشعب العضوي هو القيمة الحاكمة والمسلمة النهائية في المنظومة النازية ، ولذا بارك جوبلز وزير الدعاية النازي نفسه فكرة تأسيس الرابطة التي استمرت في نشاطها حتى عام ١٩٤١ ، وكانت بمثابة المنبر الأساسي للكُتّاب والموسيقيين اليهود . وقد بلغ عدد أعضائها ١٧ ألفاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم زاد إلى ١٩ ألفاً بعد عدة شهور ، وكان يعمل فيها عدد كبير من الموظفين و١٢٥ من الموسيقيين والممثلين والمغنين، وكانت تُطبَع بعض منشوراتها بالعبرية واليديشية (الوعاء الثقافي لتراث الشعب العضوي) .

ونظراً لنجاح الرابطة ،تم في عام ١٩٣٨ تأسيس شبكة قومية من فروع الرابطة في كل أنحاء ألمانيا بلغ عددها ١٦٨ فرعاً ، وبلغ عدد أعضائها ١٨٠ ألفاً (أي أنها كانت تضم معظم يهود ألمانيا الراشدين) ، بل وبلغ حجم العضوية في برلين وحدها ما بين ١٢ ألفاً و١٨ ألفاً . وبلغ عدد الفنانين اليهود التابعين للرابطة حوالي ألفين . وقامت الرابطة بتنظيم ما يقرب من ٨٤٥٧ برنامجاً تشمل محاضرات وحفلات ومسرحيات وعروضاً فنية . وحققت إيراداً بلغ مليوناً وربع مليون مارك . كما كان لها جريدتها الخاصة . وقد شاركت الرابطة بنشاط ملحوظ في الدعاية النازية ، سواء في الداخل أم في الخارج . ففي الداخل ، قامت الرابطة بزيادة التماسك العضوي والوعي اليهودي بين أعضاء الجماعة اليهودية ، الأمر الذي يعني زيادة عزلتهم وإعطاء مصداقية للرؤية النازية لليهود . أما بالنسبة للخارج ، فكانت تعطي صورة مشرقة للحكم النازي في علاقته باليهود وفي سماحه لهم بالإفصاح عن هويتهم العضوية . ورغم أن أغلب البرامج الثقافية والعلمية المقدمة من قبَل الرابطة كانت تخضع لرقابة البوليس السري (جستابو) وغرفة الفنون والثقافة ثم لرقابة قيادات الحزب النازي في برلين ، إلا أن السلطات النازية حرصت على استمرار نشاط الرابطة حتى بعد أحداث عام ١٩٣٨ ، حينما تم الهجوم على الممتلكات اليهودية وإلقاء أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية في معسكرات الاعتقال ، واستجابت لمطالب رؤساء الرابطة الخاصة بالسماح لهم باستخدام المسارح الألمانية لتقديم عروض الرابطة وتأسيس دور عرض سينمائي خاصة بها . كما عرضت تقديم دعم مالي لها ، وقامت بتقديم الأرباح التي حققتها من خلال جريدتها ودور العرض السينمائي إلى المنظمات المختصة بتنظيم هجرة أعضاء الجماعة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وقد نجح بعض قادة الرابطة في الهجرة ، وتم حل الرابطة بشكل نهائي عام ١٩٤١ بأمر من الحكومة .

ولم تكن هذه الرابطة حادثة عرضية في تاريخ علاقة النازيين بالجماعة اليهودية . فقد أظهر النازيون دائماً اهتماماً غير عادي بالثقافة اليهودية باعتبارها تعبيراً عن أن الشعب اليهودي شعب عضوي مستقل . ولذا ، أسست السلطات النازية أهم متحف يهودي في العالم آنذاك في تشيكوسلوفاكيا (ولا يزال هذا المتحف قائماً) . وفي مستوطنة تيريس آينشتات، ازدهرت الثقافة اليهودية ، وكانت الفرق الموسيقية تقدم عروضاً للزوار الأجانب وتصور الأفلام وتوزعها على العالم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يكن سلوك النازيين هذا ينم عن أي تسامح أو اضطهاد ، وإنما هو تعبير عن إيمان بأن القومية العضوية تشكل أرضية تفاهم مشتركة بينهم وبين الصهاينة ، وهي أرضية لا توجد بينهم وبين أي فريق يهودي آخر .

٣ ـ تيريس آينشتات :

«تيريس آينشتات Theresienstadt» مدينة في تشيكوسلوفاكيا (وتُسمَّى «تيريزين» بالتشيكية) حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥ . رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة ، باعتبار أن هذا يعني بقاء يهود تشيكوسلوفاكيا في وطنهم . ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلاميًا بحيث تُقدَّم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على " حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث " (وهو اسم أحد الأفلام التي صُورت في المستوطنة) .

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تُعيِّنه السلطات الألمانية . وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة ، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم ، كان من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٣٧ يهوديًا إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها ، أي حوالي ٢٥٪ ، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال . وحينما تم تحرير المستوطنة وكان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ شخصاً .

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا :

أ) يُلاحَظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها أو مقابلة مندوبي الصليب الأحمر الدولي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود ، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة .

ب) وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة ، فلم يكن النازيون مجرد جزارين على الطريقة التقليدية ، وإنما كانوا يلجأون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميِّزين واليهود العاديين .

جـ) ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم .

د) ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أية دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها ، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي ، وهو ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن التجربة النازية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية .

هـ) ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة ، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز . **فالموسوعة اليهودية (جودايكا)** تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب ، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤,٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى ، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المُرحَّلين الجدد الآلاف ، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي . فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل وبعد انتهاء الحرب ، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز ؟

٤ ـ جيتو وارسو :

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس آينشتات " النموذجية " في بوهيميا في المجر .

ومن أهم الجيتوات جيتو وارسو الذي بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام ، وكان له اثنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وكان التعريف الذي تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته فيما بعد دولة إسرائيل والذى يستند إليه قانون العودة الصهيونى) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ له شخصيته القومية المستقلة . ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعي) . كما سُمحَ لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي ، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها ، وبأن يصدر جريدته اليومية بل وكان له ميليشيا ومحاكم خاصة به ، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة منعزلة ثقافيًا واقتصاديًا عما حولها ، وهو بهذا استمرار لتقاليد القهال والإدارة الذاتية والشتتل التي يمجدها الصهاينة في كتاباتهم، وهو يشبه في كثير من الوجوه الدولة الصهيونية المشتولة في الشرق الأوسط .

وكان يدير الدويلة/ الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» ، تُعيِّن السلطات النازية أعضاءه . ولكن استقلالية الدويلة/ الجيتو لم تكن كاملة ، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يوميًا يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وكان العامل البولندي ، يهوديًا كان أم غير يهودي ، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألماني .

ولا ندري هل وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو (بالمعنى الخاص للكلمة ، أي بمعنى التصفية الجسدية) من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين ، أم أن عملية الإبادة تمت كنتيجة حتمية ، ليست بالضرورة متعمدة ، للبنية الاستغلالية التي فرضها النازيون ؟ فقيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية العاملين اليهود الأساسيين ، الأمر الذي كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدويلة/ الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية ، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وببطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة (عن طريق التجويع) مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أن الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أي خلال ستة وثلاثين شهراً ، شهدت زيادة عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فحسب معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ في العام . ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدَّت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً في العام ، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف ، الأمر الذي يعني أنه كان من الممكن اختفاء كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع في السنوات الأخيرة بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو ، ومن ثم ، فإن خمس أو ست سنوات كانت كافية في تصورنا لإتمام هذه العملية .

وكانت علاقة الدولة النازية بدويلة/ جيتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهاينة) . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم ، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً ، ومن ثم كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة ، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره ، كما أن سكان " المناطق " المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة . وكل هذا يجعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوربا مع النازية . فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جيتو وارسو أو مستعمرة تيريس آينشتات .

٥ ـ جماعة ستيرن :

جماعة صهيونية مراجعة حاولت التعاون مع النازيين باعتبار أن ثمة فارقاً عميقاً بين ما سمته الجماعة «مضطهدي الشعب اليهودي» وأعدائه . فمضطهدو الشعب اليهودي أمثال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هامان وهتلر موجودون في كل زمان (فالصهاينة يؤمنون بحتمية العداء لليهود واليهودية). ولكن الأمر جدٌ مختلف بالنسبة لأعداء اليهود ، فهؤلاء هم الأجانب الذين يهيمنون على فلسطين ويمنعون اليهود من العودة إليها لينهوا حالة المنفى ويؤسسوا وطنهم القومي فيها. وبناءً على هذه الأطروحة الصهيونية الراديكالية لم يجد أعضاء ستيرن أية غضاضة في التفاوض مع النظم الشمولية بهدف التعاون الوثيق معها . فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء ستيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين .

ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي . ولتحقيق هذا الغرض أرسل أعضاء ستيرن مندوباً إلى بيروت (التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الموالية للنازيين) للتفاوض مع قوات المحور . وقد قابل هذا المندوب ، في يناير ١٩٤١ ، مواطنين ألمانيين أحدهما هو أوتو فون هنتج ، رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الألمانية ، والذي كان يشعر بالإعجاب العميق للصهيونية .

وبعد الحرب اكتُشفت وثيقة (في أرشيف السفارة الألمانية في أنقرة) أرسلتها جماعة ستيرن للحكومة الألمانية تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربا واشتراك أعضاء جماعة ستيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء . وتنص الوثيقة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية . وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية . (وصفت ستيرن نفسها بأنها حركة تشبه الحركات الشمولية في أوربا في أيديولوجيتها وبنيتها) . كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية ، وتعبِّر عن تقدير جماعة ستيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين . وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري.

ولم يتلق الجانب الصهيوني رداً ، ولذا أرسلت جماعة ستيرن مندوباً آخر في ديسمبر من العام نفسه إلى تركيا (بعد احتلال البريطانيين للبنان) ولكن قُبض على هذا العميل .

وكان إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل السابق ، عضواً في جماعة ستيرن . ويؤكد الباحث الإسرائيلي باروخ نادل أن شامير كان يعرف بخطة ستيرن للتعاون مع النازيين . وحينما عُيِّن وزيراً للخارجية ثار الرأي العام العالمي بسبب تعيين إرهابي مثله (قام بتدبير عملية اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٤٢ والكونت فولك برنادوت عام ١٩٤٨) ، ولكن أحداً لم يتطرق إلى ماضيه النازي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ ـ عصبة الأشداء :

«عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية : «بريت هابريونيم») جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أحيمئير (١٨٩٨ - ١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينبرج . وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها . وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية . وكما قال أحد كبار الصهاينة التصحيحيين " نحن التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر ، فهو الذي أنقذ ألمانيا ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام ، وسنتبعه إن هو تخلى عن معاداته لليهود " . وكانت مجلة **عصبة الأشداء** في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر والهتلرية . وكان من بين هتافات أعضاء العصبة " ألمانيا لهتلر ، وإيطاليا لموسوليني ، وفلسطين لجابوتنسكي " . كما مجّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين ، فكانوا يشبهون أنفسهم بجماعة حملة الخناجر ، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم ، وذلك أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة) . وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى ، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر . وكما قال أحميئير ، فإن " الماشيَّح لن يأتي راكباً على حمار " ، وهو ما يعني أن الماشيَّح الصهيوني سيأتي راكباً دبابة ، حاملاً القنابل العنقودية ! وتعود أهمية الجمعية إلى تأثيرها في حركة التصحيحيين ككل ، فقد تحولت مجلتهم (التي صدرت ابتداءً من يناير ١٩٣٢) إلى لسان حال العمال التصحيحيين ، وشنت حملات شعواء على المعسكر العمالي بأسره .

ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية ، إلا أنه كان يعبِّر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم . ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم بل أطلق على أحيمئير (بنبرة لا تخلو من التهكم) اسم «معلمنا ومرشدنا الروحي»، كما أن الحاخام إسحق كوك دافع عنهم . وتذكر **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن مناحيم بيجين انضم إلى الجناح الراديكالي لحركة التصحيحيين الذي كان مرتبطاً بعصبة الأشداء (لم تذكر الموسوعة في المدخل عن أحميئير أي شيء عن اتجاهاته النازية المذكورة، واكتفت بالإشارة إلى أفكاره " الراديكالية ") . وقد استمرت العلاقة بين بيجين وأحميئير حتى بعد إعلان الدولة ، فسمح بيجين ، باعتباره رئيس حزب حيروت ، بأن يكتب أحميئير في الجريدة اليومية للحزب ، إلى أن مات عام ١٩٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصيات صهيونية تورطت في التعاون مع النازيين :

من الصعب حصر كل الشخصيات الصهيونية التي تورطت في التعاون مع النازيين . ولعل الدراسة العلمية ، المتأنية والمتعمقة ، تنجح في حصر بعضهم أو حصرهم جميعاً ، وفي تحديد مسئولية كلٍّ ، والظروف التي أدَّت إلى تعاونه ومدى تورطه . وسنحاول في بقية هذا الفصل أن نورد بعض هذه الشخصيات ونناقش طبيعة تعاونها مع النازيين .

١ ـ ألفريد نوسيج (١٨٦٤ - ١٩٤٣) :

أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل ، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين ، وهو فنان وشاعر وموسيقار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية ، كانت مواهبه متعددة ومتنوعة عبَّر عنها من خلال الأدب (قصائد ومسرحيات ومقالات في النقد الأدبي) والموسيقى (لبريتو لإحدى الأوبرات) والنحت (عُرِضَت تماثيله في معظم أرجاء أوربا وذاعت شهرته كنحات) . وقد بدأ حياته ، شأنه شأن معظم الزعماء الصهاينة، خصوصاً الذين كانوا من أصل ثقافي ألماني ، بالمطالبة بالاندماج الكامل لليهود ، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية . وفي عام ١٨٨٧ ، نشر كتيبه **محاولة لحل المسألة اليهودية** (بالبولندية) ، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة . وقد ترك هذا الكتيب أثراً عميقاً على المثقفين اليهود في أوربا خصوصاً في جاليشيا . ومنذ ذلك التاريخ، أصبح نوسيج نشيطاً في المجال الصهيوني فألَّف الكتب ودبج المقالات عن موضوع الاستيطان وغيره .

وقد يتصور البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعته الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك . ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية ، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية . فهؤلاء يهود غير يهود، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل والانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرْقية) . ولكن المجتمع صنفهم "يهوداً" . ولهذا، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود ، ووجدوا ضالتهم في الحل الصهيوني ، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوربا خارجها، إلى أن يفرغها من يهوديها في نهاية الأمر . وهذه عملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهِّل اندماج القلة التي ستبقى .

شارك نوسيج في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، واصطدم مع هرتزل لأسباب لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تذكرها المراجع التي عدنا إليها . ولكنه استمر في حضور المؤتمرات الصهيونية ، وصوت ضد مشروع شرق أفريقيا (باعتبار أنه مشروع بريطاني ، بينما كان متحمساً للمشروع الاستعماري الألماني) . ويبدو أن نوسيج كان عضواً في العصبة الديموقراطية ، إذ أنه ساهم (عام ١٩٠٢) مع مارتن بوبر وحاييم وايزمان وليو موتسكين في تأسيس أول دار نشر صهيونية في برلين نشرت العديد من الكتب . ويُعتبر نوسيج واضع أساس علم الإحصاء الخاص بين الجماعات اليهودية ، فنشر أعمالاً بين عامي ١٨٨٧ و١٩٠٣ ووضع أساس إنشاء المعهد الإحصائي والسكاني (الديموجرافي) اليهودي .

وهدف الصهيونية (حسب تعريف معظم مؤسسيها) هو نقل اليهود من أوربا وإفراغها منهم لحل المسألة اليهودية ، ونوسيج ينتمي إلى هذه المنظومة الفكرية التوطينية (الترانسفيرية) . فكان معظم فكره يدور حول تهجير اليهود، وكان هذا يأخذ شكل محاولة زيادة وعيهم بهويتهم اليهودية العضوية حتى يَضمُر ويذوي إحساسهم بالانتماء إلى أوربا . وقد أنجز نوسيج ذلك من خلال أعماله الفنية مثل تماثيله : «اليهودي التائه» و«يهودا المكابي» و«الملك سليمان» و«الجبل المقدَّس» . كما أسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود . فهو ، شأنه شأن نوردو ، كان في عجلة من أمره . ولعل طول الانتظار هو الذي دفعه إلى التعاون مع النازيين ، لأنهم أيضاً ذوو نزعة توطينية ترانسفيرية . فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، وعيَّنه تشيرنياكوف ، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي ، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون . ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التي أسلفنا الإشارة إليها) ، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوربا من يهوديها ، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم . وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو ، فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفذ الحكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣ . وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية .

٢ ـ مردخاي رومكوفسكي (١٨٧٧ - ١٩٤٤) :

صهيوني بولندي ورئيس المجلس اليهودي في جيتو لودز خلال الحرب العالمية الثانية . وُلد في روسيا ثم استقر في مدينة لودز مع بداية القرن العشرين . كان عضواً في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العشرين . كان عضواً في الحزب الصهيوني العمومي ، وقام بتمثيله في لجنة الجماعة اليهودية في لودز . كان رومكوفسكي مؤمناً بأن التعاون مع الألمان سيُعزز وضع اليهود ، خصوصاً إذا زادت مساهمتهم وأهميتهم بالنسبة للمجهود الحربي الألماني . ولهذا عُيِّن ، بعد احتلال الألمان لمدينة لودز عام ١٩٣٩ ، رئيساً للمجلس اليهودي فيها ، أي كبيراً لليهود ، ومنحه المسئولون الألمان في جيتو لودز (الذي ضم ١٧٠ ألف يهودي) سلطات إدارية واسعة . وتَعزَّز موضعه القيادي بسبب مهارته التنظيمية ، فكان مسئولاً عن إقامة الورش التي أمر الألمان بإنشائها لاستغلال عمل اليهود ، والتي بلغ عددها ١٢٠ ورشة . ومع مرور الوقت ، عمل رومكوفسكي على تركيز جميع السلطات في يده وأصبحت إدارته أكثر استبداداً . وعندما أمرت السلطات الألمانية الجيتو بإصدار عملة نقدية خاصة به (باعتباره كياناً يهوديًا مستقلاً وبدلاً من استخدام العملة البولندية أو الألمانية) ، طُبعت على الأوراق المالية الجديدة صورته .

اشترك رومكوفسكي في عمليات ترحيل ونقل يهود لودز إلى معسكرات الاعتقال الألمانية ، وكان مسئولاً مع معاونيه عن تحديد من سيتم ترحيله ، الأمر الذي جلب عليه كراهية كثير من سكان الجيتو . وقد ضمت قوائم المرحلين كثيراً من معارضيه داخل الجيتو . وخلال الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٤٢ ، تم ترحيل ٥٢ ألف يهودي من الجيتو بمعاونة رومكوفسكي الذي ظل مؤمناً بأن التعاون مع الألمان هو أفضل سبيل لتخفيف وطأة هذه المأساة . وقد قام الألمان بتصفية الجيتو في نهاية الأمر عام ١٩٤٤ ، ورُحِّل رومكوفسكي مع أسرته إلى معسكر أوشفيتس حيث مات .

وتُعَدُّ شخصية رومكوفسكي شخصية مثيرة للجدل في الأدبيات اليهودية التي تؤرخ لفترة الإبادة النازية ، حيث يحمِّله البعض مسئولية إبادة يهود جيتو لودز . وهو يُعد مثلاً جيداً على ذلك التعاون بين قيادات الجماعات والمجالس اليهودية من جهة والسلطات النازية من جهة أخرى .

٣ـ آدم تشرنياكوف (١٨٨٠ - ١٩٣٢) :

صهيوني بولندي ورئيس مجلس الجماعة اليهودية في وارسو خلال الحرب العالمية الثانية . وأول رئيس للمجلس اليهودي في وارسو ، والذي شكلته سلطات الاحتلال النازية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان تشرنياكوف من النشطين في مجال شئون الجماعة اليهودية في بولندا عقب الحرب العالمية الأولى ، واهتم بشكلٍ خاص بشئون الحرفيين اليهود الذين كانوا يشكلون ٤٠٪ من تعداد الجماعة ، وقام بالتدريس في شبكة المدارس اليهودية المهنية في وارسو . وانتُخب في الفترة بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٤ عضواً في مجلس مدينة وارسو ، كما انتُخب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة عضواً في المجلس التنفيذي للجماعة اليهودية ، ثم عيِّنه عمدة وارسو بعد اندلاع الحرب رئيساً لمجلس الجماعة اليهودية . وبعد احتلال القوات الألمانية للمدينة ، عينته السلطات النازية رئيساً للمجلس اليهودي ، وأوكلت إليه مهمة تنظيم الجماعة اليهودية في جيتو خاص بها ، وكان على اتصال وثيق بالسلطات النازية ، خصوصاً مع قوميسار الجيتو الألماني . وقد وجه بعض أعضاء الجماعة اليهودية انتقادات حادة للمجلس اليهودي ونشاطه وحاول بعضهم إقصاء تشرنياكوف . ويُقال إن تشرنياكوف لم يصدق ، عندما بدأت عمليات ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال ، أنهم سيتم ترحيلهم بالفعل . ولكنه أدرك في نهاية الأمر أبعاد المخطط ، فرفض التعاون مع الألمان ورفض التوقيع على أوامر الترحيل ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار .

وقد ترك تشرنياكوف يوميات دوَّن فيها جميع الأحداث المهمة التي جرت داخل الجيتو وجميع ملاحظاته ومشاهداته . وتعتبر هذه اليوميات مرجعاً مهمّاً لأوضاع وظروف جيتو وارسو إبان الاحتلال النازي .

وتثير حياة تشرنياكوف قضيتين : أولهما قضية مدى مسئولية القيادات اليهودية عن نجاح النازيين في تنفيذ مخططهم . أما القضية الثانية فهي خاصة بمدى معرفة العالم الخارجي بما كان يدور في ألمانيا من عمليات تهجير وقمع وإبادة ، إذ يذهب بعض الدراسين إلى أن العالم بأسره لم يكن يعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا النازية وعن عمليات الإبادة ، ومن ثم لم يتخذ أية إجراءات للحيلولة دون وقوع مثل هذه العمليات ، بينما تصر الأدبيات الصهيونية على أن العالم ترك اليهود وحدهم لمصيرهم ، الأمر الذي يعني صدق المعادلة الصهيونية البسيطة : اليهود ضد الأغيار . ولكن تشرنياكوف (وهو ، كما بيَّنا ، واحد من أهم الشخصيات القيادية اليهودية وكان يعيش داخل بولندا ويترأس الجيتو اليهودي في وارسو ، وكان على علاقة يومية مع السلطات النازية) لم يكن يعرف شيئاً عن الترحيل أو عن أفران الغاز ولم يصدق ما كان يحدث من حوله ، وقد تعاون مع النازيين ، كما تُقرر المراجع الصهيونية ، لأنه لم يكن يدرك إطلاقاً ما كان يحدث من حوله ، ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يصل إلى مسامعه شيء إلا في عام ١٩٤٢ ، أي قرب نهاية الحرب ، فكيف كان بإمكان العالم الخارجي أن يعرف عن الاعتقال والتهجير والإبادة ؟

٤ ـ حاييم كابلان (١٨٨٠ - ١٩٤٢) :

مرب بولندي صهيوني دوَّن يومياته في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا . وُلد في بلوروسيا وتلقى تعليماً تلمودياً في المدرسة التلمودية العليا (يشيفا) ، ثم درس في المعهد الحكومي التربوي في فلنا . وفي عام ١٩٠٢ ، استقر في وارسو حيث أسس مدرسة ابتدائية عبرية كانت جديدة في نوعها ، وظل مديراً لها لمدة أربعين عاماً ، وكان كابلان شديد التحمس للغة العبرية ومن العارفين بها والدارسين لها . وقد تبنى في تدريسه للعبرية الأسلوب أو المنهج المباشر ، فكان يدرسها كلغة حية متداولة باستخدام اللهجة السفاردية . وأصدر كابلان عدة كتب بالعبرية يدعو فيها إلى تبني هذا المنهج في التدريس ، وذلك رغم المعارضة القوية من المؤمنين بالأساليب التقليدية . كما اشترك كابلان بشكل نشط في جمعية الكُتَّاب والصحفيين اليهود في وارسو ونشر العديد من المقالات وأصدر العديد من المجلات العبرية واليديشية على مدى الأعوام الأربعين التي عمل بها في التدريس . كما أصدر ، إلى جانب ذلك ، كتباً خاصة بالنحو العبري وكتباً للأطفال تتناول ما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» و«التاريخ اليهودي» . وكان كابلان من المؤمنين بالقومية اليهودية ، أي الصهيونية ، والتاريخ اليهودي الواحد ، وكانت يهوديته ذات طابع قومي حيث لم يكن متمسكاً بممارسة الشعائر والتقاليد الدينية . وقد اتجه إلى فلسطين عام ١٩٣٦ حيث كان ينوي الاستقرار مع ابنيه اللذين هاجرا للاستيطان بها من قبل ، إلا أنه عاد إلى وارسو بعد أن فشل في العثور على عمل .

وتعود أهمية كابلان إلى أنه دوَّن يومياته وهو في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا وقبل أن يُدمَّر الجيتو بأكمله . وقد بدأ كابلان في كتابة يومياته بالعبرية ابتداءً من عام ١٩٣٣ وسجل فيها الأحداث اليومية لمجتمع الجيتو ، كما سجل أفكاره وحواراته مع أصدقائه وانطباعاته العديدة . وقد أدان كابلان القيادات اليهودية في الجيتو ومن بينها آدم تشرنياكوف رئيس المجلس اليهودي ، الذي كان يقوم بتسليم اليهود إلى النازيين والذي انتحر فيما بعد . وقد نجح كابلان في تهريب يومياته إلى خارج الجيتو قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٤٢ .

وتتضمن اليوميات إدراكاً كاملاً للتشابه البنيوي بين النازية والصهيونية ، إذ يعبِّر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كابلان عن دهشته لاضطهاد النازيين لليهود رغم أن الحل النازي هو نفسه الحل الصهيوني: الاعتراف باليهود كشعب عضوي منبوذ وطنه فلسطين ومن ثم يتعيَّن عليه أن يهاجر إليها . وقد دوَّن كابلان في مذكراته أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماماً ، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوا ذلك لأول مرة من أحد اليهود . وهذه الملاحظة تدل على مدى جهل كابلان بمستوى المعرفة النازية بالمسألة اليهودية والعقيدة الصهيونية ، وتدل على أنه لم يكن متابعاً للتعاون الوثيق بين النازيين والصهاينة في ألمانيا النازية .

وتُرجمت يوميات كابلان إلى لغات عدة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والدنماركية واليابانية ، ونُشرت بالإنجليزية تحت عنوان **مخطوطات العذاب** .

٥ ـ كورت بلومنفلد (١٨٨٤ - ١٩٦٣) :

أحد الزعماء الصهاينة في ألمانيا ، والقوة المحركة للمنظمة الصهيونية فيها . وهو يهودي ألماني وُلد لأسرة مندمجة ، ولكنه خَلُص إلى أنه لا جدوى من الانعتاق وأن اليهود لن يكون في وسعهم الاندماج في المجتمع الألماني . تزوج بلومنفلد من فتاة من شرق أوربا ، وبعد أن درس في كلية الحقوق في إحدى الجامعات الألمانية ، انضم إلى المنظمة الصهيونية وأصبح سكرتيرها الأول عام ١٩٠٩ ، ثم أصبح السكرتير العام للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (ورئيس قسم النشر) ، وترأس تحرير مجلة **دي فيلت** لسان حال المنظمة . وبعد الحرب العالمية الأولى ، قام بحملات واسعة لجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي وأصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٣٣ ، أي عندما تولى هتلر السلطة في ألمانيا . وقد هاجر بلومنفلد عندئذ إلى فلسطين واستوطن فيها وأصبح الرئيس التنفيذي للصندوق القومي اليهودي في فلسطين . ومات بلومنفلد عام ١٩٦٣ ، ولكن المصادر الصهيونية لا تذكر شيئاً عن نشاطه السياسي منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته ، أي مدة عشرين عاماً ، وهو أمر يحتاج إلى دراسة .

كان بلومنفلد يرى نفسه « نبي» الصهيونية الألمانية في عصر ما بعد الاندماج وفشله ، وبدأ يعلن عن مواقفه ويقوم بالجولات الإعلامية داخل ألمانيا وخارجها بوصفه مسئولاً صهيونيًا ، كما دأب على إلقاء خطب نارية ورفع شعارات سببت كثيراً من الحرج لأعضاء الأقلية اليهودية في ألمانيا . وكان بلومنفلد وراء إصدار ما يُسمَّى «قرار بوزن» الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصدرته المنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩١٢ وحدَّدت فيه الصهيونية كحركة قومية تُترجم نفسها إلى هجرة إلى فلسطين " الوطن القومي لليهود " . ووصف بلومنفلد هذا القرار بأنه كان بمنزلة إعلان للهجوم على صهيونية الإحسان (الغربية) ، أي الصهيونية التوطينية ، وأن الصهيونية بصدوره أصبحت حركة ذات طابع قومي (استيطاني) واضح (وقد اعترف بلومنفلد أيضاً بأن الأعضاء وافقوا على قراره لأنهم لم يدركوا تضميناته السياسية الراديكالية) .

٦ ـ رودولف كاستنر (١٩٠٦ - ١٩٥٧) :

أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر . ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية ، ورأس تحرير مجلة **أوج كيليت Uj Kelet** (أي «الشرق الجديد») ، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر ، ثم أصبح مسئولاً عن « إنقاذ » المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، فقد كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بوادابست التابعة للوكالة اليهودية .

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر ، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها) ، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر . وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظف وحسب ، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين ، هذا بينما كان يبلغ عدد يهود المجر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف ، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة . ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه ، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال . ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية (عام ١٩٤١) بإرسال ٣١٨ يهوديًا ثم ١٣٨٦ يهوديًا من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين (« يهود من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول أيخمان) .

استقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦ ، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشِّح للكنيست الأول . وانتقلت معه مجلة **أوج كيليت** ، وأصبح رئيساً لتحريرها ، بل كان يُعد مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينوولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيها كاستنر بالتعاون مع النازيين ، وأنه قام بالدفاع عن أحد ضباط الحرس الخامس (الإس . إس .) أثناء محاكمات نورمبرج الأمر الذي أدَّى إلى تبرئته وإطلاق سراحه . وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر وتبرئته . كما بيَّن كاستنر أثناء محاكمته أنه لم يكن يسلك سلوكاً فردياً وإنما تَصرَّف بناءً على تفويض من الوكالة اليهودية (التي أصبحت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨) . ولم يكن كاستنر مبالغاً في قوله فالمواطن الإسرائيلي جويل براند كان على علم ببعض خفايا القضية وبمدى تورُّط النخبة الحاكمة في عملية المقايضة الشيطانية التي تمت . وقد طُلب منه الإدلاء بشهادته ، ولكنه آثر ألا يفعل وبدلاً من ذلك كتب كتاباً بعنوان **الشيطان والروح** يقول فيه «إن لديه حقائق تبعث على الرعب وتدمغ رؤوس الدولة اليهودية (الذين كانوا رؤساء الوكالة اليهودية) » . وأضاف قائلاً « إنه لو نشر مثل هذه الحقائق لسالت الدماء في تل أبيب » .

وقد قضت المحكمة الإسرائيلية بأن معظم ما جاء في كتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع . وبعد إشكالات قضائية كثيرة ، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق « أحدهم » الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع . وقد تمت الجريمة رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر ، بل وكانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة . وقد سجل موشيه شاريت ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، هذه الكلمات في مذكراته : « كاستنر . كابوس مرعب . حزب الماباي يختنق . بوجروم . » . ويشير براند في كتابه إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر ، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته » ، وكانوا يفكرون في « إسكاته » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
الإبادة في الوجدان الغربي

لن يتناول هذا الفصل الإبادة النازية كواقعة تاريخية وإنما سيتناولها كما تنعكس في الوجدان (الأدبي والديني والفلسفي والفني) الغربي .

متاحف الإبادة :

يتضح انشغال أعضاء الجماعات اليهودية بموضوع الإبادة من عدد المتاحف التي تُكرَّس لهذا الموضوع . وكان متحف ياد فاشيم للإبادة النازية في إسرائيل هو أهم هذه المتاحف (حتى عهد قريب) حتى تحوَّل إلى ما يُشبه المراز المقدَّس ليهود العالم . و«ياد فاشيم» هي عبارة عبرية معناها «النصب والإسم» (" إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً وإسماً، أفضل من البنين والبنات . أعطيهم اسماً أبديًا لا ينقطع " [أشعيا ٥٦/ ٥]) . ويقع مُركَّب مباني هذا المتحف على حافة جبل تطل على قرية عين كريم . ويضم متحف ياد فاشيم صالة الذكريات ، وأرشيف الإبادة الذي يضم حوالي ٥٠ مليون وثيقة . كما يضم المتحف ما يُسمَّى «شارع الأتقياء بين الأغيار» الذي غُرس فيه ٥٠٠ شجرة تكريماً لأشخاص غير يهود ضحوا بأنفسهم أو عرضوا أنفسهم للخطر لحماية اليهود . أما صالة الأسماء ، فتضم ما يُسمَّى «صفحات الشهادة» التي تضم حوالي ثلاثة ملايين من أسماء أعضاء الجماعات اليهودية التي قضى عليها النازيون .

أما المناطق المكشوفة ، فتضم تماثيل ونصباً عن الإبادة . وعلى سبيل المثال ، يوجد نصب يُسمَّى «أوشفيتس» للمثّالة إلسا بولاك ، وهو عبارة عن عمود يوحي بأنه مدخنة أفران الغاز كُتبت عليه أرقام ضحايا أوشفيتس (الضحايا اليهود فقط بطبيعة الحال) . أما تمثال «عمودَ البطولة» للفنان الإسرائيلي بوكي شفارتز ، فيحتفي بما يُسمَّى «المقاومة اليهودية» . ومن أشهر التماثيل ، تمثال نادور جيلد المسمَّى «نصب ضحايا معسكرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإبادة» ، وهو عبارة عن أجسام بشرية نحيفة ، تُشبه أسلاك المعسكرات الشائكة ، ترفع يدها وعيونها نحو السماء . ويوجد ميدان صغير على هيئة شمعدان المينوراه في نهايته تمثال برتي فينك «نصب الجنود ومحاربي الجيتو والمقاومين» والذي يرمز إلى الستة مليون يهودي الذين أُبيدوا ، وتأخذ المينوراه شكل نجمة داود . وهناك سيف صلب ضخم مغمد في النجمة .

ويلي ذلك ما يُسمَّى «وادي الجماعات التي دُمِّرت» نُقشت فيه أسماء خمسة آلاف جماعة يهودية في ٢٢ بلداً على بناية صخرية منحوتة في الجبل . أما «صالة الذكرى» فقد بُنيت حوائطها من كتل ضخمة من البازلت المصقول وعلى أرضها الرمادية الفسيفسائية كُتبت أسماء أهم ٢٢ معسكراً للاعتقال .

وهناك ما يُسمَّى «النور الأزلي» ، كما هو الحال في المعبد اليهودي ، تحت قنطرة أو عقد يحوي رماد الضحايا الذي جُمِع من المعسكرات . ويدخل ضوء النهار بين الحائط والسقف .

وكان متحف ياد فاشيم ، كما أسلفنا ، هو أهم متاحف الإبادة النازية في إسرائيل ، ولكن أقيم مؤخراً متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية (بالإنجليزية : هولوكوست ميموريال ميوزيام Holocaust Memorial Museum) (حرفياً : متحف الهولوكوست التذكاري) ، الذي افتتحه الرئيس كلنتون في أواخر إبريل ١٩٩٣ ، ويعده البعض أهم متاحف الإبادة في العالم . وقد بُني المتحف في ميدان (أو أرض) المعارض الشهير في واشنطن (يُشار إليه بالإنجليزية بأنه «ذي مول The Mall») . ويمكن رؤية تمثال جورج واشنطن من البقعة التي أُقيم فيها . وقد تكلف نحو ٩٠ مليون دولار وصمَّمه المهندس الأمريكي اليهودي جيمس فريد Freed الذي يبلغ من العمر ٥٦ عاماً والذي هرب مع أسرته من ألمانيا عام ١٩٣٩ .

وينطلق المتحف من فكر فلسفي واضح يترجم نفسه إلى معمار ، إذ يذهب فريد إلى أن ثمة شيئاً لا يمكن تصديقه ، شيء مستحيل في هذا المشروع ، أي مشروع إنشاء المتحف ، وهو بهذا يؤكد الخط الصهيوني فيما يتعلق بالإبادة ، إذ تم تحويلها من مجرد جريمة شنعاء ارتكبها أحد المجتمعات الغربية (ألمانيا النازية) ، ضد مجموعات بشرية مختلفة في أوربا من بينها اليهود ، إلى شيء ميتافيزيقي لا يمكن فهمه ، يقف خارج التاريخ والزمان موجهاً ضد اليهود وحدهم . ولذا ، قرر فريد أن يبني متحفاً لا يتسم بالتناسق أو التحضر على حد قوله «لا أعتقد أن هذا المبنى سيكون حسن السير والسلوك ، فأنا لا أُطيق التجميل ، فهذا هو ما فعله النازيون في معسكرات الاعتقال ، فالواجهات كانت على الطراز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التيـرولي Tyrolean وكـانت النوافذ تزينها «أصص الـورد» . ولذلك ، لابد أن يبعث هذا المبنى الإحساس بالسر والخوف وعدم التصديق » . ومن هنا كانت المشكلة التي واجهها المهندس المصمم فريد ـ على حد قول أحد النقاد ـ هي : هل يستطيع المعمار المتحضر أن يعبِّر عما هو غير متحضر ؟

ولحل كل هذه المشاكل ، قرر المهندس ألا يكون المتحف جميلاً أكثر من اللازم ، وإلا تصوَّر المشاهد أن الإبادة هي مجرد حدث كبير آخر في مسار التاريخ . ولو أخذ المتحف شكلاً عكسيًا وتحاشى المصمم معمار الضخامة النيو كلاسيكي السائد في واشنطن وتبنى طرازاً صناعيًا (حتى يوحي بجو المصنع الذي كان سائداً في معسكرات الاعتقال) فإن هذا قد يؤدي إلى تتفيه الحدث . وإذا تبنَّى المتحف أسلوباً حرفيًا في تقديم الإبادة ، فإنه قد يبعث على الاشمئزاز في نفس الزوار فينصرفون عنه . ولهذا كله يجب ألا يكون هذا المبنى جميلاً أكثر من اللازم ، ولا قبيحاً أكثر من اللازم ، وهو ما يعني أن أي مبنى تقليدي لن يصلح له .

وكان من الممكن (كما فكر المهندس الذي صمم المتحف ، على حد قول أحد النقاد) أن يكون المبنى محايداً تماماً ، مجرد حائط يضم المعروضات باعتبارها قيمة مطلقة لا يمكن لأي معماري مهما بلغ ذكاؤه أن يبرزها ، فهي تقف بذاتها وكأنها السر الإلهي . ولكن هذا الحل يعني فشل المعمار الحديث في أن يقبل التحدي . وأخيراً كان من الممكن أن يتخلى المصمم تماماً عن الفكرة ويعلن أنه لا يمكن التعبير عنها . ولكن هذا حل يتسم بالجبن ، فهو يعني أن الفنان ليست له رسالة اجتماعية .

بقيت مشكلة أخيرة ، وهي أن هذا المبنى رغم تفرده لابد أن يكون جزءاً من مباني المتاحف في واشنطن . وقد تَقدَّم المهندس المصمم برسومات المعرض للجنة الفنون الجميلة التي تشرف على المعمار في واشنطن ، ولكنها رفضته ؛ إذ وجدته يؤكد رسالته بشكل جازم أكثر من اللائق . بل وألمح بعض أعضاء اللجنة إلى أن مثل هذا المتحف لا ينتمي أساساً إلى عاصمة الولايات المتحدة لأن الإبادة النازية ليست جزءاً من تاريخ أمريكا ، فضلاً عن أنها تجربة مؤلمة . ولكن ، تم التغلب على هذا الاعتراض الأخير بالإشارة إلى الحائط التجريدي الذي صممه مايا يانج لين لضحايا حرب فيتنام ، فهو نصب تذكاري يُذكِّر المشاهدين بلحظة تاريخية محزنة . وتم في نهاية الأمر الموافقة على تصميم المبنى بعد تعديله ، وهو يمتد من شارع ١٤ إلى شارع ١٥ شرقي طريق الاستقلال ليكون بين مبنيين ، أحدهما على الطراز الكلاسيكي والآخر على الطراز الفكتوري .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا أثيرت قضية واجهة المعرض ، وقد دار الحوار لا في إطار جمالي محض ، وإنما في إطار معرفي عميق . فواجهة المعارض الموجودة في المول Mall تتبع في معظم الأحيان الطراز النيوكلاسيكي ، وهو طراز يحاكي بشكل واعٍ المعمار اليوناني الروماني الوثني ، أي أنه يشكِّل عودة إلى الحضارة الوثنية التي سبقتْ عصور الظلام المسيحية ، وهي حضارة سادت فيها قيم العقل والتوازن دون غيب أو أساطير ، ولهذا يتسم المعمار بالبساطة والجلال . وقد كان مؤسسو الجمهورية الأمريكية مغرمين بهذا الطراز ، ولذلك أسس جيفرسون منزله في مونتشيلو على نفس الطراز ، وكانت معظم مباني واشنطن حتى عهد قريب تتبع النمط نفسه .

وقد قرر المهندس فريد أن واجهة متحف الإبادة لا يمكن أن تعبِّر عن عصر التنوير والعقل (بالإنجليزية : إنلايتينمنت Enlightenment) ، بل لابد أن تعبِّر عن الإظلام واللاعقل (بالإنجليزية : أندراركنمنت Endarkenment) . ولذا ، تَقرَّر أن تشبه واجهة المتحف ومدخله واجهة ومدخل معسكرات الاعتقال ، أي على الطراز التيرولي ، الذي ينتمي إلى طراز الحداثة الفيينّاوي (نسبة إلى فيينا) الذي ظهر مع نهاية القرن ، وذلك من حيث دقة القوس والتفاصيل الكلاسيكية البارزة . وتم تصميم هذه الواجهة وهذا المدخل بناءً على طلب لجنة الفنون الجميلة (ففي التصميم الأصلي كان هناك إفريز بارز يتصف بأنه مصطنع وينذر بالشؤم ويوحي بالخوف) . ويؤدي المدخل إلى صالة الشهادة ، وهي مصنوعة من الطوب الخشن ولها سقف زجاجي معلق على عروق حديدية مكشوفة ، تسمح بدخول الضوء (الأمر الطبيعي الوحيد الذي لم ينجح النازيون في القضاء عليه) . وهي بذلك تذكِّر المُشاهد بمعسكرات الاعتقال وأفران الغاز . ويخيِّم على هذا المعمار الصناعي فراغ معتم ثقيلَ يوحي بجو من القلق المتعمد ، فخطوطه غير مستقيمة . ويوجد في المتحف سلم متسع عند قاعدته ثم يضيق بالتدريج حتى يشعر الزوار بالزحام وكأنهم في أحد معسكرات الاعتقال . ويبدو السلم في نهايته منحرفاً داخل منظور زائف .

ويحاول المهندس أن يعبِّر عن إحساسه بعدم الراحة بطرق مختلفة . فعلى سبيل المثال ، يوجد في الحائط الحجري في آخر هذه الصالة شقوق . أما بوابات الأجنحة فهي معدنية ثقيلة . وتوجد مكاتب موظفي المتحف داخل أربعة أبراج ، لتذكِّر الزائر بأبراج المراقبة في معسكر الإبادة . بل إن المصعد الذي يُستخدَم للوصول إلى هذه المكاتب يولِّد في الزائر شعوراً بعدم الراحة ، فهو مصعد ضيِّق والإضاءة بيضاء متوهجة وأبوابه مصنوعة من المعدن الرمادي ، تُغلق وتُفتح بصعوبة كأبواب أفران الغاز . وتضم صالات العرض صوراً وأعمالاً فنية عن الإبادة . وكل مقتنيات المتحف أشياء أصلية كانت تستخدم بالفعل في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معسكرات الاعتقال . وتوجد شاشات تليفزيون تُعرَض فيها أفلام تروي أحداث الهولوكوست وأخرى تروي تاريخ معاداة اليهود ، ولهذا السبب وُضعت الشاشات على ارتفاع متر ونصف حتى لا تسبب إزعاجاً للأطفال .

ويُعطَى كل زائر بطاقة كومبيوتر عليها صورة أحد الضحايا ، بحيث يمكن للزائر أن يتابع قصته من خلال شاشات عرض موجودة في أماكن مختلفة . ويسمع مشاهد العرض تسجيلات لأصوات الجنود الأمريكيين الذين حرروا معسكرات الاعتقال وهم يعبِّرون عن إحساسهم بالصدمة العميقة لما يشاهدونه . ويوجد في الدور الثالث شارع من الحجر وكوبري خشب تؤدي بالزائر الى جناح عن جيتو وارسو الذي شهد أعمال المقاومة اليهودية ضد النازيين .

ويُقال إن المتحف لم ينس ضحايا الإبادة الآخرين مثل الغجر وغيرهم . ولم ينس كذلك بعض الأغيار الذين ساعدوا اليهود على الفرار من النازيين ، ولهذا يضم هذا المتحف قارباً من ذلك النوع الذي كان يستعمله الدنماركيون في إنقاذ اليهود .

وتوجد صالة أخرى تُسمَّى «صالة الذكرى» ، بُنيت على شكل سداسي ، ارتفاعها ٧٥ قدماً ، وسقفها على هيئة قبة وهي مبنى مستقل عن المتحف مفتوح عليه . وكان ارتفاع الصالة في الأصل ٨٠ قدماً ، كما كان من المفروض أن يكون المتحف كله بارزاً في ميدان المتاحف بنحو ٤٠ قدماً . ولكن اللجنة أصرت على أن يكون بمحاذاة المباني الأخرى ، كما تم إنقاص حجم المتحف كله ١٠٪ (يبلغ حجم المتحف ٣٦ ألف قدم مربع ، وتستغرق مشاهدته ثلاث ساعات) ، ولكن هذا المبنى السداسي يظل بمفرده بارزاً في أرض المتاحف ، لا نوافذ له ولا زخارف على حوائطه سوى اقتباسات من العهد القديم تأخذ شكل نقوش بارزة . كما توجد على الحائط كوَّات تشبه المحراب الصغير يمكن أن تُوضَع فيها مئات الشموع المشتعلة لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة النازية . وتُضاء هذه الصالة بالنور الطبيعي من ناحية السقف ، حيث تكون الحوائط فارغة تماماً . وهيئة الصالة من الخارج لا تختلف عن داخلها ، فهي عارية من الزخارف أيضاً إلا من بعض التفاصيل ذات الطابع الكلاسيكي الصارم . وتعطي الصالة الإحساس بأنها شيء ضخم ومجرد يقف في أرض المتاحف .

وتذكِّر صالة الذكرى المرء بقدس الأقداس في هيكل سليمان وهيرود . بل ويمكن القول بأن المتحف ككل يشبه هيكل سليمان . وإذا كان اليهود يعبدون في هيكل سليمان إلههم ، فإنهم في متحف الإبادة النازية يعبدون أنفسهم (اليهود أو الشعب اليهودي الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتحول هو ذاته إلى الشيم هامفوراش ، أي الاسم المقدَّس والأعظم الذي لا يستطيع أحد أن يتفوه به إلا كبير الكهنة في قدس الأقداس يوم الغفران) ، باعتبار أن تجربة الإبادة التي حدثت لليهود تجربة تتحدى قدرة الإنسان على أن يفصح عما في داخله .

وقد وُصف معمار المتحف بأنه تفكيكي ينتمي إلى عالم ما بعد الحداثة ، ونحن نرى أن هذا وصف دقيق للنموذج الكامن وراء هذا المتحف ولكل تفاصيله التي يتجلى من خلالها النموذج . ففكر ما بعد الحداثة (التفكيكي) يصدر عن الإيمان بأن العلاقة بين الدال والمدلول (الكلمة ومعناها أو الاسم والمُسمَّى) علاقة عشوائية مترهلة ، ولذا فاللغة ليست أداة جيدة لتوصيل المعنى أو للتواصل بين الناس ، وكأن الكلام حبر على ورق : حادثة إمبريقية مادية قد لا تحمل مدلولاً يتجاوز وجودها المادي ، بل هو كسائل أسود تناثر بطريقة ما على صفحة بيضاء . ويواكب هذا إدراك الإنسان الغربي أن كل أشكال اليقين داخل منظومته الحضارية قد تهاوت بتهاوي المنظومات والمرجعيات المعرفية الأخلاقية والإنسانية ، الإيمانية وغير الإيمانية ، ومن ثم ، لا يمكن الوصول إلى الواقع الخارجي ولا يمكن تصنيفه أو ترتيبه ، فهو لا مركز له ولا يمكن الحكم عليه ولا تمكن محاكمته . ولذا لا يبقى إلا الشيء في ذاته ، فيصبح هو ذاته دالاً ومدلولاً ومرجعية ذاته .

والإبادة هي حدث مرئي يمكن للإنسان أن يجربه ، ولكن لا يمكنه الإفصاح عنه ، فالإبادة صورة تكاد تكون دالاً بلا مدلول أو مدلولاً لا يمكن لأي دال أن يدل عليه . إن الإبادة هي الأبوريا aporia : الهوة التي تفغر فاها والتي ما لها من قرار ، الهوة التي تنفتح بعد تساقط كل المرجعيات فلا يرى الإنسان سوى العدم ، أو الإبادة النازية لليهود . وكيف تم توصيل ذلك ؟ عن طريق إعادة خلق جو المعسكرات ومن خلال وضع الأشياء التي استخدمت فيها أمام المتفرج حتى يجربها دون وساطة أو دوال ، والأشياء هنا (مثل الإبادة) هي أيضاً دال دون مدلول أو مدلول دون دال ، أو دال هو ذاته مدلول ، فالشيء هو الاسم والمسمَّى .

ورغم ذكر بعض الضحايا غير اليهود ، إلا أن المتحف بطبيعة الحال يحاول أن يؤكد أن اليهود هم الضحية ، وأن الأغيار تركوا اليهود لمصيرهم (ولعل ذكر الغجر وغيرهم من ضحايا النازي كان ذراً للرماد في العيون وتحسباً لما قد يثار من ضجة بسبب الرؤية الصهيونية التقليدية التي تجعل من اليهود الضحية الوحيدة) . ويُذكِّر المتحف الشعب الأمريكي بعدم اكتراثه بالإبادة النازية ، وبأن الحكومة الأمريكية رفضت السماح للباخرة سانت لويس عام ١٩٣٩ بالرسو في الشواطئ الأمريكية رغم أنها كانت تحمل ١١٢٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاجئاً يهوديًا فارين من هتلر، ورغم أنهـا وصلت حتى هافانا. وفي نهـاية الأمر أُعيدت السفينة إلى ألمانيا ليلاقي الفارون مصيرهم. وقد رفض الحلفاء أن يقوموا بشن غارات على معسكرات الاعتقال وكما رفضوا ضرب خطوط السكك الحديدية التي تؤدي إليها. ويشير المتحف كذلك إلى مؤتمر إفيان الذي دعا إليه الرئيس روزفلت عام ١٩٣٨ حيث رفض ممثلو بعض الدول الأوربية أن يسمحوا لليهود الهاربين من الرايخ الثالث بالهجرة إليها.

ويُجسِّد المتحف أطروحة فكرية أساسية في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية وفى الحضارة الغربية الحديثة (الإبادة باعتبارها أيقونة تشير إلى ذاتها أو دالاً متجاوزاً يعجز العقل عن الإحاطة به) فهو ليس مجرد مبنى ، وإنما موقف ورؤية. ولذا فمن حقنا أن نثير من جانبنا بعض الإشكاليات ، ونطرح بعض الإسئلة : هل الإبادة ، على سبيل المثال، ظاهرة ميتافيزيقة كما يقال ، أم أنها ظاهرة تاريخية ، يمكن تفسير كثير من جوانبها وفهمها واستيعابها ؟ ولماذا لم يُقَم متحف عن الإبادة الأمريكية للسكان الأصليين ولتاريخ أمريكا المظلم في استغلال العبيد السود إلى درجة تكاد تكون مترادفة مع الإبادة ؟ ولماذا لم يذكر المتحف عشرات القساوسة الكاثوليك والرعاة البروتستانت الذين ضحوا بحياتهم من أجل اليهود ؟

وهناك الكثير من الحقائق التي حرص المتحف على إخفائها ، فالمتحف لم يذكر شيئاً عن تعاون كثير من قيادات الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) مع النازيين ، ولم يجب على أسئلة مهمة مثل : هل كانت المقاومة اليهودية للإبادة النازية بالقوة المطلوبة ؟ هل كان من الممكن لآلة الفتك الألمانية أن تستمر في الدوران لو رفض ملايين الضحايا أن يتعاونوا مع قاتليهم ؟ بل ولنأخذ قضية مثل إنقاذ اليهود . من المعروف أن القيادات الصهيونية لم تكترث بذلك كثيراً ، بل ومن المعروف أن القيادات الصهيونية كانت تعارض إنقاذ اليهود عن طريق فتح أبواب الهجرة أمامهم في بلاد أخرى غير فلسطين ، فلماذا لم يُذكر هذا فى المتحف ؟

وقد احتج الألمان على الصورة المبتسرة التي قُدِّمت عن ألمانيا . فتاريخ ألمانيا يمتد عدة مئات من السنين قبل الإبادة ، وما يزيد على أربعين سنة بعدها ، فلماذا التركيز على هذه الحقبة دون غيرها ؟ . ولهذا ، اقترحت الحكومة الألمانية أن يُلحق جناح عن ازدهار الديموقراطية الألمانية بعد الحرب . وقد رُفض الطلب بطبيعة الحال .

ومن المتاحف الأخرى التي كُرِّست للإبادة : متحف الإبادة فى لوس أنجلوس . ويبدو أن بعض قطاعات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة قد بدأت تدرك خطورة احتكار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دور الضحية ، ولذلك نجد أن متحف الإبادة الذي شُيِّد في لوس أنجلوس (الذي افتُتح في فبراير ١٩٧٩) يُدعى «بيت شواه (أي بيت الإبادة) ومتحف التسامح» . وهذا الاسم المزدوج له أعمق الدلالة ، فهو يضع الدائرة اليهودية داخل دوائر أخرى مشابهة . وتتسم واجهة المتحف بأنها حديثة محايدة ، فهي مصنوعة من الجرانيت والزجاج ، ويمكن القول بأن معمار المتحف ككل يتسم بالحداثة (ولا يتحيز إلى ما بعد الحداثة) . فهو بواجهته وأدواره الأربعة لا يختلف عن كثير من المباني المحيطة به .

وينقسم المتحف إلى قسمين ، ولنبدأ بالقسم المخصص للتسامح ، وهو يغطي تاريخ التعصب في الولايات المتحدة منذ إبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) حتى حادثة ضرب رودني كينج وتبرئة ضباط الشرطة الذين قاموا بضربه . وتتضح حداثة المتحف في استخدامه المكثف للتكنولوجيا المتقدمة . فحينما تدخل المبنى يقابلك إنسان مكون من ١٠ أجهزة فيديو ، يخبرك أنك إنسان فوق المتوسط ، لا تشعر بأي تعصب ضد الآخرين ، ولكنه يستمر في الحديث ليُبيِّن بعض أشكال التعصب الكامنة في النفس البشرية . وحينما تتركه ، ستجد أمامك بابين : واحد للمتعصبين وواحد لغير المتعصبين . وبطبيعة الحال ، سيتجه الجميع وبشكل تلقائي للباب الثاني ، ولكنهم سيكتشفون أنه مغلق (فهل هذا يعني أن كل البشر متعصبون ؟) . ثم يدلف المتفرجون إلى صالة تسمع فيها همسات المتعصبين ، وتشاهد فيها أفلاماً عن إبادة الأرمن والكمبوديين وسكان أمريكا الأصليين في أمريكا اللاتينية .

أما القسم الثاني الخاص بالإبادة ، فتوجد فيه صالة الشهادة التي يمكن للزائر أن يسمع فيها التواريخ الشفهية التي يرويها الضحايا ، وشهادات من لا يزال على قيد الحياة . وهناك إحياء لذكرى الأغيار الأتقياء (بالإنجليزية : رايتيوس جنتايلز righteous gentiles) ، أي الأغيار الذين ساهموا في عمليات إنقاذ اليهود . وتوجد غرفة يمكن لرواد المتحف أن يجدوا فيها تقارير متجددة عن جرائم الكره والتعصب . وفي أثناء الحرب بين الصرب وكرواتيا والبوسنة ، على سبيل المثال ، كان بوسع الزوار أن يتابعوا أولاً بأول جرائم التطهير العرقي في البوسنة . وكما هو الحال في متحف إحياء ذكرى الإبادة في واشنطن ، يُعطى كل زائر للمتحف بطاقة عليها صورة أحد الضحايا يمكنه أن يتابع قصة حياته من خلال شاشات العرض المختلفة في المتحف .

وتوجد في الولايات المتحدة بضعة مراكز تذكارية ومتاحف أخرى صغيرة مخصصة للإبادة النازية (مركز دالاس التذكاري لدراسات الإبادة – مركز الإبادة النازية التذكاري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في ميشجان . ويبدو أن من المقرر إقامة متحف في نيويورك باسم «ذكرى الإبادة النازية ـ متحف التراث اليهودي») .

ويذهب بعض المعلقين إلى أن هذه المتاحف لن تؤدي إلى إحياء ذكرى الإبادة ، وإنما سيتم من خلالها أمركة الهولوكوست ، وأن الإبادة النازية ليهود أوربا ستصبح مثل ميكي ماوس وكوكاكولا وماكدونالد وألعاب الأتاري الإلكترونية المسلية . وبعد عدة سنين ستصبح الإبادة ماركة تجارية مسجلة (De Shoah Business على حد قول المجلة الألمانية **دير شبيجل**) لا علاقة لها بأوشفيتس ، وإنما بمتحف في لوس أنجلوس أو واشنطن .

ويعتقد الكثيرون ، بناء على المنطق والملاحظة المباشرة ، أن إنشاء متاحف الإبادة في الولايات المتحدة هو مؤشر آخر على الهيمنة الصهيونية واليهودية . ولكن من المفارقات أننا لو تعمقنا بعض الشيء لاكتشفنا شيئاً مدهشاً ومغايراً تماماً لما نتصور ، فمما لا شك فيه أن هذا المتحف تعبير عن قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . ولكن هل هذا يعني بالضرورة تعاظم قوة إسرائيل ؟ إن الربط الذي يقوم به العقل العربي بين النفوذ اليهودي والنفوذ الإسرائيلي هي عملية منطقية لا علاقة لها بالواقع المتعيِّن . فقد اعترضت الصحف الإسرائيلية على إقامة هذا المتحف وبقوة . وفي إسرائيل يوجد ضريح ياد فاشيم (النصب والاسم) الذي أُقيم لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة . وقد أصبح هذا النصب المزار الأساسي الذي يتعيَّن على كبار الزوار زيارته حينما يذهبون إلى إسرائيل . ويرى المستوطنون الصهاينة أن إسرائيل هي المركز القومي والحضاري والمعنوي ليهود العالم الذين يُشكِّلون بالنسبة لها مجرد الهامش أو الأطراف ، ومن ثم لابد أن يظل المزار الأساسي للشعب اليهودي في الوطن القومي . ولهذا ، فإن إقامة متحف لإحياء ذكرى الإبادة النازية وعلى هذا المستوى في عاصمة الولايات المتحدة ، وآخر في لوس أنجلوس، يُشكِّل تحدياً لوجهة النظر الصهيونية ، ويُشكِّل محاولة من جانب يهود الولايات المتحدة لخلق مسافة بينهم وبين المُستوطَن الصهيوني ليزيدوا من قوة استقلالهم . ومن ثم ، فإن متاحف الإبادة قد تكون تعبيراً عن مدى قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها لا تشكل تعاظماً للنفوذ الصهيوني وإنما تحدياً له .

قائمة شندلر :

«قائمة شندلر» فيلم من أهم أفلام المخرج الأمريكي اليهودى ستيفن سبيلبرج . والفيلم يستند إلى قصة روائية ومع هذا يأخذ شكل الفيلم الوثائقي، ولذلك يستخدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المخرج أحياناً بعض المشاهد المألوفة لدى الناس من خلال صور الهولوكوست الكثيرة التي نُشرت أكثر من مرة . وبطل الفيلم هو شندلر وهو صناعي ألماني سوديتي (من الألمان الذين طُردوا بعد الحرب العالمية الأولى من منطقة السوديت في غربي تشيكوسلوفاكيا) . وهو إنسان غير مكترث بالسياسة متمركز حول ذاته مهتم بجمع المال وإنفاقه . وقد ذهب إلى بولندا في بداية الحرب كي يُحقق الربح ويُمتع نفسه . وفي هذا الإطار يعقد صفقة مع النازيين يتم بمقتضاها تزويده ببعض العمال اليهود من معسكرات الاعتقال والإبادة لتشغيل مصنعه الذي ينتج أواني تساعد ألمانيا في جهودها العسكرية . ورغم أن أهداف شندلر المبدئية نفعية مادية دنيئة ، خالية تماماً من المثاليات ، إلا أن إنسانيته تهزمه تدريجيّاً ويبدأ في التعاون مع اليهود ويُضحي بثروته من أجلهم ، إذ يقوم بتقديم الرشاوي لكبار الضباط النازيين كي يضمن البقاء لليهود الذي يعملون في مصنعه . وهكذا تتحول الصفقة المادية المبرمة بين شندلر والنازيين إلى آلية لإنقاذ بضعة مئات من اليهود الذين يظهرون على «قائمة شندلر» .

ولفهم فيلم «قائمة شندلر» حق الفهم لابد أن نضعه في سياقه الحقيقي ، وأهم عناصر هذا السياق أن مخرج الفيلم سبيلبرج هو أمريكي يهودي (وليس يهودياً أمريكياً) مندمج تماماً ، أي أنه من «اليهود الجدد» ، تمييزاً لهم عن يهود أوربا ، فتجربتهم الحضارية مختلفة عن تجارب يهود أوربا ، لأنهم لم يعرفوا الجيتو ولا التخصص المهني أو الوظيفي . فقد نشأ سبيلبرج في منزل لم يحافظ على الطقوس الدينية ، ولم يُطبِّق قوانين الطعام الشرعية وتزوج من غير يهودية . وكل هذا يعني أن علاقته بهويته اليهودية علاقة واهية للغاية وليست هوية متماسكة متكاملة وإنما هي في واقع الأمر بقايا لمجموعة من الرموز وشتات من الذكريات . وتجربة سبيلبرج في المحتمع الأمريكي تجربة إيجابية للغاية فقد حقق نجاحاً مذهلاً ، وأصبح من أهم رموزه ، بل ويشارك في تطوير رموز هذا المجتمع ووجدانه من خلال أفلامه . فكيف يمكنه أن يتقبل الثنائية الصهيونية البسيطة : يهود ضد أغيار ؟ وكيف يمكن أن يقبل الطرح الصهيوني لفكرة المركز الإسرائيلي في مقابل الهامش اليهودي ؟ ومن هنا كان ضرورياً أن يكون بطله شخصاً قادراً على أن يتحرك بكفاءة بين العالمين : عالم اليهود وعالم الأغيار ، فهذا أقرب لتجربة سبيلبرج مع المجتمع الأمريكي ، من الأنماط الإدراكية الساذجة والثنائيات الصلبة التي توجد في الأدبيات الصهيونية حيث يقف اليهودي وحيداً أمام ذئاب الأغيار .

ولكن هناك بُعداً آخر أعمق في «قائمة شندلر» . والأطروحة الأساسية في الفيلم هي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن النازيين كانوا يقتلون اليهود لا كرهاً فيهم أو حقداً عليهم ، وإنما لأنهم كانوا غير نافعين. ولذا كان لا يُباد النافع منهم ، أي كل من يمكن توظيفه أو تسخيره في خدمة الاقتصاد الألماني . كان هناك من النازيين من يكِّن كراهية خاصة لليهود ، ولكن القيمة الحاكمة الكبرى لم تكِّن الكراهية وإنما المنفعة . وقد أدرك شندلر هذا وتحرك في إطاره وتمكن من إنقاذ مجموعة من اليهود من أفران الغاز عن طريق توضيح نفعهم . ولعل أهم المناظر في الفيلم من هذا المنظور هو اللحظة التي أصر فيها أحد الحراس النازيين على استبعاد بعض الأطفال اليهود المرحَّلين إلى مصنع شندلر باعتبار أنهم لا نفع له ، فهم مجرد أطفال لا يمكن أن يعملوا في المصنع . ولكن شندلر يُبيِّن لهم ، في لهجة غاضبة ، أن أيدي الأطفال الصغيرة ضرورية لأنها هي وحدها القادرة على الوصول إلى داخل بعض الأواني التي تَخصَّص مصنع شندلر في صنعها. المسألة كلها مسألة نفعية موضوعية مادية عملية منفصلة عن القيم ، خاضعة للحسابات الرشيدة الصارمة ، لا تعرف الحب أو الكُره ، ومن هنا اسم الفيلم : «قائمة شندلر» ، وكأن البشر أرقام ووحدات لا قيم لها في ذاتها، تُدرج في قوائم ! بل إن سبيلبرج يتشجع ويتناول قضية المجالس اليهودية ، وهي المجالس التي نصبها النازيون والتي تعاون أعضاؤها من اليهود مع السلطات النازية في عمليات الإبادة .

ولكن رغم أن أطروحة الفيلم الفكرية تقول إن اليهود لم يُقتلوا كيهود وأن ثنائية «يهودي/ أغيار » الصهيونية ليست حقيقية ، وأن عملية الإبادة هي جزء من الرؤية النفعية المادية وعمليات الترشيد الإجرائي . إلا أنه على المستوى المرئي الفني يقدم رسالة صهيونية كاملة تتنافى مع مضمون الفيلم الفكري . وتتضح الرسالة الصهيونية بشكل متبلور في نهاية الفيلم الملونة بل وتتغلغل أيضاً في بنية الفيلم وفي شخصياته ، فلا يظهر أمامنا غير شندلر ممثلاً للأغيار ، أما بقية ممثلي الجنس البشري فهم يدورون داخل الأُطر الإدراكية الاختزالية التي ركز عليها الفيلم بشكل سوقي .

أما فيما يتصل بالضحايا ، فنحن نعرف أن الدولة النازية طبقت مبدأ المنفعة المادية لا على اليهود وحسب ، وإنما على كل البشر بدون تمييز . ولو فعل سبيلبرج هذا وربط واقعة المحرقة بالنمط التاريخي المتكرر لاتضح النموذج الأكبر وراء الإبادة النازية ، وهو نموذج غربي نفعي مادي بدأ تحققه في أمريكا الشمالية واستمر في أفريقيا وفلسطين ووصل لحظة التبلور النماذجية في اللحظة النازية ومعسكرات الاعتقال (والسخرة والإبادة) . ولعل الفارق الوحيد بين عمليات الإبادة الغربية الأخرى وعملية الإبادة النازية ، أن عمليات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإبادة الأخرى كانت تتم دائماً ضد السود أو المسلمين أو الآسيويين ، هناك وفي بلاد بعيدة ، وعلى يد جنود مهمتهم القتل والقتال . أما الإبادة النازية فقد حدثت هنا ، على أرض أوربية ، وبشكل منهجي مخطط ، وعلى يد مجتمع حديث متحضر يستمع لموتزارت وبيتهوفن ويُناقش الفلسفة ويشم رائحة اللحم الإنساني المحترق (في إحدى مناظر فيلم «قائمة شندلر» يتناقش جنديان نازيان في الموسيقى وهما يقومان بالهجوم على بعض الضحايا اليهود) .

ولكن لا يمكن للبشر أن يواجهوا حقيقة وجودهم ببساطة ، ولا يمكن للحضارة الغربية أن تواجه التضمينات الفلسفية الأساسية للرؤية العقلانية النفعية المادية (العقل الأداتي – على حد قول مفكري مدرسة فرانكفورت) التي حوّلت العالم بأسره إلى مادة استعمالية ، ولذا لابد من تحاشي المواجهة ، وحيث إن تغيير الحقائق أمر مستحيل في عصر المعلومات ، إذن ، لنتلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، وبدلاً من رؤية الجريمة النازية باعتبارها جريمة حضارة نفعية مادية ضد البشر ، فإنها تُعمَّم للغاية أو تُخصَّص للغاية فتصبح بالنسبة للحضارة الغربية جريمة الألمان الأشرار وحدهم ضد اليهود وحدهم (شيء خاص للغاية ، ومجرد حادثة عرضية) ، أما بالنسبة لليهود فتصبح جريمة الأغيار كلهم ضد اليهود كلهم (شيء عام للغاية ، ولذا فالجميع مسئول) . وفي جميع الحالات ، يحتكر اليهود وحدهم دور الضحية ، وفي كلتا الحالتين تتم تبرئة الحضارة الغربية الحديثة . وهكذا تضيع الحقيقة وتميد الأرض وتُوظَّف الحقائق لا للرؤية وإنما للتعمية . ومن ثم يمكن الاستمرار في الإبادة في فيتنام وفلسطين والبوسنة والهرسك مع الثرثرة المستمرة عن ضحايا النازية ، وضرورة إيقاف المذابح .

رؤية جديدة للإبادة في كتابات بريمو ليفي وجيرزي كوزينسكي :

بريمو ليفي (١٩١٩ – ١٩٨٧) كاتب إيطالي وكيميائي ، وُلد لعائلة إيطالية يهودية مندمجة في تورين حيث درس الكيمياء في جامعتها وتخرج عام ١٩٤١ . ومع سيطرة الفاشيين على السلطة ، انضم إلى المقاومة الإيطالية ، ولكنه وقع في الأسر ورُحِّل إلى معسكر الاعتقال النازي في أوشفيتس . ونظراً لخبرته الكيميائية ، أُختير للعمل في معمل لإنتاج المطاط الصناعي لصالح المجهود الحربي الألماني . ومع انتهاء الحرب ، عاد إلى تورين بعد رحلة شاقة ، ليشتغل في تخصصه ، ولكنه اتجه في الوقت نفسه إلى الكتابة حيث أراد تسجيل تجربته في معسكر أوشفيتس باعتباره شاهداً على ما حدث هناك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك باعتبار أن عملية التسجيل وسيلة لتفريغ مشاعره . وكانت ثمرة مجهوده كتابه الأول **لو كان هذا رجلاً** (١٩٤٥) والذي وصف فيه تجربة معسكر الاعتقال بأسلوب مشابه لأسلوب دانتي في الجحيم ، وقد سعى فيه إلى تفسير عملية التجرد من الإنسانية التي جرت في أوشفيتس من جهة ، وقدرة البشر من جهة أخرى على الحفاظ على إنسانيتهم بفضل العقلانية والوعي بالذات . وفي كتابه الثاني **الهدنة** (١٩٦٥) ، روى رحلة عودته عبر أوربا إلى تورين بعد الحرب . وفي عام ١٩٧٥ ، كتب ليفي سيرته الذاتية تحت عنوان **الجدول الدوري** استخدم فيه أساس العناصر الكيميائية في الجدول الدوري ليرمز بذلك إلى الأحداث المختلفة التي جرت في حياته والشخصيات الكثيرة التي عرفها ومن بينها العَالم الألماني الذي عمل في معمله خلال فترة اعتقاله في أوشفيتس ، والذي ظل على علاقةَ عمل به بعد الحرب . وقد تناول ليفي أحداث معسكرات الاعتقال النازية مرة أخرى في كتاب **الغرقى والناجون** (١٩٨٦) والذي ضم مجموعة مقالات تناولت مواضيع مثل الشعور بالذنب لدى الناجين من المعسكرات وظاهرة المتعاونين مع الألمان .

وقد ابتعد ليفي عن اليهودية بشكل خاص وعن الدين بشكل عام وأصبح لا أدريًا ، ولكنه كان من المؤمنين بقيمة الصدق كقيمة مطلقة ودعا إلى التمسك بها على المستوى الشخصي ، ومن ثم قاوم إغراء الصلاة أمام احتمالات الموت أثناء وجوده في معسكر الاعتقال ، باعتبار أن دوافع الصلاة في مثل هذه الظروف دوافع عملية ، ولذا فهي لا تعبِّر عن التقوى بل هي شكل من أشكال الهرطقة والتجديف . مات ليفي منتحراً عام ١٩٨٧ حيث كان يعاني من حالة اكتئاب حاد أدَّى به على ما يبدو إلى الإقدام على الانتحار .

ورؤية ليفي للعالم متشائمة عدمية ، ويتجلَّى هذا في تناوله لموضوع الإبادة النازية ليهود أوربا إذ يرى أن الضحايا تعاونوا تماماً مع من ذبحهم ، ومن ثم فإن الإبادة كانت عملاً مشتركاً بينهما ولا يمكن تجريم النازيين وحدهم . وغني عن القول إن هذا الموقف أدَّى إلى هجوم الكثيرين عليه .

أما جيرزي كوزينسكي (١٩٣٣ - ١٩٩١) فهو كاتب أمريكي يهودي وُلد في مدينة لودز في بولندا ، وكان والده أستاذاً مرموقاً في جامعة لودز . تعرض كوزينسكَي ، خلال الاحتلال النازي لبولندا ، لتجارب مريرة وقاسية ، وعاش متشرداً في الريف البولندي ، وفقد القدرة على النطق لمدة ٦ سنوات . وقد تركت تجاربه المؤلمة في خلال فترة الحرب آثارها العميقة على نفسيته وشخصيته ، وتبدت في كتاباته التي غلب عليها الطابع المظلم والسوداوي . وتعبِّر روايته **العصفور الملون** عن جزء كبير من هذه التجارب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نال كوزينسكي درجة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة لودز عام ١٩٥٣ ثم الماجستير في التاريخ عام ١٩٥٥ من نفس الجامعة ، وعمل أستاذاً في معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ الثقافي . ولكنه هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٧ حيث التحق بالدراسات العليا في جامعة كولومبيا في الفترة بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٥ . وعمل محاضراً وأستاذاً زائراً وزميلاً لعدة جامعات ولعدد من مراكز الدراسات الأمريكية المرموقة .

ولكوزينسكي مؤلفات عديدة من أهمها **إستبس** ، أي خطوات ، التي نال عنها الجائزة القومية (الأمريكية) للكتاب عام ١٩٦٩ ، ومن أشهر أعماله أيضاً **أن تكون هناك Being There** (١٩٧١) الذي تحول إلى فيلم سينمائي كتب له كوزينسكي السيناريو ونال عنه عدة جوائز .

زار كوزينسكي بولندا عام ١٩٨٨ لأول مرة منذ ٣١ عاماً ، وأكد خلال زيارته على العلاقات التاريخية بين البولنديين واليهود ، وأدان جميع أشكال التحيز سواء ضد البولنديين أو ضد اليهود . كما نجح كوزينسكي ، الذي يترأس الصندوق الأمريكي للبحوث البولندية ـ اليهودية ، خلال زيارته هذه في عقد اتفاق لإقامة مؤسسة للتراث البولندي ـ اليهودي في كازيميز ، وهو الحي اليهودي القديم في كراكوف . وفي نفس العام، كان كوزينسكي قد حول شقته الصغيرة في نيويورك إلى مقر مؤسسة «برزنس» ، وهي مؤسسة تعمل للحفاظ على ما يُسمَّى «التراث اليهودي» .

وحينما زار كوزينسكي إسرائيل في عام ١٩٨٨ ، أثار كثيراً من الدهشة والاستياء عندما دافع عن معاملة البولنديين لليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وهاجم فيلم «شواه» الذي يتناول أحداث الإبادة النازية ، حيث اعتبره فيلماً متحيِّزاً وغير عادل على الإطلاق . كما أعرب عن رفضه أن يظل يُعرَّف مدى الحياة باعتباره أحد الناجين من الإبادة النازية .

محاكمة هتلر في رواية جورج ستاينر :

جورج ستاينر (١٩٢٩) هو مؤلف وعالم لغوي بريطاني يهودي يعمل حالياً أستاذاً في جامعتي كامبردج وجنيف ، من أهم مؤلفاته **تولستوي أو دوستودفسكي** (١٩٥٩) ، و **موت المأساة** (١٩٦٠) حيث يذهب إلى أن سبب موت المأساة هو المنظومة المعرفية المسيحية ثم الماركسية . أما في **اللغة والصمت** (١٩٦٧) ، فإنه يتناول مسألة التآكل التدريجي للرؤية الإنسانية (الهيومانية) بسبب إفساد اللغة عن طريق الدعاية السياسية والإباحية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والماركسية ، ومن ثم يصبح الصمت هو الاستجابة الوحيدة اللائقة لفظائع عصرنا . وفي **قلعة بلو بيرد** (١٩٧١) يبيِّن أن ثمة علاقة بين التجريد الموضوعي الذي يتسم به البحث العلمي وبين عدم اكتراث البشر بالحقائق السياسية الاجتماعية المتعينة . وقد طوَّر ستاينر موضوع اللغة في كتابيه **خارج حدود الدولة** (١٩٧١) ، و **بعد بابل** (١٩٧٥) ، حيث يحاول أن يقدم نموذجاً لعملية الفهم والإدراك .

كتب ستاينر رواية قصيرة بعنوان نَقْل **أ . هـ . إلى سان كريستوبال** ، ولم تحدث الرواية ضجة كبيرة وقت صدورها ، ولكنها حينما تحوَّلت إلى مسرحية تُعرض على مسارح لندن أصبحت حديث الناس وموضع سخطهم ومحط إعجابهم . ويجب أن نقرر ابتداءً أن هذه الرواية القصيرة ، ليست مجرد رواية سياسية محصورة في نطاق الصهيونية ، وإنما هي رواية ذات مجال إنساني واسع ، تتناول عدة موضوعات بعضها سياسي والآخر فلسفي . ويمكننا القول بأن الرواية تأخذ في شكلها المباشر شكل «رحلة مغامرات» من النوع الشائع . فثمة شائعة تقول إن هتلر لم ينتحر وأنه لا يزال على قيد الحياة مختبئاً في مكان ما في أمريكا اللاتينية (كما فعل عدد كبير من الزعماء النازيين ، ومن بينهم أيخمان) . وتحكي الرواية كيف أن أحد اليهود الذين نجوا من معسكرات الاعتقال يؤمن بصدق هذه الشائعات ويقضي بضع سنوات من حياته في البحث عن أ . هـ . (أدولف هتلر) وفي اقتفاء أثره إلى أن يتأكد من وجوده في داخل أعماق غابات الأمازون في البرازيل ، فيُعد الخرائط والخطة اللازمة ويُجند مجموعة من اليهود الأوربيين والإسرائيليين ، الذين يؤمنون بنظريته ، لتعبر البحار والقارات ثم تخترق الغابات إلى أن تصل البقعة المذكورة . وهناك تجد هتلر رجلاً هرماً يعيش مع حارسين ، عندئذ يقوم أفراد المجموعة بقتل الحارسين ثم يحملون غنيمتهم البشرية إلى سان كريستوبالً في البرازيل ، على أن يرسلوا به إلى إسرائيل كي يُحاكم هناك .

الرواية إذن رواية مغامرات في حبكتها (أو حدوتتها) مثل روايات شرلوك هولمز وأرسين لوبين ، ولكنها بغير شك أكثر من ذلك فهي أيضاً «رواية بحث» تتحوَّل فيها الأحداث السطحية إلى رموز مركبة وقضايا عميقة . ويستمر البحث هنا لعدة صفحات ، وهو بحث يقوم به عدة أوربيين في مجاهل غابات الأمازون المظلمة ، وهي في هذا تشبه الرحلات ذات النمط الأصلي المتكرر (بالإنجليزية : آرك تايب archetype) ، حيث يترك البطل عالم التاريخ المألوف ليغوص في الظلام وليواجه المجهول والشر (مثلما يحدث لمارلو في قصة كونراد **قلب الظلمة**) ، والبقعة التي يختبئ فيها هتلر تُوصف بأنها «جهنم الخضراء» ـ فهي جهنم التي يختبئ فيها الشيطان ـ فمياهها وصلت درجة الغليان ، ورمالها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتحركة لا تظهر على أية خريطة ، وهي تُوصف بأنها أرض المستنقعات والهواء الكبريتي الجهنمي . وإذا ما أشعل المرء مصابيح في هذه البقعة ، فإن الظلام الدامس يحيط بها ويلفها حتى يبدو وكأن الضوء يتراجع تحت هجماته . وحينما تمطر السماء هناك فهي لا تمطر مطراً عادياً مثل الذي نعرفه ، بل هي تهطل كالشلالات السوداء التي تندفع لعدة أيام وليال ، تقتلع في طريقها الأشجار السامقة وتحوّل التراب العطشان إلى بحيرة يعلوها الزبد ، وليس بإمكان أى شخص أن ينجو فيها بحياته . حينما تمطر الدنيا في هذه البقعة يتعاطى الهنود المخدرات حتى يسقطوا في غيبوبة كاملة ، ولا تظهر بقعة واحدة من ضوء الشمس لعدة أيام . والخفافيش التي تمتص دماء البشر ، والثعابين السامة والحشرات القاتلة ، كلها تهاجم الإنسان في هذه البقعة ، وتفتك به وتدمره أينما ذهب .

ومع هذا تُوصف البقعة بأنها «أقرب شيء إلى الفردوس على الأرض» . فقد أصاب الإنسان الأجزاء الأخرى بالبوار والخراب ، فاقتلع الأشجار وشوه الغابات وألقى فيها بالقاذورات . أما في هذه البقعة فثمة أمثلة حية على الفردوس : الزهور اليانعة التي لا يُعرف لها اسم ، أوراقها في رقة خيوط العنكبوت ، يشع بريقها على حافة المستنقعات . والنجوم تندفع في سكونها إلى قبة السماء .

ولكن لماذا تُوصف البقعة بأنها جنهم والجنة - الجحيم والفردوس ، دار العذاب ودار الهناء ؟ لعل الروائي يود أن يرى البقعة كجنة بسكانها الهنود الذين يعيشون في وئام مع الطبيعة على عكس الإنسان الأوربي الذي يحاول هزيمة الطبيعة وافتراسها . ولعلها محاولة من جانبه لإظهار تداخل الحقيقة والزيف ، وهذا هو أحد الموضوعات الأساسية في الرواية .

والقصة كما قلنا «قصة بحث» ، ولكنه بحث لا يكلل بالنجاح ، إذ تبدأ القصة بأشياء واضحة ، ومحددة أو شبه محددة ، فنحن نعرف أن هتلر السفاح هرب إلى غابات الأمازون واختبأ هناك ، وأنهم قبضوا عليه ، ولكن يوجد من البداية إلى النهاية أو ما يشبه النهاية خيط طويل متعرج . فنعرف شيئاً من الحقيقة ثم نفقدها ، ونقترب منها ثم نبتعد عنها ، ولا نكاد نمسك بالخيط حتى يفلت من بين أصابعنا . ولنأخذ هتلر نفسه ، هذا المركز الأساسي للرواية . من يكون ؟ هناك أولاً النظرية القائلة (التي يأتي ذكرها في الرواية) بأن هتلر كان يحتفظ دائماً بشبيه له ، وأنه حينما حانت اللحظة الحاسمة فإن الذي انتحر هو الشبيه وليس هتلر نفسه . ولكن هناك دائماً الاحتمال أن يكون الشبيه هو الذي فر ، وأن الذي انتحر هو الفوهرر ، ولكن من نصدق ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة نظرية أخرى ، ترد أيضاً في الرواية ، تقول إن هتلر كان في واقع الأمر يهودياً ، أو على الأقل تجري في عروقه دماء من أصول يهودية . (وهذه الرؤية الروائية قد لا تستند إلى حقيقة تاريخية ولكنها تستند إلى شائعة تاريخية . إذ يُقال إن هتلر كان طفلاً غير شرعي لرجل يهودي عاشر أمه وهجرها ، ويُقال إنه لهذا السبب حُرقت كل الأوراق في أرشيف قرية لنز بعد أسبوع من تولي هتلر منصب مستشار ألمانيا) . « هل قَتل هتلر كل اليهود لأنه كان في واقع الأمر يهودياً ، حتى يصبح بذلك هو اليهودي الوحيد المتبقي ؟ وإن لم يكن هتلر يهودياً ، كيف تأتى له إذن أن يفهم اليهود فهماً كاملاً ؟ » ؛ هذه هي بعض الأسئلة التي تطرحها هذه الرواية الخلافية .

تختلط في هذه المقطوعات «الحقائق» المصمتة ، بالنظريات المجردة ، بالشائعات التي لها أساس واه من الصحة ، بالأكاذيب التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بالتأملات الفلسفية التيّ تخرج بنا عن دائرة الواقع المباشر لتدخل بنا عالم الأنساق الفكرية ، بالأحاسيس الذاتية التي لا تحتمل الصدق أو الكذب لأنها مغرقة في الذاتية . من هو هتلر؟ هل هو البديل ؟ هل هو جزار اليهود ؟ أم اليهودي الذي سأم اللعبة وقرر أن يفجرها وينهيها ؟ من هو هتلر ؟

وما هو الهدف من رحلة الانتقام هذه : الحدث الأساسي في الرواية ؟ هل الغرض منها هو فعلاً القبض على هتلر (أو شبيهه أو بقاياه) إن وُجد لمحاكمته ؟ أليس من الأفضل الاحتفاظ بأسطورة هتلر الذي ذبح الملايين من اليهود ، لأنه لو حُوكم هتلر فإنه قد يصبح إنساناً أو مجرماً عادياً ، وتوقيع القصاص عليه قد يُنهي القصة أو القضية كليةً ؟ عند هذه النقطة تختلط الأمور في عقل القناصة اليهود ، ويقترح أحدهم إطلاق سراح هتلر والاحتفاظ بالأسطورة .

ونحن لا نعرف عن هتلر إلا من خلال الآخرين . فهو يصبح «جزاراً» أو شيئاً بعيداً نسمع عنه . في البداية يشيرون إلى «الجزار الأكبر» ، ذلك الذي يشير بإصبعه إلى الشعبان فيولي مذعوراً ، ويشع من عينيه بريق غريب ، وتتحرك شفتاه أثناء نومه وكأنه لا يزال يُدلي بإحدى خطبه الشهيرة للجماهير الألمانية فيَسحرها ويُنيمها ثم يُملي عليها إرادته .

نعم هذا هو هتلر ، ولكنه بعد أن يُلقي القناصة القبض عليه يصبح واحداً منهم ، بل إنه يحميهم فيُحذرهم من الخفافيش ماصة الدماء ، ويكون بمثابة المرشد لهم في الغابة . وحينما يسقط من على البطانية التي يحملونه عليها ، يضحك الجميع سوياً على ما حدث . وحينما يُصاب أحدهم بالحمى يُرشدهم إلى كيفية تمريضه ، بل ويُساعدهم هو نفسه في ذلك . ومن أطرف الأحداث في الرواية حادثة تنكو الهندي الذي يراقب هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجموعة من الرجال البيض التي تحمل رجلاً ، فلا يرى فيه سوى رجل عجوز ، شأنه شأن رجال قبيلته من الكهول الذين يجلسون على مشارف الأبدية . ولذاً حينما يُقرر أن يتواصل مع أفراد المجموعة " فإنه يذهب مباشرةً إلى حيث كان هتلر منحنياً فوق ظله ، فينحني أمامه ويضع هديته عند أقدامه . فهو يعرف أنه لابد من تكريم الكهول ، وأن الذين بلغوا من العمر عتياً ، مثل هذا الرجل المنحني القامة ، أثمن من الأحجار الكريمة . وبعد ذلك يتقدم إليه قائلاً : «أيها الرجل القديم ، فلتوص أسلافك بي خيراً» . وحينما يسمع هتلر صوت الموسيقى لأول مرة بعد مرور ثلاثين عاماً ، فإنها تشجيه ويطلب سماع المزيد ، ولكن قناصيه يرفضون ، وكأنهم هم ممثلو الشر في هذه العلاقة . وهكذا تختلط الحقيقة مرة أخرى في شخص هتلر ذاته . من هو الجزار ؟ ومن الضحية ؟

وتتكشف أحداث القصة من خلال مجموعة من الأضداد ، أوربا مقابل الغابة ، والحضارة مقابل الطبيعة ، والزمان مقابل اللازمان . ولا يروي القصة شخص واحد ولا عدة أشخاص وإنما يلجأ الكاتب إلى عدة أساليب سردية ، فنعرف الشخصيات إما من خلال الحوار أو من خلال مختارات من مذكرات كتبتها إحدى الشخصيات ، أو حتى من خلال استجواب . ومعظم الشخصيات مهم على مستوى القصة المباشرة . ولكنها أيضاً شخصيات ذات دلالة سياسية ، ثم هي أخيراً نماذج إنسانية لا يمكن ردها إلى مستوى القصة المباشر أو حتى إلى المستوى السياسي الأقل مباشرة . ولنأخذ لايبر اليهودي ، الذي اقتفى أثر هتلر ووضع الخريطة التي اهتدى بهديها القناصة ورسم الخريطة التي اتبعوها ، فلنأخذه ، كمثال على ما نقول . نحن لا نقابله مباشرةً طيلة الرواية ، وإنما نعرفه من خلال الشخصيات اليهودية الأخرى التي تتحدث عن حقده وإصراره ، وتتحدث أيضاً عن عذابه في معسكرات الاعتقال ، هذا العذاب الذي حوله إلى شخصية متعصبة لأقصى حد ، مستوعَبة استيعاباً كاملاً في أهدافها . ولذا فهم يرون أن لا وجود لهم خارج تصوراته وأحلامه وأوهامه ، وهم يظنون أن لايبر في انتظارهم بعد نجاح مهمتهم ، ولذا فهم يستمرون في إرسال الرسائل عن طريق اللاسلكي دون أن يتلقوا منه أية إجابة ، إذ يبدو أنه قد مات . ومع هذا يوجد فصل كامل عبارة عن إشارة لاسلكية يرسلها لايبر (بعد موته الذي لم يعرف به الآخرون) يخبرهم فيها بما يجب أن يفعلوه مع هتلر ، وكأن روحه تستمر معهم في مهمتهم حتى بعد فناء جسده : « وصلت الرسالة . هل تسمعونني ؟ لا تدعوه يتكلم ، أو فليتكلم بضعة كلمات وحسب . دعوه يعبِّر عن حاجته ، أن يقول ما يبقيه على قيد الحياة . ولكن لا تسمحوا له بأكثر من هذا . . إن نظرتم إليه باعتباره رجلاً عجوزاً ، تبلله المياه حين تسقط الأمطار ، يرتعد حتى العظام . . إذن سينتابكم الشك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ستظنون أنه إنسان مثلنا ، وأنه لم يرتكب ما ارتكب من جرائم . اسمعوا إلى ما أقول : إني أناديكم ، هل تسمعونني ، كمِّموه إن استطعتم فهو يرتدي قناعاً إنسانيًا . أخبروني أنكم لازلتم تذكرون . جيكوب كابلان ، مؤلف **تاريخ الفكر الجبري في شرق أوربا ١٦٨٠ - ١٦٥٥** ، الذي فُرض عليه أن يرقص على جثث الموتى . راشيل نادلمان ، في وايت سبرنج ، أوهايو ، التي تستيقظ كل ليلة وفمها مبلل بالعرق لأنه منذ واحد وثلاثين عاماً مضت سحبها ثلاثة كلاب ، من كلاب الحرس الخاص » . ثم يمضي لايبر في ذكر أسماء الضحايا دون أن يكمل جملة ودون أن يقص قصصهم كاملة ، فالمهم هو التذكر ، تذكر اسم الستة مليون ضحية ، وهو تذكر يتخطى الكلمات ، وقد خُتمت الرسالة كما يلي :

« هذا لايبر ينادي

هذا لايبر

هذا » .

ونحن نعرف أيضاً الضابط الروسي نيكولاي ماكسيموفيتش جروزديف الذي تم استدعاؤه لموسكو لاستجوابه عما يعرفه عن نهاية هتلر . إذ يبدو أن هذا الضابط السوفيتي سيء الطالع ، كان ضمن القوات السوفيتية التي اقتحمت معقل هتلر الأخير . وقد عبَّر عن شكوكه حينذاك في واقعة انتحار الفوهرر ، فأُرسل إلى معسكرات العمل معظم سنوات حياته إلى أن غيَّر موقفه وتبنى الخط الرسمي . ولكن بعد أن بدأت الإشارات اللاسلكية من القناصة اليهود تخرج من الأمازون ، بدأ الخط الرسمي نفسه يهتز على ما يبدو . ولكن ماكسيموفيتش جروزديف كان قد استوعب الدرس تماماً ، ولذا فهو يُخبر مستجوبيه أنه الآن على استعداد لأن يقول أي شيء يُطلب منه .

«وفي الحديقة العامة يقترب الضابط الكهل المتقاعد من إحدى الطيور ، هو الذي يحمل في عظامه ذكريات الأحياء الموتى ، هو الذي عُذِّب كي يُنكر ما يعرف ، يضحك بصوت عال ويقول : « هتلر إذن لا يزال حياً ؟ » .

انحنى ، قائلاً تلك الكلمات للعصفور ، وكانت عيون الطائر الباهتة تلمع على بُعد عدة بوصات من قدميه . وظل يُكرر الكلمات ، همسة جامحة ، حتى طار العصفور بعيداً » .

وهناك الكاتب الإنجليزي ، السير رايدر الذي كتب كتاباً موثقاً بشكل بالغ الدقة عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل لحظة من أيام هتلر الأخيرة ، الذي أخذ يشك في نظريته هو الآخر . وهناك وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الذي نعرفه من خلال حديث صحفي ، وكيف يبيِّع الأمور كلها ويخفيها باستخدامه المصقول للغة . وهناك البيروقراطي الفرنسي الذي يعشق النظام ولا ينطق إلا بالصيغ الجاهزة (المسيو كلشيه) ، والطيار الأمريكي الذي يود أن يحرز سبقاً صحفيًا «يبيعه» لوكالات الأنباء .

ولكن هناك أيضاً البروفسور روثلنج ، المحامي الألماني ، الذي تخصص في الجوانب القانونية لقضية هتلر ، وقد جعل كل همه أن يجد أرضية فلسفية راسخة يمكنه ، انطلاقاً منها ، أن يحاكم هتلر في محكمة عادية لا في محكمة خاصة . ففكرة المحكمة الخاصة ـ في رأيه ـ تتنافى مع روح القانون نفسها ، روح القانون التي قتلها هتلر ثم مثَّل بها . وهو يبحث عن شيء من الثبات ولذا فهو يعشق الموسيقى ، فالموسيقى حسب تصوره تنجح في خلق زمانها الخاص المختلف عن الزمان التاريخي ، فهي تخلصنا من ثعبان الماضي والحاضر والمستقبل الذي يُزرع فينا عند الميلاد ولا يتسلل مبتعداً عنا إلا عند الموت . وهناك الهندي تنكو والقناصة اليهود أنفسهم الذين نعرفهم واحداً واحداً عن قرب . إننا هنا في حضرة الجنس البشري عموماً ، والحضارة الغربية خصوصاً ، وهي الحضارة المسئولة عن الجريمة النازية ، كما تقول الرواية .

والشخصيات كلها تكشف لنا عن شيء من الحقيقة ، كل من وجهة نظرها ، ولكن نظراً لتعدد وجهات النظر تتضارب عمليات الكشف المختلفة ، وبدلاً من أن تتعمق الرؤية نجدها تتهالك وتتآكل وتكاد تختفي كليةً . وتستخدم الشخصيات لغات وأساليب مختلفة ، الأمر الذي يُثير قضية في غاية الخطورة وهي مدى جدوى اللغة كأداة للتعبير ، وهذا هو أحد الموضوعات الأساسية في الرواية . والمؤلف كما قلنا عالم لغة ، ولذا فالموضوع ولا شك يشغل باله ، وهتلر بالنسبة له ليس مجرد جزار اليهود بل هو أيضاً القائد الذي نجح في تحويل الكلمة من أداة للتعبير إلى أداة للتدمير ، هو الذي أفسد اللغة ، تماماً كما أفسد تعذيب الضابط الروسي لغته فلم يُعبِّر عن ذاته وإنما عن الخط الحزبي ، تماماً كما فعل وكيل الوزارة الأمريكي الذي استخدم كلمات عديدة معسولة لليبرالية ديموقراطية ولكنه في واقع الأمر لم يقل شيئاً . ولأن اللغة فاسدة نجد أن لايبر يُحذر القناصة من الاستماع لحديث هتلر الذي يعرف أنه سيقودهم «نحو جهنم» . ويُصغي البروفسور روثلنج للموسيقى عسى أن يصل للغة تعبيرية جديدة تقهر الزمان والفساد وتتخطى الحدود ـ لغة مبنية على التناسق ـ « هذا المحك النهائي لأرستقراطية الإنسان» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكما قلنا من قبل لا ترد الأحداث في الرواية حسب ترتيبها الذي تقع فيه ، وإنما يخضع ترتيبها لمنطق الرواية الداخلي ، فتبدأ القصة لا مع بداية الأحداث، وإنما مع أهمها: لحظة العثور على هتلر . وتبدأ الرواية على هذا النحو (وهذه كلمات فتى صغير كان ضمن القناصة اليهود) .

«- أنت !

الرجل العجوز يرخي شفتيه :

ـ أنت . أهو حقاً أنت ؟ بحق السماء أنظر إلى نفسك الآن ، أنظر إلى نفسك ، أنت . هذا الذي خرج من الجحيم . . .

إنك حقاً هو . أليس كذلك . ها نحن قد أمسكنا بك . . . سيعرفك الجميع . كل العالم . ولكن ليس بعد . إذ يجب أن نَخرج بك من هنا . أنت في أيدينا ، في أيدينا . أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟ لقد أسلمك الإله إلى أيدينا . لم تلزم الصمت الآن ؟ يا من صوته . . يقولون إن صوتك كان قادراً على ـ لم يكن الصبي قد سمع هذا الصوت قط ـ أن يحرق المدن . يقولون إنك حينما كنت تتحدث كانت تتحوّل أوراق الشجر إلى رماد وكان الرجال يذرفون الدموع . يقولون إن النساء حينما كن يسمعن صوتك ، صوتك وحسب ، إن النساء حينما كن يسمعن صوتك . ثم توقف . فآخر امرأة رآها كانت على ضفاف نهر جيارو ـ على بُعد عدة مستنقعات ـ عجوز لا أسنان لها ـ جالسة القرفصاء بجوار البركة الخضراء ولم تلوح لهم .

ـ كن يمزقن ثيابهن ، لمجرد سماع صوتك .

ثم تملكه الغضب .

ـ لمَ لا تتحدث ؟ لمَ لا تجيب عليّ ؟ سيرغمونك على الكلام ، سينتزعون منك الكلمات انتزاعاً . أنت في أيدينا . نحن نمسك بك . بعد ثلاثين عاماً من محاولة اصطيادك . كابلان مات . وكذا فايس وآسل . بلى ، إنك ستتكلم . حتى يُنزع الجلد عن جسمك . وعن روحك .

كان الصبي يصيح الآن . يمتص الهواء ويصيح . نظر الرجل العجوز إليه وأغمض عينيه ثم فتحها بسرعة وقال :

ـ أنا » .

يبدأ الفصل الأول بسؤال ، تتبعه عدة جُمل معظمها غير مفيد أو ناقص ، كما أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينتهي بسؤال ؟ والسؤالان هما في واقع الأمر سؤال واحد وكأن الروائي يريد أن يربط ـ من البداية ـ بين الصيد والصياد ، وبين الفريسة والمفترس ، وبين هتلر واليهود .

والرواية هي محاولة للوصول إلى حقيقة ما ، الذات الهتلرية واليهود ، أو الجريمة والقصاص ، أو التاريخ والأسطورة . ولكننا لا نصل إلى أية إجابة قاطعة أو غير قاطعة . وحينما نصل إلى الفصول الأخيرة تتشابك الخطوط والموضوعات كلها إذ يُقرر القناصة أن يعقدوا محاكمة هتلر على الحدود الفاصلة بين الأضداد المختلفة ـ الغابة والتاريخ ، والزمان واللازمان . وهم يُقررون محاكمته بأنفسهم خشية أن يقع في يد الحكومة الأمريكية أو الروسية أو الإنجليزية أو غيرها من حكومات الأغيار (أي غير اليهود) فيُحاكمونه على طريقتهم هم ، من وجهة نظرهم هم . ثم يصدرون عليه الأحكام ويُوقعون عليه القصاص ـ وكأنه مجرم عادي وبذا تضيع دلالته وتزول الأسطورة .

يُعد القناصة العدة لمحاكمة هتلر ، ويُعينون من بينهم مدعياً ليقرأ الاتهام ومحامياً للدفاع عنه وشاهدين ، أحدهما تنكو الهندي الذي يضع كرسياً ليجلس عليه المتهم . ثم يُعينون واحداً منهم قاضياً ليُدلي بالحكم .

ولكن تحدث المفاجأة الكبرى في خاتمة هذه الرواية التي تتناول موضوع عدم جدوى الكلمات أو حدودها الضيقة ، إذ يتدفق صوت هتلر مدافعاً عن نفسه وكأنه الرعد أو السيل ، أو اذكر ما شئت من عناصر الطبيعة التي لا يمكن لأي كائن أن يوقفها ، حتى يصبح المتهم وكأنه هو القاضي الذي يُحاكم قضاته وكأنهم هم المتهمون . والفصل الأخير من الرواية هو دفاع هتلر عن نفسه ، وسنترجم أجزاء طويلة منه لأنه أهم أجزاء القصة ، وأكثرها دلالة بالنسبة لنا . وسنكتفي بالتعليق من آونة لأخرى . يقول هتلر دفاعاً عن نفسه :

« إرستربونكت (أي النقطة الأولى) لأنه يجب أن تفهموا أنني لم أختر شيئاً . لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر ، الذي كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى . أكاذيب . أكاذيب . . . لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك . قوة تعاليمكم الخفية . تعاليمكم أنتم . شعب مختار . شعب اختاره الله لنفسه . العرق الوحيد المختار على وجه الأرض . . . وجعله الإله فريداً دون البشر » .

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم ، ويشير خصوصاً إلى بطولات يشوع بن نون ، وهو بطل قومي/ ديني يتواتر ذكره في الكتابات الصهيونية ، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كليةً وأباد سكانها ، نساءً ورجالاً وأطفالاً ، حتى الحيوانات ، هي الأخرى أُبيدت بحد السيف . ولذا فهتلر يرى أن كتاب اليهود المقدَّس تفوح منه رائحة الدم . ثم يُضيف قائلاً : « لقد تعلمت أن أي شعب لابد وأن يكون مختاراً كي يُحقق مصيره ، وألا يكون هناك أي شعب آخر في نفس مرتبته : الأمة الحقيقية سر دفين ، جسد واحد خلقه الله بإرادته ، وخلق دمها الطاهر ، خلقها سر الإرادة والاختيار . أن تهزم أرضها الموعودة وتستعبد كل من يقف في طريقها . وأن تعلن نفسها خالدة أبدية » .

ومن الواضح هنا أن المصطلح الذي يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيوني وبمفهوم الشعب العضوي (فولك) والشعب المختار . ثم يستطرد هتلر قائلاً : « لم تكن عنصريتي سوى تقليد هزلي لعنصريتكم أنت ، تقليد هزيل . ماذا يكون الرايخ الذي سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية . . فلتصدروا حكمكم عليّ ولكن يجب أن تصدروا حكمكم على أنفسكم كذلك ـ أيها المختارون » .

والنقطة الثانية التي يُثيرها هتلر هي نقطة فلسفية ، فهو يتهم اليهود بأنهم هم الذين اخترعوا فكرة الإله المفارق ، وفكرة التجاوز (ترانسندنس transcendence) . ويتهم اليهودية بأنها أرسلت كذلك كارل ماركس بنزعته الطوباوية والذي بشرَّ بعالم جديد خال من الطبقات ويتجاوز الأمر الواقع . واليهود بهذا المعنى هم الذين زرعوا ميكروب اليوتوبيا ، فاليهودي كالنمو السرطاني الذي يجب استئصاله ، ومن هنا كانت ضرورة الحل النهائي . ووجهة النظر التي يُفصح عنها هتلر هنا هي وجهة نظر نيتشوية نخبوية حتى النخاع لا تؤمن بأخلاق الضعفاء ولا بالعدالة ولا بالمساواة ولا بإمكانية التجاوز ، كما أن إلهها ليس إلهاً مفارقاً ولا منزهاً ، فهو إله وثني متجسد في التاريخ ، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن تصور الصهاينة لدولة إسرائيل باعتبارها القداسة المطلقة وموضع الحلول . بل إن الصهيونية في انتقادها لشخصية يهود الدياسبورا (الشتات) لتقترب إلى حدٍّ كبير من وجهة نظر نيتشه في انتقاده للمسيحية ، ومن وجهة نظر هتلر نفسه في انتقاده لليهودية . وإذا كان هتلر قد طرح الحل النهائي (بمعنى الإبادة من خلال التهجير والسخرة والتصفية الجسدية) بالنسبة لليهود وكاد ينجح في إنجازه ، فإن الصهيونية هي الأخرى تهدف إلى القضاء على يهود المنفى تماماً بترحيلهم إلى إسرائيل حيث يتخلون عن دورهم التقليدي ويصبحون أقوياء لا علاقة لهم بفكرة العدالة ويتخلون عن الإله المفارق المتسامي ويعبدون العجل الذهبي الصهيوني ، أي دولة إسرائيل .

ثم بيَّن هتلر أن ما فعله قوبل بالترحيب الخفي من الدول الأوربية . وعند هذه النقطة يُلقي هتلر في وجه محاكميه ببعض الحقائق عن الحضارة الغربية ككل : « أنا لم أخلق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبح ، ولم أكن أسوأ القبحاء . بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات ـ إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض الزهري حينما اغتصبوا الكونغو ؟ أجيبو عليّ يا سادة . أم يجب عليّ أن أُذكركم . عشرون مليوناً . هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد في المهد صبيا ؟ في لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين » . ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفاً وعداً .

والنقطة الثالثة والأخيرة التي يُثيرها هتلر هي أكثر النقاط أهمية ، فالنقطتان الأولى والثانية تُشيران إلى الصهيونية بشكل غير مباشر ، أما الثالثة فهي واضحة ومباشرة .

«هذا الكتاب الغريب المسمى **الدولة اليهودية** (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيوني) قرأته بعناية بالغة . إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية) ، اللغة ، الأفكار وحتى النبرة نفسها . إني أتفق معكم أنه كتاب ذكي صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة . ولكن من الذي خلق إسرائيل في واقع الأمر ، هرتزل أم أنا ؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز ؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل . . دون مذبحة الإبادة التي قمت بها . إن مذبحتي هي التي أعطتكم شجاعة الظلم التي جعلتكم تطردون العربي من منزله وحقله لأنه كان يقف في طريقكم . هذا هو الذي جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذي قمتم بطردهم، يجلسون يكاد يأكلهم العفن في معسكرات اللاجئين ، على بُعد أقل من عشرة أميال [من وطنهم] . مدفونين أحياء في بؤسهم » .

ثم يختتم هتلر المرافعة بهذه الكلمات :

« أيها السادة أعضاء المحكمة . لقد أخذت عقائدي منكم . . إن جرائم الآخرين فاقت جرائمي . إن الرايخ هو الذي ولد إسرائيل . هذه هي كلماتي الأخيرة . . في وسط التردد وعدم اليقين تظل الأمور معلقة حتى يحين وقت كشف كل الأسرار » .

وهنا تنتهي مرافعة هتلر « التي لم يفهم كلماتها تنكو ، وإنما أدرك معناها وحسب » ، أي أنها مرافعة من القوة واليقينية بحيث أن معناها يصل إلى الآخرين متخطياً الكلمات . ولا يجيب القضاة ولا مندوب الاتهام على هتلر ولا يُلقي المحامي بدفاعه . هل هذا يعني أن المتهم قد أفحمهم جميعاً ؟ هل هذا يعني أنه لا يوجد دفع لما يقول ؟ لا ندري ، ولا يحسم الروائي القضية ، إذ تنتهي الرواية بالعالم الخارجي يحدق بالقضاة والمحامي والمتهم . وتضيع الكلمات (وربما الحقيقة أيضاً ؟) في ضجيج المحركات إذ نسمع صوت طائرة ثم أخرى . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاهوت موت الإله :

١ ـ لاهوت موت الإله :

كلمة «لاهوت» تشير إلى التأمل المنهجي في العقائد الدينية . وعلى هذا، فإن الحديث عن «لاهوت موت الإله» ينطوي على تناقض أساسي . ومع هذا، شاعت العبارة في الخطاب الديني الغربي ، خصوصاً في عقد الستينيات . وعبارة «موت الإله» في حد ذاتها مأخوذة من فيلسوف العدمية والعلمانية الأكبر فردريك نيتشه . ويحاول لاهوت موت الإله تأسيس عقيدة تصدر عن افتراض أن الإله لا وجود له وأن موته هو إدراك غيابه .

والحديث عن موت الإله أمر غير مفهوم في إطار إسلامي ، فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وفي المسيحية (ورغم حادثة الصلب) فإن الإله موجود من الأزل إلى الأبد . والشيء نفسه يُقال عن الطبقة التوحيدية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . ولكن ، في إطار حلولي ، يصبح الحديث عن موت الإله أمراً منطقيًا ، فالحلول الإلهي يأخذ درجات منتهاها وحدة الوجود حيث يتجسد (يحل) الإله تماماً في الطبيعة وفي أحداث التاريخ ويتوحد مع الإنسان ومع مخلوقاته ويصبح كامناً فيهما . ولكن لحظة وحدة الوجود هي ذاتها اللحظة التي يصبح الإله فيها غير متجاوز للمادة ، ويتوحد الجوهر الرباني بالجوهر المادي ويصبح هناك جوهر واحد ، ومن ثم يفقد الإله سمته الأساسية (تجاوزه للطبيعة والتاريخ وتنزهه عنهما) ويشحب ثم يموت ، ويصبح لا وجود له خارج الجوهر المادي . ولاهوت موت الإله هو فكر ديني مسيحي ويهودي ظهر في عقد الستينيات في العالم الغربي ، وما يهمنا هنا في هذه الدراسة هو التيار اليهودي داخله .

ويمكن القول بأن لاهوت موت الإله هو حلولية كمونية مادية ، حلولية يموت فيها الإله تماماً (وحدة وجود مادية) وتحل مطلقات دنيوية أخرى كامنة في المادة والتاريخ محله . وينطلق لاهوت موت الإله عند اليهود من فكرة قداسة التاريخ اليهودي النابعة من قداسة الشعب اليهودي ومن مركزيته الكونية، وهي قداسة تشمل ما يقوم به هذا الشعب من أفعال ، وما يقع له من أحداث . وأهم الأحداث التي وقعت له في الماضي هي العبودية في مصر والخروج منها ، والسبي البابلي والعودة منه ، ثم سقوط الهيكل والشتات . ولكن أهم ما وقع لليهود على الإطلاق هو الإبادة النازية ليهود أوربا . وهذه الإبادة ليست فعلاً ارتكبته الحضارة الغربية ضد ملايين البشر (من يهود وبولنديين وغجر ومعوقين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعـجـائز) ، وإنما هي جـريمة ارتُكبت ضـد اليـهـود وحـسب . وهكـذا يُنظر إلى الإبادة باعتبارها حادثة تاريخية تجسد للشر المطلق، وهي رهيبة لدرجة أنها تنفي وجود الخير والعقل واليقين والأمل ، وهي أخيراً تنفي وجود الإله . وحتى إن كـان الإله موجوداً فيجب ألا نثق فيه لأنه تخلى عن الشعب اليهودي . بل إن هذه الحادثة تكاد تكون حدثاً يقف خارج التاريخ، فهي عدم تام . وهي مدلول متجاوز لا يمكن لدال أن يدل عليه ؛ فهو مرجعية ذاته ولا يمكن فهمه إلا بالعودة إليه خارج أي سياق . ويمكن القول بأن كلمة «هولوكوست» أصبحت دالاً ومدلولاً في الوقت نفسه ، فهي تشبه الأيقونة . ولذا، فالفهم غير ممكن ولا يمكن سوى التذكر .

وكما جاء خروج اليهود بعد العبودية في مصر ، والعودة بعد السبي في بابل ، جاءت وقفة الشعب اليهودي ومقاومته لما يتهدد بقاءه في أعقاب حادثة سقوط الهيكل والشتات ثم الإبادة . ولنا أن نلاحظ الثنائية الصلبة التي تسم لاهوت موت الإله : عبودية/ خروج ـ سبي/ عودة ـ شتات/ استقلال إسرائيل ـ إبادة/ بقاء الشعب ، وهي ثنائية صلبة تأخذ شكل حركة دائرية متكررة (ويتسم التفكير الحلولي بالدائرية إذ يختفي التاريخ ويتداخل القومي والديني والإنسان والإله) . ولكن هذه الوثنية الحلولية الجديدة هي وثنية بدون إله ، إذ تحل الذات القومية محل الإله تماماً ، أي أن الشعب اليهودي استوعب في ذاته كل المطلقية والقداسة الممكنة وأصبح مركز الكون والكلمة المقدَّسة (لوجوس) والغرض الإلهي (تيلوس) معاً وفي آن واحد . ولذا ، تُعدُّ مقاومة الشعب اليهودي للإبادة بمنزلة تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفوت) في التراث القبَّالي؛ فهذه المقاومة هي التي تقوم بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) . وهي عملية يقوم الإله من خلالها باستعادة وحدته التي فقدها أثناء عملية تهشم الأوعية (شفيرات هكيليم) . وكلما قاوم اليهودي ، زادت عملية الإصلاح تسارعاً واكتملت استعادة الإله لوحدته . ومن ثم ، فإن الشعب اليهودي يوجد خارج التاريخ ككيان لا يخضع لقوانينه العبثية ، ويؤكد المعنى من خلال مقاومته ، أو هو بمنزلة الجسر الذي يصل بين الإله والتاريخ (على حد قول آرثر كوهين) . وكل هذا يتضمن فكرة حلولية كمونية متطرفة وهي أن الشعب هو الإله وأن هذا الإله لا يتجاوز تاريخ هذا الشعب وإنما يتجلى ويحل ويذوب فيه تماماً ويختفي !

وإذا كانت الجريمة الكبرى هي الفناء ، فالفضيلة الكبرى هي المقاومة والبقاء، وكل هذا يجسده ظهور دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة تعبِّر عن إرادة الشعب اليهودي ورغبته في البقاء ، وتثبت أن الشعب اليهودي يرفض أن يلعب دور الشعب الشاهد كما ترى المسيحية، ولا أن يكون شعباً شهيداً كما تتصور اليهودية الحاخامية التي ترى أن اليهود تم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اختيارهم ليكونوا شعباً من الشهداء والقديسين والأنبياء والكهنة لا سيادة له ، عاجز لا يشارك في السلطة (وهو الدور الذي يرى دعاة لاهوت موت الإله أنه أدَّى باليهود إلى الاستسلام للإرهاب النازي ، وعبَّر عن نفسه في اشتراك القيادات اليهودية في المجالس اليهودية التي أسسها النازيون والتي قامت بتسليم اليهود إلى قاتليهم) . لكن الدولة الصهيونية تقف على الطرف النقيض من هذا كله ، فهي تحل مشكلة العجز اليهودي الناجم عن انعدم السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، فإسرائيل دولة ذات سيادة ولها سلطة وجيش قوي ومؤسسات عسكرية تدافع عن الإرادة اليهودية المستقلة ، وإسرائيل هي الشيء الإيجابي الذي ظهر من رماد أوشفيتس ، وهي (باعتبارها رمز بقاء الشعب) تشكل هزيمة للعدم ولهتلر (ولذا ، يُشار إلى لاهوت موت الإله بأنه «لاهوت البقاء» و«لاهوت ما بعد أوشفيتس») . بل إن إسرائيل هي حقًا الوسيلة الكبرى لعملية الإصلاح الكوني . فمن خلال هذه الدولة يعلن المطلق عن نفسه ويُستعاد الحضور الإلهي داخل التاريخ (على حد قول الحاخام إليعازر بركوفتس) . فبقاء الشعب والدولة هو بقاء الإله ، واستمرار الشعب والدولة هو استمرار الإله . ولذا ، فإن من يقف ضد الدولة ولا يقبلها فهو كمن ينكر وجود الإله ، ومن يقبلها بلا شرط فهو وحده المؤمن (على حد قول آرثر روبنشتاين) . وقد صرح الحاخام إيوجين بورويتز أحد مفكري لاهوت موت الإله بأن الدولة الصهيونية إبان حرب ١٩٦٧ لم تكن وحدها المهددة بالخطر ، بل كان هذا الخطر محدقاً بالإله نفسه .

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم المعرفة والتاريخ إلى عالم الشعائر والأخلاق . والقيمة الأخلاقية المطلقة هي بقاء الشعب اليهودي ، فهذا البقاء هو نهاية في ذاته ، والحفاظ على الدولة وبقائها وبأي ثمن هو أيضاً مطلق أخلاقي (أو ليس دفاع اليهود عن أنفسهم هو دفاع عن الإله ؟) ، ومن ثم نجد أن لاهوت موت الإله يؤدي إلى ظهور أخلاقيات داروينية ، أي أخلاقيات هي في جوهرها لا أخلاقيات ، إذ أنها لا تحاكم إسرائيل بأية مقاييس أخلاقية ، وإنما تبرر كل أفعالها وتقبلها تماماً . بل إن الشغل الشاغل للشعب اليهودي هو : تذكر الإبادة وما حل بهم ، ثم الالتزام ببقاء إسرائيل وحماية سيادتها وصون بقاء الشعب اليهودي ، بأية طريقة ودون الالتزام بأية قيم .

أما الشعائر ، فهي تكتسب أبعاداً جديدة تماماً . فإن كان تذكُّر الذات اليهودية واجباً أخلاقياً ، فإن كتابات اليهود من أمثال إيلي فيزيل عن الإبادة تصبح هي الكتب المقدَّسة ، مثل متحف بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا في إسرائيل) مستودعاً للذاكرة وتصبح زيارته شعيرة دينية مقدَّسة ، والأوامر والنواهي يضاف إليها أوامر ونواهٍ تضفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطابع الديني على الدولة والمؤسسات الصهيونية والإسرائيلية مثل مؤسسة اليهودية والكنيست وجيش إسرائيل .

وقد نجح اليهود ، في حوارهم مع المسيحيين ، في أن يجعلوا من الإيمان بالدولة الصهيونية أحد المطلقات التي لا يجوز في شأنها حوار ، كما لا يمكن مناقشة أفعالها .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن إدراك يهود أوربا للإبادة النازية على هذا النحو هو إدراك حلولي كموني متأثر بحادثة الصلب المسيحية (وتشويه له في الوقت نفسه) ، فالمسيح هو اللوجوس ابن الإله الذي ينزل فيُصلب ثم يقوم ويعود إلى أبيه (وهذا هو الحلول المؤقت الشخصي المنتهي) . أما في اليهودية ، فالشعب هو اللوجوس الذي يعيش بين الأمم ويتعرض للشتات والعذاب وأخيراً الصلب في حالة الإبادة النازية . وكما أن حادثة الصلب لابد أن تُقبل كما هي في الوجدان المسيحي ، فإن لاهوت موت الإله اليهودي يتطلب من اليهود والأغيار قبول حادثة الإبادة باعتبارها سراً من الأسرار . وكما أن المسيح يقوم بعد الصلب ، فإن الشعب يبقى بعد الإبادة ثم يقوم على هيئة الدولة الصهيونية! أي أن الحلول المسيحي الشخصي المنتهي يتحول إلى حلول قومي دائم ومستمر .

ولا شك في أن هذا الخطاب لا علاقة له بأي دين ، سواء أكان الإسلام أو المسيحية أو حتى اليهودية الحاخامية . وهو بالفعل يصدم أسماع كثير من الحاخامات الذين قاموا بتكفير أصحابه . ولكن التركيب الجيولوجي للعقيدة اليهودية يجعل من الممكن وجود سوابق لمثل هذه الأفكار . ففكرة الإصلاح (تيقون) في القبَّالاه اللوريانية تمنح اليهود مركزية كونية وتجعل وجود الإله أو وحدته مرهوناً بوجودهم . والقبَّالاه لم تكن هرطقات ثانوية هامشية وإنما كانت العمود الفقري لليهودية الحاخامية أو لتيار مهم داخلها .

ويمكننا ببساطة القول بأن لاهوت موت الإله (وحدة الوجود المادية) هو اللحظة التي تتم فيها صهينة اللاهوت اليهودي تماماً، إذ يختفي الإله تماماً ويموت وتموت معه شعائره وكتبه المقدَّسة ليحل محله إله جديد هو الدولة الصهيونية، وتظهر شعائر جديدة هي الدفاع عن الدولة وتَذكُّر الشعب اليهودي، أما الكتب المقدَّسة فهي سجلات هذه الذاكرة .

وكثير من الحركات الصوفية الحلولية تترجم نفسها إلى أساطير من هذا النوع ، ويخلع الأتباع القداسة على أنفسهم . ويُلاحَظ كذلك أن الحركات الفاشية تخلع القداسة على نفسها وعلى تاريخها وتعلن نهاية التاريخ . ومع هذا ، فإنها تتحرك داخل التاريخ لاغتيال الأطفال والاستيلاء على الأرض . هذا ما فعله النازيون ، وهذا ما يفعله الصهاينة . ولاهوت موت الإله ينجز ذلك أيضاً ، لكنه يحتوي داخله على تناقض أساسي ، فهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يصر على أن يخلع المطلقية على اليهود ومؤسساتهم وتاريخهم (فالإبادة لا يمكن النقاش في معناها ، والدولة الصهيونية لا يمكن نقدها أو الحوار بشأنها ، وهكذا) ، ولكنه في الوقت نفسه يرفض دور الشاهد على التاريخ ويصر على المشاركة في السلطة ، مع أن من يتصف بالمطلقية يقف خارج التاريخ ، أما من يشارك في السلطة ويستخدمها فهو يقف داخله . ولكن هذا التناقض العميق تتصف به كل النماذج الحلولية الكمونية حينما تتحول إلى نظام حكم .

ولاهوت موت الإله هو تعبير عن العلمنة الشاملة الكاملة للنسق الديني اليهودي ، فهو شكل حاد من حالات توثن الذات القومية التي تتحول إلى مطلق يعبِّر عن نفسه من خلال مطلق آخر : الدولة . وهي مطلقات مادية لها كل صفات الغيب والميتافيزيقا دون أن تُحمِّل من يؤمن بها أية أعباء أخلاقية ، بل وتعطيه العديد من المزايا ، والتزامه الوحيد هو البقاء . ولكن البقاء بأي شرط ليس عبئاً وإنما هو حالة تتسم بها كل المخلوقات البيولوجية ، لا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان الأعجم والنبات الذي لا يتحرك ، فهذه هي أخلاقيات النظام المادي الواحدي الذي ينتظم كلاً من الإنسان والمادة ، وهذا هو ميراث عصر الاستنارة .

ولعل إدراكنا لمنطلقات لاهوت موت الإله بمطلقيته وتاريخيته ، وكذلك إدراكنا لنتائجه المعرفية والأخلاقية ، يفسر لنا شيئاً من الموقف الصهيوني والإسرائيلي تجاه العرب ، فإذا كانت الذات القومية مطلقة فلا مجال للحوار مع الآخر ولا حقوق له فهو يقع خارج الدائرة المقدَّسة . ويمكننا أن نقول إن لاهوت موت الإله هو النسق الكامن وراء الخطاب السياسي الإسرائيلي بكل علمانيته وبريقه وعنفه وقوته .

إن لاهوت موت الإله هو تعبير عن النسق المعرفي الجديد الذي يسيطر في الوقت الحالي على الحضارة الغربية ، أي نسق ما بعد الحداثة (التي يشار إليها أيضاً بالتفكيكية أو ما بعد البنيوية) وهي شكل من أشكال العدمية الكاملة التي لا تنكر وجود الإله وحسب ، وإنما تنكر أية مركزية للإنسان ، بل وتنكر فكرة الطبيعة البشرية ذاتها . وهي لا تنكر الحقيقة الدينية وحسب وإنما الحقيقة في أساسها ، ولا تتمرد على فكرة القيمة الدينية أو الأخلاقية ، وإنما على فكرة القيمة ذاتها ، أي أنها تنكر قيمة القيمة ، وهى فى هذا لا تختلف كثيرا عن الرؤية النازية للكون .

ومن أهم مفكري لاهوت موت الإله إرفنج جرينبرج وريتشارد روبنشتاين وإميل لودفيج فاكنهايم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ إرفنج جرينبرج :

حاخام أمريكي يوصف بأنه أرثوذكسي وبأنه مفكر تربوي أمريكي يهودي. وُلد في بروكلين ، وعمل في جامعة برانديز كمدير لجماعة هليل الطلابية وكمحاضر ، ثم عمل أستاذاً للتاريخ في جامعة يشيفا .

وينطلق فكر جرينبرج من نقد جذري عميق لكل من الدين والحداثة من خلال واقعة الإبادة . فاليهودية والمسيحية في رأيه مسئولتان عن الإبادة لأنهما أدتا إلى عجز اليهود : المسيحية بقيامها بتجريد اليهود من السلطة وتحويلهم إلى شعب شاهد وبتوليدها كُرهاً عميقاً تجاه اليهود لدى المسيحيين ، واليهودية الحاخامية بتقبلها العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة واعتباره حالة نهائية لن تنتهي إلا بمقدم الماشيَّح . فاليهود ، حسب تصور اليهودية الحاخامية ، شعب مختار من الكهنة والأنبياء والشهداء .

ولكن الحل لا يكمن في الاتجاه إلى العلم ، فالحضارة الحديثة التي نقلت الولاء من إله التاريخ والوحي إلى إله العلم والإنسان لم تؤد إلى سعادة الإنسان وإنما إلى الإبادة ، والمجتمع الحديث بكل آلياته وإمكاناته هو الذي جعل الإبادة أمراً ممكنا . بل إن كلاً من المؤسسات الدينية والحديثة مرت على الإبادة مروراً عابراً وتقاعست عن واجب تحديها بالخروج عن الصمت ، أي أن جرينبرج يرفض أن ينسب أية مطلقية للعقيدة الدينية أو للمجتمع العلماني .

وحلاً لهذه المشكلة ، يقترح جرينبرج أمراً جديداً تماماً فبدلاً من الحديث عن الإيمان والإلحاد، علينا أن نتحدث عن لحظات من الإيمان ولحظات من الإلحاد، وعلينا أن نتقبل كلاً من لحظات الإيمان مع لحظات الإلحاد، وبذا نتخلص من الثنائية التقليدية التي تضع الإيمان في مقابل الإلحاد، وفي هذا تَقبُّل للتعددية الحقة حيث لا يوجد مركز دائم وإنما هناك مراكز متعددة متنقلة متغيرة تماماً كعلاقة الدال بالمدلول في الفكر التفكيكي وفكر ما بعد الحداثة (فهي علاقة مؤقتة غير نهائية) . وحياة الشعب اليهودي بأسره هي جدل مستمر بين لحظات الإيمان ولحظات الإلحاد ، وهو ما يسميه جرينبرج «جدلية القدس» أو «جدلية أوشفيتس» . فالقدس ترمز إلى لحظة الإيمان بالإله والشعب وتبعث على الأمل ، أما أوشفيتس فترمز إلى الاغتراب عن الإله والناس وتبعث على القنوط . ورغم إصرار جرينبرج على عدم تفضيل الإيمان على الإلحاد ، ورغم سعيه إلى نفي فكرة المركز ، إلا أنه يرى أن المؤمن هو من يمارس عدداً من لحظات الإيمان والأمل يفوق عدد لحظات الإلحاد واليأس .

ويقدم جرينبرج تاريخاً لليهودية هو تطبيق لنظرية اختفاء المركز هذه ، فتاريخ اليهودية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعبِّر عن ظاهرة اختفاء الإله تدريجيًا . ولإثبات نظريته هذه، يُقسِّم تاريخ اليهودية إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ، مرحلة العهد القديم : وهي المرحلة التي بدأت بالحديث المباشر بين الإله وموسى ثم حديث الإله للشعب من خلال الكهنة والأنبياء . والشعب في هذه المرحلة كل لا يتجزأ ، وتأخذ الشعائر شكل العبادة القربانية في الهيكل التي كان يشرف عليها الكهنة . والخطايا في هذه المرحلة جماعية ، كما أن التوبة والندم جماعيان .

المرحلة الثانية ، مرحلة التلمود واليهودية الحاخامية أو التلمودية : وهي المرحلة التي لا يتحدث فيها الإله مباشرة للشعب ، وإنما يتم الحوار من خلال الحاخامات الذين يدرسون كتاب الإله من خلال التفسيرات التي وضعها المفسرون الأوائل ، أي يدرسون التلمود . وتأخذ الشعائر هنا شكل التعبد في المعبد اليهودي تحت قيادة الحاخام ، وتصبح الخطيئة فردية ، وكذلك التوبة . ويُلاحَظ في هذه المرحلة بداية التراجع النسبي للإله (قياساً إلى المرحلة السابقة) .

المرحلة الثالثة ، مرحلة الإبادة وأوشفيتس ودولة إسرائيل : وهي المرحلة التي يختفي فيها الإله تماماً وتصبح الدولة الصهيونية هي المطلق ، إذ كان الإله في المعسكرات يقول للبشر أوقفوا المذبحة ولكنها لم تتوقف ، ولم يستجب أحد . ومع هذا جاءت الاستجابة في شكل دولة إسرائيل . فكأن الإله قد حل تماماً في التاريخ و«صعد» مع الشعب إلى إسرائيل ، ومن ثم فإن هذه المرحلة تتسم بغياب الإله وحضور إسرائيل .

و الذي حدث هو والتحول من العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة إلى تأكيد السيادة والاستيلاء على السلطة ، وهو أمر لا يتم بالنسبة للمستوطنين في إسرائيل وحدهم ، وإنما يحدث لجميع يهود العالم الذين يشكلون أداة ضغط متمثلة في اللوبي الصهيوني والمؤسسات الصهيونية الأخرى ، فكأن حالة النفي تنتهي فعليًا وماديًا بالنسبة إلى المستوطنين وتنتهي نفسيًا بالنسبة إلى يهود العالم . كما أن بقاء الشعب اليهودي متمثلاً في الدولة الصهيونية في فلسطين والجماعات اليهودية في العالم ، وتأكيد سيادة اليهود سواء في إسرائيل أو في خارجها ، أمر مطلق لا يجوز الحوار بشأنه . فمن يقف ضد تعبير إسرائيل عن سيادتها يكون مثل من ينكر واقعة الخروج من مصر ، ومن ثم فإنه يكون كمن ارتكب خطيئة دينية قاطعة تؤدى إلى الطرد من حظيرة الدين . ولا يمكن الحكم على إسرائيل بالمقاييس العادية ، فبقاؤها مطلق ، وهو ما يعطيها الحق في أن تستخدم أحياناً أساليب غير أخلاقية لضمان البقاء . وعلى سبيل المثال ، يمكن الحديث عن حق العرب في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقرير المصير شريطة ألا يؤدي هذا إلى تهديد وجود إسرائيل وبقائها . فكأن جرينبرج يدعو إلى تمحور حلولي وثني حول الذات .

وينطبق الشيء نفسه على الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة التي يجب أن تتحول هي الأخرى إلى جماعة عضوية متماسكة (التمحور الوثني حول الذات مرة أخرى) لها إرادة مستقلة ، تتطهر رؤيتها تماماً من كلٍّ من الليبرالية والعالمية ، بحيث يركز اليهود لا على الأصدقاء الدائمين وإنما على المصالح الدائمة ، ويصبحون ملمين تماماً بموازين القوى وكيفية توظيفها لصالح اليهود وحدهم ولصالح الدولة الصهيونية أيضاً . وبدلاً من أن يضغط اليهود على أمريكا لخفض أسلحتها أو للانسحاب من مناطق مثل فيتنام مثلاً ، انطلاقاً من قيم أخلاقية مطلقة ، لابد وأن يدرك اليهود أن قوة إسرائيل تستند إلى قوة الولايات المتحدة ، كما أن إدراك العرب واليهود لهذا الوضع يشكل مفتاح السلام في الشرق الأوسط .

ولكن إذا كان العهد القديم هو كتاب المرحلة الأولى وكان التلمود هو كتاب المرحلة الثانية ، فما هي كتب هذه المرحلة المقدَّسة ؟ إنها النصوص التي تذكر الشعب اليهودي بالإبادة وبضرورة البقاء (ومن هنا نجد أن جرينبرج يعتبر كتابات إيلي فيزيل ، على سبيل المثال ، كتابات مقدَّسة إذ يدور معظمها حول الإبادة) . وإذا كان الهيكل هو المؤسسة الأساسية في المرحلة الأولى ، والمعبد اليهودي مؤسسة المرحلة الثانية ، فما هي مؤسسات المرحلة الثالثة ؟ المؤسسات الجديدة ليست الهيكل أو المعبد ، وإنما هي المؤسسات الصهيونية : الكنيست ، وجيش الدفاع الإسرائيلي ، والكيبوتس ، والجماعات الإسرائيلية ، ومؤسسات الجباية اليهودية ، والنصب التذكاري الإسرائيلي (ياد فاشيم) ، بل إن بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا) في إسرائيل ليس مجرد متحف وإنما هو تكرار طقوسي لقصة الدياسبورا وإعادة قص لها في أسلوب علماني تعددي في الظاهر ، ديني خفي في الباطن ، فهو مخزون الذاكرة . كما أن إيباك (اللوبي الصهيوني) ، وجماعات الجباية ، هي تعبير عن تأكيد الدياسبورا أنها تقف إلى جانب الظاهرة المقدَّسة (إسرائيل) بدعمها سياسيًا وماليًا .

وإذا كان الكاهن هو الذي يشرف على إقامة شعائر المرحلة الأولى ، ويشرف الحاخام في المرحلة الثانية ، فلابد أن يكون المشرف على إقامة شعائر المرحلة الثالثة هو النخبة الصهيونية القائدة (السياسية والعسكرية) . وبالفعل ، لاحَظ جرسون كوهين أن كثيراً من اليهود يعتقدون أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو الحاخام الأكبر أو الكاهن الأعظم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويضيف جرينبرج أشياء كثيرة عن القيم الأخلاقية ، فيصرح بأن الإبادة ينبغي ألا تصبح مبرراً لليهود لأن ينسبوا للآخرين كل الشرور وأن يتجاهلوا عمليات الإبادة التي لحقت بالآخرين . ولكن ، رغم هذه الديباجات الأخلاقية ، يظل موقف جرينبرج برجماتيًا عمليًا ، فهو لا يتحدث عن التزام الدولة الصهيونية بالقيم المطلقة وإنما يتحدث عن تحالفاتها العملية لتأكيد السيادة اليهودية . ويُلاحَظ أن فكر جرينبرج ينبع من نمط ما بعد الحداثة ، فثمة إنكار لأية مطلقات أو مركز ، وإيمان باستحالة تجاوز حدود التاريخ وتصور لتطور التاريخ باعتباره تعبيراً عن الاختفاء التدريجي للإله المتجاوز حتى يصبح التاريخ مسطحاً تماماً ، دالاً بلا مدلول أو إجراءات بلا معنى ، أو معنى بلا إجراءات ، صيرورة كاملة يفرض جرينبرج داخلها مطلقاته المكتفية بذاتها كالسيادة اليهودية التي لا تقبل الحوار ، فهي دال بلا مدلول أو دال يتجاوز كل الدوال .

٣ـ ريتشارد روبنشتاين :

أحد مفكري لاهوت موت الإله . كان يدرس في كلية الاتحاد العبراني ليصبح حاخاماً إصلاحيًا ، ولكنه حينما سمع عن الإبادة النازية ضد يهود أوربا وجد أن موقف اليهودية الإصلاحية المعادي للصهيونية موقف خاطئ تماماً ، فرُسِّم حاخاماً محافظاً عام ١٩٥٢ في كلية اللاهوت اليهودية . وحصل روبنشتاين على الدكتوراه عام ١٩٦٠ حيث كانت رسالته عن الوجدان الديني تحليلاً نفسيًا للأجاداه يوضح فيها مخاوف حاخامات اليهود من إشكالية العجز اليهودي بسبب انعدام السلطة والسيادة بعد هدم الهيكل .

صاغ روبنشتاين مساهمته للاهوت موت الإله في كتابه **أوشفيتس** (١٩٦٦) والذي يطرح فيه السؤال التالي : إذا كان إله التاريخ موجوداً ، فكيف يمكن للمرء إذن أن يفسر إبادة ستة ملايين من شعبه المختار ؟ ويرفض روبنشتاين الفكرة التي يذهب إليها بعض اليهود الأرثوذكس القائلة بأن الشعب هو أداة الإله ، ومن ثم فإن إبادته ذات مغزى إلهي ، كما أنها قد تكون عقاباً للشعب على انحرافه عن الشريعة والوصايا والنواهي .

ولتفسير واقعة الإبادة ، يستخدم روبنشتاين نموذجين تفسيريين : أحدهما يغلب عليه الطابع الديني الحلولي ، والآخر علمي تاريخي بوجه عام . ولنبدأ بالنموذج الديني الحلولي . يرى روبنشتاين أن الإله أوهم الشعب اليهودي أنه شعب مختار ، وهو ما ساهم في استسلام اليهود للأحداث من حولهم ، وولّد في نفوسهم اليقين بأن الإله سيحفظهم وسط الدمار . بل إن العذاب والشتات ، حسب هذا التصور ، هي علامات الاختيار ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر الذي شجع السلبية في اليهود فنسوا المقاومة . إذ كانت آخر مرة قاوم فيها اليهود هي فترة التمرد الحشموني . وقد هُزم اليهود وأصبح الفريسيون (الذين اختارهم الرومان) قادة اليهود رغم أنهم من دعاة الاستسلام ، وأصبح العجز وعدم المشاركة في السلطة سمة أساسية لليهودية الحاخامية . لقد بدأت حالة الدياسبورا (أي وجود اليهود في المنفى) بالهزيمة العسكرية واستمرت لأن اليهود طوروا ثقافة الاستسلام والخضوع واستوعبوها وعاشوا داخل نطاقها ، أي أن سر استمرارهم يكمن في خضوعهم وخنوعهم . وظهرت شخصية الوسيط (شتدلان) الذي يقوم بالتوسط لدى الحاكم باسم اليهود ويقدم له الالتماسات ويطلب منه استخدام الشفقة مع اليهود ويعطيه الرشاوى نيابة عن اليهود ويقوم بجمع الضرائب نيابة عنه . واستمرت هذه التقاليد حتى العصر الحديث في المجالس اليهودية في أوربا التي كانت تقوم بدور الوسيط بين الجماعات اليهودية والسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية . وقد تعاونت هذه المجالس مع النازيين ونفذت أوامرهم وتولت قيادة الجماعات اليهودية بما يكفل تعاونها مع الجلادين ، ومن ذلك إخلاء اليهود وترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال . وكان تنظيم اليهود عنصراً أساسيًا في منع المقاومة المسلحة ، وكل ما فعله النازيون هو استخدام القيادة الموجودة بالفعل . وكان خضوع اليهود رد فعل آليًا ، فيما عدا حوادث مقاومة متفرقة أهمها انتفاضة جيتو وارسو عام ١٩٤٣ ، ولكن هذه الحوادث تمثل الاستثناء ، إذ لم يقاوم معظم اليهود الذين اعتادوا الخضوع .

هذا هو التفسير الديني عند روبنشتاين . أما التفسير التاريخي الزمني ، فيذهب إلي أن الإله خلق آدم ليحكم الطبيعة ، ولكن التاريخ الإنساني الذي بدأ بآدم تزايد فيه الترشيد البيروقراطي ، وهو اتجاه يصل إلى ذروته مع انتصار التكنولوجيا النازية التي تنزع السحر عن الطبيعة ، ومع هيمنة البيروقراطية النازية التي تحيِّد العواطف الإنسانية ، أي أن الطبيعة والإنسان يصبحان مادة محضة وهو ما يعني موت الإله الذي يحرك الطبيعة والتاريخ ، والذي يمنحهما المعنى . ويتم هذا في وقت توجد فيه قطاعات كبيرة من السكان لا فائدة من وجودها . ومن ثم ، فإن النازية تُعدُّ مَعلماً أساسيًا في الحضارة الغربية ، إذ يصبح بمقدور الدولة إبادة الملايين بشكل منظم . ومن هذا العرض لفكر روبنشتاين ، نجد أن ما سقط ليس الفكر الديني وحسب وإنما الفكر العلماني أيضاً ، ولذا لا يوجد سوى فراغ وعدم ، وعالم لا دلالة له ولا معنى ولا مركز ، كله غياب بلا حضور ، كله سطح بلا تجاوز أو مُثُل .

ويطرح روبنشتاين فكرة الإله باعتبار أنه العدم المقدَّس ؛ الأم آكلة لحم البشر التي تلد البشر لتلتهمهم . والتاريخ الإنساني عبارة عن دورات متكررة ، لا يوجد فيه بعث ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخرة ، فالحياة تقع بين قوس النسيان ، وما الماشيَّح سوى الموت ، وذروة التاريخ الإنساني العبثي هي انتصار التكنولوجيا والبيروقراطية النازية .

وفي قمة عجزه وإحساسه بغياب الإله يعود روبنشتاين للعقيدة الإلهية ، لا باعتبارها عقيدة دينية وإنما باعتبارها الطريقة الخاصة التي يواجه بها اليهود الأسئلة النهائية للحياة بكل أزماتها . فاليهودية هنا ليست نسقاً دينيًا ، وإنما هي تركيبة فكرية (أسطورية) ذات فاعلية نفسية تمكن اليهود من عملية المواجهة هذه .

وتشكل اليهودية الجديدة عودة للطبيعة وللإيقاعات الكونية للوجود الطبيعي . ولذا يدعو روبنشتاين اليهودي أن يعود إلى أولويات الطبيعة . ومن ثم يصبح معنى المشيحانية الحقيقي هو " إعلان نهاية التاريخ والعودة للطبيعة ولدورات الطبيعة المتكررة " . والخلاص النهائي لا يكون بغزو الطبيعة من خلال التاريخ وإنما غزو التاريخ من خلال الطبيعة والعودة إلى الأصول الكونية ، وعلى الإنسان أن يُعيد اكتشاف قداسة حياته الجسدية ويرفض تماماً محاولة تجاوزها : فيجب عليه أن يستسلم لجسمانيته ويتمتع بها . والصهيونية والعودة للتربة هي بشائر عودة اليهودي الذي فصله اللاهوت اليهودي عن الأرض والطبيعة . والصهيونية بهذا المعنى تشير إلى التحرير النهائي لليهودي من سلبية التاريخ وعودته إلى حيوية التجدد الذاتي من خلال الطبيعة .

ومن ثم ، فيجب التأكيد على ما يُسمَّى طقوس الانتقال (من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى) ، ويجب الاحتفال بها مع الاحتفاظ بأصالتها الطبيعية والكونية وقدمها . ويجب أن تتناقل الأجيال التراث اليهودي دون تغيير أو تبديل ، بل ويجب التأكيدَ على الجوانب القربانية في اليهودية على حساب الجوانب العقيدية (يسميها روبنشتاين «البنيوية») لأن القرابين (حتى لو كانت شكلية أو إسمية أو لفظية) توجه عدوانية الشعب وتقلل من إحساسه بالذنب . وهذه عودة كاملة للحلولية الوثنية القديمة . ويُعَدُّ هذا أهم تعبير عن الحلولية بدون إله حيث يقوم الإنسان بكل الشعائر بهدف العلاج النفسي (ثيرابي thera-py) ، وبهذا يتحول المعالج النفسي إلى كاهن عبادة جديدة يحل فيها محل الإله الذي تَوحَّد بالإنسان ومات . وإذا كان الأمر كذلك ، فليس من الغريب أن تكون الصهيونية هي أنقى تعبير عن العقيدة اليهودية ، داخل هذه المنظومة ، ومن ثم فإن تأييدها هو جوهر الحل الذي يقدمه روبنشتاين .

نجح روبنشتاين في أن يقرن الصهيونية بالعقيدة اليهودية ، بل وفي أن يعود باليهودية إلى العبادة القربانية المركزية الوثنية . كما جعل الشعائر الدينية وسيلة للتفريغ النفسي بدلاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أن تكون حركات جسمانية يقوم بها المرء طاعةً للإله وأملاً في أن يُدخل على حياته قدراً من القداسة يساعده على كبح جماحها وتنظيم نفسه . ورغم تطرف أطروحة روبنشتاين ، فإنها تعبِّر عن شيء جوهرى في النسق اليهودي ، خصوصاً اليهودية المحافظة التي ترى اليهودية تعبيراً عن الشعب العضوي اليهودي .

ونشر روبنشتاين كتاباً آخر عام ١٩٧٥ بعنوان **مكر التاريخ** بدأ ينظر فيه إلى الإبادة باعتبارها مجرد برامج تدار بطريقة بيروقراطية ترشيدية تهدف إلى التخلص من الفائض السكاني الناجم عن الانفجار السكاني في العالم ، ويرى روبنشتاين أن يهود العالم محكوم عليهم بالاختفاء شاءوا أم أبوا .

٤ ـ إميل فاكنهايم :

مفكر ديني يهودي من كندا ، وأحد دعاة لاهوت موت الإله . وُلد في ألمانيا ، وتم ترسيمه حاخاماً فيها عام ١٩٣٩ ، ثم هاجر إلى كندا حيث درس الفلسفة في جامعة تورنتو وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٥ ، وعمل أستاذاً فيها ، ثم هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٨٣ حيث يعمل أستاذاً للفلسفة في الجامعة العبرية .

بدأ فاكنهايم حياته الفكرية الدينية بالتركيز على الوجود الإنساني باعتباره النقطة التي تؤدي إلى الإله ، حيث ينظر الإنسان في ذاته وينتظر الكشف الإلهي (وهذه صيغة حلولية مخففة ، فرغم أن الإله داخل الإنسان إلا أنه متجاوز له) . ويميِّز فاكنهايم بين الفلسفة العلمانية والعقيدة الدينية ، فالفلسفة العلمانية تتعامل مع ما هو واضح ومحدد وقابل للتفسير ، أما العقيدة الدينية فتتعامل مع النهائي ، ومع ما لا يمكن الإفصاح عنه : الإله . وقد يتصور المرء ، انطلاقاً من هذه الأطروحات ، أن فلسفة فاكنهايم اكتسبت مركزاً متجاوزاً للحركة التاريخية والمادة الطبيعية ، ولكننا نجد أن النزعة الحلولية عميقة متجذرة ، ولهذا لا يتجاوز الإله الإنسان وإنما ويحل فيه تماماً وتصبح العلاقة بين الخالق والمخلوق حوارية . وفي النهاية ، فإن علاقة الشعب اليهودي بالإله تشكل مركز علاقة الإله بالبشر .

والتاريخ اليهودي الذي يجسد الهوية اليهودية هو المجال الدنيوي الزمني الذي يفصح فيه الخالق عن نفسه . فالتاريخ اليهودي تجسيد لكل من الإرادة (الهوية) اليهودية والإرادة الإلهية ، وهذا الترادف كامن في الخطاب الحلولي .

ولهذا ، نجد أن الهوية اليهودية هي حجر الزاوية في الفكر الديني عند فاكنهايم ، فهو ينطلق من رفض ميراث عصر الاستنارة والإعتاق ، وكذلك من رفض فلسفة إسبينوزا ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذه الفلسفات طلبت من اليهودي أن يصبح إنساناً بشكلٍ عام ، وأن يطرح عن كاهله يهوديته ويكتسب هوية جديدة تتفق مع معايير الحضارة الغربية الحديثة . ولكن هذه الحضارة وفلسفتها العلمانية أثبتت فشلها ، ففي أحضانها نشأت النازية وتمت الإبادة ، وقد وقف اليهود عاجزين تماماً بسبب عدم المشاركة في السلطة وانعدام السيادة ، ولهذا فقدت الحضارة الغربية العلمانية مشروعيتها ولم يعد بوسعها أن تطلب من اليهود شيئاً . ومن هنا يرفض فاكنهايم اليهودية الإصلاحية أيضاً التي تحاول أن تعيد صياغة اليهودية بما يتفق مع فكر الاستنارة .

وقد يتصور المرء أن فاكنهايم على استعداد لتَقبُّل الفكر الصوفي الحلولي اليهودي الذي يدافع عن تفرد الهوية اليهودية باعتبارها شيئاً مقدَّساً . ولكننا سنكتشف أنه يرفض مفكراً مثل روزنزفايج الذي دعا اليهود إلى أن يصبحوا كياناً فريداً موجوداً خارج التاريخ لا علاقة له بحقائق السلطة والقوة السياسية . وهو يرفض هذا لنفس السبب الذي رفض من أجله البديل الغربي ، ذلك أنه يؤدي إلى العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة .

وانطلاقاً من هذه الأطروحات الحلولية الأساسية يقدم فاكنهايم فلسفته الدينية . فالإله يعبِّر عن نفسه في التاريخ اليهودي من خلال أحداث مهمة ودالة ، مثل : الخروج من مصر ونزول التوراة في سيناء ، وسقوط الهيكل . وهذه الأحداث هي ، في الواقع ، أحداث فريدة تبدأ عصوراً جديدة وتغيِّر مسار التاريخ الذي لا يُفهم ، منذ وقوع هذه الأحداث ، إلا من خلالها ، وهي تلقي على عاتق اليهود وكل البشر واجبات جديدة . وهذه الحوادث هي التي تميِّز بين الفترات الأصيلة التي تعبِّر عن الجوهر اليهودي والهوية اليهودية والفترات غير الأصيلة التي ينحرف فيها اليهودي عن جوهره . ويرى فاكنهايم أن الإبادة النازية من أهم هذه الأحداث ، فهي تحطيم للاستمرار ولأية علاقة بالماضي ، وهي النقطة التي انقطعت فيها العلاقة بين الإله والبشر وثبت فيها العجز الكامل لليهود .

إن شكل استجابة اليهود للأحداث يجعل منهم إما يهوداً حقيقيين أو يهوداً زائفين . فاليهودي الأصيل الحقيقي هو الذي يدرك مغزى الحدث ، فإذا كانت الأيديولوجيا النازية هي حيز العدم حيث تُفرَض على الضحية أن ينظر في هوة فارغة تماماً من المعنى ومجردة من أي أمل ، وإذا كانت الإبادة هي فناء الشعب اليهودي ، فإن الاستجابة الحقة هي إدراك هذه الحقيقة ، وهي التي تلقي على عاتق المدرك الوعي بما يسميه فاكنهايم «الأمر الإلهي الجديد» ؛ الأمر أو الوصية (المتسفاه) رقم ٦١٤ ، وهي «عام يسرائيل حي» ، أي «شعب إسرائيل حي (باق)» . وبوسع اليهودي الحقيقي أن يتجاهل الأوامر والنواهي السابقة كافة ، ولكن لا يمكنه تجاهل هذه الوصية على وجه التحديد ، فبعد الإبادة تغيَّر كل شيء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن كيف يحقق اليهود البقاء ؟ يكتشف اليهود حيزاً داخليّاً يمكنهم التقهقر إليه ، حيث يمكنهم أن يدركوا معنى النازية باعتبارها محاولة القضاء على الحياة والهوية اليهودية والعقل الإنساني (ولنُلاحظ هنا الترادف بين "اليهودي" و" الإنساني") . وهم ، هناك في هذا الحيز ، يشعرون بمقدرة على المقاومة ، وهي مقدرة من الإله – إله التاريخ اليهودي . ومقدرة اليهود على المقاومة تعني أن التاريخ اليهودي يستمر ، حتى أثناء الإبادة ، من خلال أفعال المقاومة التي تقوم مقام المتسفاه ، أي تنفيذ الأوامر والنواهي الكبرى التي كانت تُقرِّب المسافة بين اليهودي والإله حتى يتم التوحد الكامل بينهما وينصلح الخلل الكوني (تيقون) . وانطلاقاً من هذا ، يصبح الواجب الديني الأساسي لليهود هو المقاومة والبقاء ، وإلا أصبح النصر من نصيب هتلر . وهذا ما يُطلَق عليه أيضاً «لاهوت البقاء» ، فالبقاء هو التيقون .

ولكن هل للبقاء مضمون أخلاقي وإنساني ؟ تتضح الإجابة على هذا السؤال في تعريف فاكنهايم لأهم آليات إصلاح الخلل الكوني أو الدولة الصهيونية التي هاجر إليها مائة ألف ممن بقوا بعد الإبادة . فإنشاء الدولة الصهيونية لا يقل أهمية عن حادثة الإبادة ، والإيمان بالدولة الصهيونية يصبح أيضاً معياراً للتفرقة بين اليهودي الحقيقي واليهودي الزائف ، فإسرائيل هي مطلق جديد ، وهي أيضاً المكان الوحيد الذي يمكن لليهود فيه أن يعبِّروا عن هويتهم اليهودية . وهي تحل مشكلة العجز اليهودي الذي سبب هذا الانقطاع بين الإله والجنس البشري ، وتسمح لليهود بالمشاركة مرة أخرى في العملية التاريخية وبأن يصبحوا أصحاب سلطة وسيادة . وحينما يهاجم المصريون تل أبيب بعد إعلان استقلال إسرائيل ، فإن سكان كيبوتس ياد موردخاي هم الذين يقومون بالدفاع عنها ، وهو كيبوتس ينتصب فيه تمثال لأحد قادة ثوار جيتو وارسو . ويقول فاكنهايم إنه رأي صورة لأحد يهود أوربا يلبس شال الصلاة (طاليت) وهو ينحني أمام سنكي جندي نازي وبجوارها صورة لجندي إسرائيلي يرتدي الطاليت أمام حائط المبكى . وهذا هو الإصلاح (تيقون) بعينه ، والذي سيستمر مادام أحد الباقين أحياء بعد أوشفيتس يستيقظ يوميًا في الفجر ليصلي عند حائط المبكى ثم يعود للكيبوتس ليؤدي عمله . والصلوات التي تقيمها دار الحاخامية الكبرى في إسرائيل هي التي ستضع الدولة الصهيونية على بداية فجر الخلاص .

أما خارج إسرائيل ، فيتلخص التيقون فيما يلي :

١ ـ الإصرار على احتكار اليهود ، واليهود وحدهم ، للإبادة النازية ، فهم وحدهم الضحية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ تأييد دولة إسرائيل بلا شروط ، والصعود للدولة هو ضرب من ضروب الندم والإقامة فيها هو مشاركة في عملية إصلاح الخلل الكوني .

ولا يوجد جديد البتة في فكر فاكنهايم ، فهو تحديث فقط لكل أفكار الحلولية اليهودية ، خصوصاً القبَّالاه اللوريانية التي تصل إلى درجة من الحلولية تجعل الشعب اليهودي هو الامتداد للخالق في التاريخ ، وتجعل القيم الأخلاقية غير ذات موضوع . ومن ثم يصبح المطلق الديني الأوحد هو بقاء اليهود واستمرار دولة إسرائيل ، والفعل الأخلاقي السليم الوحيد هو تأييدها دون تساؤل ، حتى لو أتت بكل الأفعال الإرهابية الممكنة .

ومن أهم أعمال فاكنهايم : **البُعد الديني في فكر هيجل** (١٩٦٨) ، **ووجود الإله في التاريخ** (١٩٧٠) ، و **العودة اليهودية إلى التاريخ** (١٩٧٨) ، و **الكتاب المقدَّس اليهودي بعد الإبادة** (١٩٩١) .

لاهوت التحرير :

«لاهوت التحرير» حركة دينية في العالم الغربي المسيحي ظهرت في صفوف المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت ابتداءً من أوائل الستينيات ، لكن أطروحاته تحدَّدت وتبلورت في منتصف السبعينيات . وتصدر الحركة عن الإيمان بأن العقيدة الدينية هي في جوهرها رؤية ثورية للواقع ترى أن الإيمان الديني لا يعبِّر عن نفسه من خلال إقامة الشعائر الدينية وحسب ، وإنما أيضاً من خلال الدفاع عن قيم العدل والمساواة الاجتماعية وحقوق الأقليات والمضطهدين ضد الاحتكارات العالمية وقوى الرجعية والطغيان العالمي ، أي أنه موقف ديني يؤدي إلى تبني ما يُسمَّى «قيم التحرير» (ومن هنا التسمية) . ودعاة لاهوت التحرير يتمردون أيضاً على المؤسسات الدينية القائمة باعتبارها مؤسسات تم استيعابها في المؤسسات الحاكمة ، سواء المحلية الرجعية أو العالمية الإمبريالية ، ولهذ أصبحت هذه المؤسسات ، من منظور دعاة لاهوت التحرير ، امتداداً للسلطة توظف الدين والشعائر الدينية في خدمة مؤسسات الطغيان والظلم .

وكما هو الحال دائماً ، تأثر الفكر الديني اليهودي بلاهوت التحرير المسيحي . وكما أدَّت حركة الإصلاح الديني إلى ظهور اليهودية الإصلاحية ، وكما أدَّت الحركة المعادية للاستنارة بتأكيدها لروح الشعب وروح الأرض إلى ظهور اليهودية المحافظة ، وكما أدَّى ظهور موت الإله في المسيحية إلى ظهور مدرسة دينية مماثلة في اليهودية ، فإن ظهور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاهوت التحرير في صفوف المسيحيين كان له صداه في صفوف أعضاء الجماعات اليهودية . ولكن، كما هو الحال دائماً ، نجد أن هناك مرحلة زمنية تفصل بين الصوت والصدى ، وأن لاهوت التحرير ظهر بين اليهود في الثمانينيات .

ولكن لاهوت التحرير اليهودي له خصوصية يهودية نابعة من وضعه الخاص . فلاهوت التحرير اليهودي هو تمرد على لاهوت موت الإله في صيغته اليهودية . ولاهوت موت الإله ـ كما أسلفنا ـ هو في جوهره حلولية وثنية بدون إله (وحدة وجود مادية) ، وعودة إلى المطلقات القومية وإلى تقديس الذات القومية متمثلة في التاريخ القومي . لكن التاريخ القومي اليهودي هو تاريخ اليهود وحسب ؛ تاريخ يستبعد الآخرين ، أي أنه عودة إلى الانغلاق الوثني اليسرائيلي . ويدور تاريخ اليهود المقدَّس حول الأحداث التي تقع لليهود في التاريخ الزمني وحول الأفعال التي يأتون بها . ويرى دعاة لاهوت موت الإله أن أهم حدث هو الإبادة النازية وأن أهم فعل هو ظهور دولة إسرائيل . والإبادة – حسب لاهوت موت الإله – حدث مطلق في التاريخ ينهض دليلاً على موت الإله وغيابه ، ولكن هذا الشعب يدور حول نفسه ويصبح هو ذاته المطلق الوحيد ويؤسس دولة إسرائيل التي تنهض دليلاً على مقدرة هذا الشعب على البقاء وعلى مقدرته على التخلص من عجزه . ومن ثم ، فإن إسرائيل تصبح ـ بالنسبة لدعاة لاهوت موت الإله ـ القيمة المطلقة التي يصبح بقاؤها بأي ثمن هدفاً مطلقاً للشعب اليهودي .

وينطلق لاهوت التحرير من رفض هذه الحلولية الكمونية الوثنية ومن رفض إضفاء المطلقية على اليهود وتاريخهم . فالإبادة النازية حدث تاريخي مهم ولا شك ، ولكنها ليست البداية والنهاية في حياة اليهود ، كما أنها ليست النمط المتكرر في حياة اليهود في العالم ، فقد حدثت تحولات جوهرية لليهود، ولابد من ثم التمييز بين أوضاع اليهود قبل الإبادة وبعدها . فيهود الدياسبورا يعيش معظمهم الآن في سلام في الولايات المتحدة ، وهي بلد لا تعرف تقاليد معاداة اليهود ولا تمارس تمييزاً ضدهم ، وقد حقق اليهود فيها قدراً عالياً من الحراك الاجتماعي والاندماج ، والمنفى لم يعد منفى . غير أن لاهوت موت الإله (في تصور دعاة لاهوت التحرر) يتجاهل هذه الحقائق ويضع اليهود داخل قالب جامد : دور الضحية الأزلية الذي يحتكر الاضطهاد لنفسه ، ولذا فإن لاهوت التحرير لا يذكِّر اليهود بأوضاعهم المتميِّزة في الوقت الحالي والتي تجعل من الإبادة حديثاً مملاً معاداً لا علاقة له بالواقع ، وإنما يذكِّرهم أيضاً بضحايا الإبادة الآخرين ، بل ويذكرهم بضحاياهم ، أي الفلسطينيين (فتاريخ الفلسطينيين أصبح جزءاً من تاريخ اليهود) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينطبق الشيء نفسه على دولة إسرائيل ، فهي جماعة يهودية مهمة ، ولكنها ليست الجماعة اليهودية الوحيدة (المطلقة) ، ولا هي مركز الوجود اليهودي ولا السمة الوحيدة للوجود اليهودي . وهي ليست مضطهدة مهددة بالإبادة ، وإنما هي دولة مسلحة تحرك جيوشها لتضرب جيرانها وبعض سكانها ، أي أن وضع الدولة ، مثله مثل وضع يهود العالم ، قد تغيَّر . ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يذهب لاهوت التحرير إلى أن اليهود واليهودية فقدا براءتهما مع احتلال إسرائيل للضفة الغربية ، ومع اندلاع الانتفاضة التي أصبحت نقطة حاسمة في التاريخ اليهودي وفي تاريخ اللاهوت اليهودي . فلم تعد الدولة تعبيراً عن رغبة اليهود في التخلص من عجزهم وفي تأكيد إرادتهم ، وإنما أصبحت تعبيراً عن إرادة البطش والعنف . بل إن استمرار بقاء الدولة أصبح متوقفاً على موت الأطفال الفلسطينيين ، أي إبادتهم ! وإذا كان لاهوت موت الإله يصر على أنه لا يمكن الإجابة على أي سؤال إلا في حضور الأطفال اليهود المذبوحين ، فإن الانتفاضة تجعل الدولة اليهودية واليهود يواجهون السؤال نفسه : إذا كان اليهود يتذكرون عذاب الإبادة وقسوتها ، فماذا عن عذاب الفلسطينيين ؟ لكل هذا لا يمكن الحديث عن مستقبل اليهود أو عن الهوية اليهودية إلا في ضوء هذا التحول التاريخي . وقد عَرَّفت الإبادة اليهود بأنهم «من ذبحهم هتلر» ، لكن الانتفاضة تطرح أسئلة جديدة : إذا كان اليهود يَعْرفون من كانوا بعد أن حُفرت الإبادة في وجدانهم ، فهل يَعْرفون ماذا أصبحوا بعد أن قامت الانتفاضة وكَسَّرت الدولة الصهيونية عظام الأطفال ؟ إن من الطبيعي أن يتذكر اليهود أوشفيتس وتربلينكا ، ولكن عليهم أيضاً أن يتذكروا صابرا وشاتيلا .

هذا على مستوى قراءة التاريخ ، وعلى مستوى تعريف الهوية ، أما على المستوى الأخلاقي ، فإن الدولة لم تَعُد مطلقاً بعد فك المطلقات الحلولية الوثنية . فإذا كانت الإبادة حدثاً مهمًا ولكنها ليست مطلقاً - فما هو المطلق إذن ؟ يؤكد لاهوت التحرير أن المطلق الوحيد هو القيم الأخلاقية التي وردت في التراث الديني اليهودي (الذي يعرِّفونه تعريفاً إنسانيًا عالميًا) . ولذا ، فإن بقاء الدولة ليس أمراً كافياً ، والتخلص من العجز لا يَجُبُّ التساؤلات الأخلاقية ، فمن يحصل على السيادة يمكنه أن يستخدمها في الخير أو البطش . وبالمثل ، فإن السيادة ليست ميزة خالصة وإنما لها مخاطرها . ومن ينجز معجزة البقاء يمكن أن يكون خيِّراً أو شريراً ، ومن يُكلَّف بالرسالة (الاختيار) يمكنه أن يخونها . ولذا ، يقرر لاهوت التحرير أن إسرائيل ليست فوق يهود العالم أو فوق ضمائرهم . ولذا فعليهم الالتزام بالقيم الأخلاقية وحدها ، وإذا تحركوا فعليهم أن يتحركوا لا لتأكيد أهمية إسرائيل والدفاع عن بقائها ، وإنما لتأكيد القيم الأخلاقية المطلقة . ولن يتم إصلاح الخلل الكوني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(تيقون) من خلال الدولة وإنما من خلال الأفعال الأخلاقية الخيرة . ويجب على اليهود أن يقفوا لا ضد ذبح الأطفال اليهود على وجه الخصوص وإنما ضد ذبح أي أطفال ، وضمنهم الأطفال الفلسطينيين . ويجب على اليهود أن يلجأوا لكل شيء ، وضمن ذلك العصيان المدني ، لوضع القيم الأخلاقية المطلقة موضع التنفيذ .

ويُلاحَظ أن الإيقاع العام للفكر الديني اليهودي لا يزال كما كان منذ بدايته، فقد كان هناك دائماً دعاة الوثنية أو القومية أو الحلولية (الكهنة أو الملوك) الذين يصدرون عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي ، وكان هناك دعاة الأخلاق العالمية والشاملة (الأنبياء وبعض الحاخامات) الذين يدورون في نطاق الإطار التوحيدي . كما أن التوتر بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرير هو نفسه التوتر القديم بعد أن تصاعدت حدته بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبعد أن أصبح الخطاب الوثني أكثر صَقْلاً وأكثر إلماماً بالخطاب الديني وأكثر امتلاكاً لناصيته . ويبدو أنه من الصعب للغاية حسم مثل هذا الصراع بسبب التركيب الجيولوجي لليهودية الذي يوفر لكل المتحاورين إمكانية أن يجدوا سوابق وشواهد تدعم وجهة نظرهم وتعطيهم شرعية دينية .

وقد تصاعدت حدة لاهوت التحرير مع تصاعد حدة الانتفاضة ، فالانتفاضة هي التي أثبتت أمام الجميع أن الدولة الصهيونية ليست مطلقاً وأن التاريخ اليهودي ليس مقدَّساً وأن أرض فلسطين ليست أرض ميعاد تنتظر سكانها (فهي ليست سوى أرض مأهولة بسكانها الذين يحيون ويموتون ويحبون ويجاهدون) . ويُلاحَظ في الحوار اليهودي المسيحي ، أن المحاورين اليهود كانوا يصرون على ضرورة قبول الدولة اليهودية باعتبارها مطلقاً دينيّاً ، ثم أخذوا يتنازلون عن هذا المطلب . ومن أهم مفكري لاهوت التحرير آرثر واسكو ومارك إليس .

مارتن هايدجر والنازية :

في كتابه المعنون **الحداثة الرجعية : التكنولوجيا والثقافة والسياسة في جمهورية فايمار والرايخ الثالث** يُبيِّن جيفري هيرف أن الحداثة لم تكن حركة نحو اليمين أو نحو اليسار ، إذ يرى أن هناك حداثة رجعية فاشية هي حداثة انتصار الإرادة على العقل ، والروح المبدعة على الحدود . وفي إطار هذه الحداثة ترتبط الإرادة المنتصرة بالعنصر الجمالي الذي يصبح هو وحده مبرر الحياة ، ولذا تُعَلَّق (أي تُعطَّل) كل المعايير الأخلاقية وتهيمن الرغبة التي لا تعرف أية حدود . وفي حديثه عن هذه الحداثة الرجعية يُبيِّن هيرف أن مصادرها متعددة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذكر من بينها ما يلي : الرومانسية ـ أيديولوجية الفولك ـ المصطلح الوجودي عن الذات والأصالة ـ الداروينية الاجتماعية ـ فلسفات الحياة Lebensphilosophie ـ احتفاء نيتشه بالجمال الذي يتجاوز الأخلاق أو الذي لا علاقة له بالأخلاق (بالإنجليزية : أمورال amo-ral) ـ الاحتفال بالجمال باعتباره معياراً " أخلاقيًا " ـ تمجيد التكنولوجيا وربطها بالقيم المتجاوزة للأخلاق . ويستمر هيرف ، عبر كتابه ، في تعداد هذه العناصر وغيرها .

ونحن نرى أنه رغم دقة ملاحظاته وجدَّتها إلا أن كتالوج العناصر الذي قدَّمه يتسم بعدم الترابط . وقد يكون من الأجدى أن نرى نمطاً عامًا في الحضارة الغربية : تصاعد معدلات الحلولية الكمونية والانتقال من العقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) إلى اللاعقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) والتأرجح بين الذات والموضوع (وهو نمط عام يصل إلى قمته في فلسفة ما بعد الحداثة) .

وفلسفة مارتن هايدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦)، الوجودي والفينوم بنولوجي، هي جزء من هذا النمط العام . وهو يُعدُّ من أهم فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، إن لم يكن أهمهم على الإطلاق ، وينزله البعض منزلة أفلاطون وهيجل . وقد تأثر هايدجر بأعمال جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ونيتشه وكيركجارد وهوسرل ، ويبدو أن الفكر الغنوصي ترك أثراً عميقاً فيه . وكتابه الأساس : **الوجود والزمن** (١٩٢٧)، بالإضافة إلى كتبه الأخرى : **كانط ومشكلة الميتافيزيقا** (١٩٢٩) و **ماهية الحقيقة** (١٩٤٣) و**مدخل إلى الميتافيزيقا** (١٩٣٥) و **رسالة حول الإنسانية** (١٩٤٧) و **ما الفلسفة؟** (١٩٥٥) .

ونقطة انطلاق هايدجر هي الوجود ، فالسؤال الأساسي عنده هو : ما معنى الوجود ؟ فهو السؤال الذي يجب أن يسأله كل إنسان ليصبح إنساناً . ويذهب هايدجر إلى أن الخلل الأساسي في الأنطولوجيا الغربية أنها سقطت في ثنائية راديكالية فظنت أن الوجود هو كيان موضوعي مفارق للذات ثم قامت بفصل الواحد ، وبحدة ، عن الآخر ، فحوَّلت العالم الموضوعي إلى مادة لا أسرار فيها ولا سحر خاضعة للحَوْسَلة منفصلة تماماً عن الذات ، كما تحوَّل الإنسان إلى عقل أداتي وذات متعجرفة متكبرة تنفصل تماماً عن واقعها وتتعالى عليه بدلاً من التفاعل معه ، تحاول أن تغزو الكون بدلاً من أن تعيشه ، وتحاول أن تفرض صورتها على الكون وتحتل مركزه وتحوسله . وتتجلى هذه الرؤية من خلال فلسفة ديكارت وفكر حركة الاستنارة والفلسفة الوضعية والنزعة التكنولوجية .

وفي محاولة تجاوز هذه الثنائية يرفض هايدجر العودة للإله ، كما يرفض أن يعود إلى الذات المستقلة ، وبدلاً من ذلك يطرح مشروعه الفلسفي الذي يصفه هو نفسه بأنه عملية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هدم (بالإنجليزية : ديستراكشن destruction ـ بالألمانية : ديستروكسيون on للفلسفات السابقة ، بل ولكل الأنطولوجيا الغربية ، أنطولوجيا الذات (ويتحول الهدم [ديستراكش] إلى تفكيك بالإنجليزية : «ديكونستراكشن ction في خطاب دريدا الفلسفي ، الذي يدين بالكثير لفلسفة هايدجر) .

وجوهر عملية التفكيك أو الهدم هذه هو الاقتراب من الواقع بدون المنظار بحيث يتجاوز الدارس ثنائية الذات والموضوع وينظر إلى الوجود (شأنه في فلاسفة عالم الحياة) باعتباره الاثنين معاً . ومن هنا اهتمام هايدجر (ونيتشه بالفلسفة اليونانية قبل سقراط ، وهي فلسفة لم تعان في تصوره من انقسام الموضوع .

ونحن نذهب إلى أن هذا الانقسام الحاد بين الذات والموضوع هو سمة أساسية الرؤى الحلولية الكمونية المادية التي ترفض فكرة المركز المفارق للمادة المنزه عنه أن تعين مركزاً كامناً أو حالاً فيها ، فتجده إما في الإنسان أو في الطبيعة ، إما في الذات في الموضوع . وتحسم هذه الثنائية الصلبة ذاتها إلى واحدية مادية بذوبان الموضوع ، أو الموضوع في الذات (وإن كان البديل الأول هو الأكثر شيوعاً) . انقسام لم تسلم منه الفلسفة اليونانية أو أية فلسفة حلولية كمونية مادية ، قبل بعده ، في اليونان أو خارجها . ونمط الثنائية الصلبة التي تؤدي إلى واحدية يظل في فلسفة هايدجر .

يتناول هايدجر قضية الوجود من خلال مفهوم «دازاين Dasein» وهي كلمة حرفياً «الوجود هناك» (بالإنجليزية : بينج ذير being there) أي «الوجود ـ في . وفي سياق فلسفة هايدجر يمكن ترجمتها إلى «الإنسان» أو «حالة كون الإنسان» (بالإنجليزية : ذي مود أوف بينج هيومان the mode of being human) . وأهم وجود الإنسان أن وجوده لا يشبه وجود الشيء ، فقانونه هو عدم التعين ، فهو ثابت ، ليست له طبيعة محددة . وبما أن لكل فرد الحق في أن يقول « أنا » ، فـ الإنساني يتغيَّر من فرد لآخر . فهذا الأنا ليس جوهراً ، أي ليس موضوعاً ثابتاً التغيرات ، بل هو ينبوع للإمكانات واستعداد لتحققها (عبد الرحمن بدوي) .

وتوجد هذه الذات الإنسانية في عالم الصيرورة والزمان ، لا فكاك لها منه ، وجود مستقل عنه . بل إن وجودها نفسه هو ثمرة علاقتها مع العالم المادي ومع ومع هذا لا تُردُّ الذات إلى واقع خارج عنها ولا تُستوعَب تماماً فيه . فالعلاقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والموضوع علاقة جدلية . فالواقع الذي نتفاعل معه يصوغنا بقدر ما نصوغه نحن ، ونمتلكه بمقدار ما يمتلكنا . والذات هي إمكانية دائمة ومشروع مستمر وحوار مستمر مع العالم . وعملية الحوار هذه تعني الصيرورة الدائمة ، فالواقع الذي نتفاعل معه مركب تماماً ، ولا يمكن إخضاعه لعملية الرد الفينومنولوجي أو التجريد الإيديتيكي التي تعلق الواقع (على الطريقة الهوسرلية) . ولا يمكننا استنفاد معناه تماماً ولا يمكن حوسلته أو استيعابه في مقولات منطقية مجردة عامة (ومن هنا عجز العلم الطبيعي عن فهم الوجود) .

والإنسان كائن أُلقي به في عالم ليس من صنعه ، ولكنه مع هذا عالمه الوحيد ، ولا يمكن للإنسان أن يأخذ موقفاً تأملياً محايداً من هذا العالم ، فنحن نصبح جزءاً من الأشياء التي في وعينا ، ولذا فإن الإنسان ليس كائناً عارفاً وإنما هو كائن قلق بشأن مصيره في عالم غريب عنه . ويتسم الإنسان بأنه ليس لديه ردود فعل (موضوعية) للأحداث ، فهو «يستجيب» لها ، ومن ثم فالإنسان محتم عليه الاختيار ومحاولة فهم العالم .

واللغة من أهم العناصر في الوجود الإنساني ، فهي أساسية له (بل إنها توجد قبل وجود الإنسان الفرد) ، وهي طريقة انفصال الإنسان عن الوجود ليشعر الإنسان بالدهشة تجاهه بل ويشعر بوجوده (على عكس الكائنات الأخرى ، والوجود بالنسبة لها كينونة وليس حضوراً ، فهي كائنة في الوجود لا تعيشه) . ولكن اللغة هي أيضاً أداة اتصالنا مع العالم ومع الآخرين . ولكنها أداة ليست موصلة تماماً لا يمكنها الإفصاح تماماً عما لا يمكن تسميته ، ولذا فاللغة لا يمكن أن تمثل الواقع كما أن اللغة تفقد حدتها بسبب تفاهة اللغة السائدة . ولعل هذا هو الذي حدا بهايدجر أن يحاول تطوير مصطلحه الخاص تماماً وأن ينحت كلمات جديدة ويلجأ للعب بالكلمات حتى يُفصح عن رؤيته الخاصة (كما فعل دريدا بعده متأثراً به) . كما أن هايدجر كان يذهب إلى أن لغة الشعر أكثر قدرة على التوصيل من اللغة العادية . ومع هذا كان يذهب إلى أن بعض الأفعال مثل «يستقر» و«يرى» تكشف عن الحقائق الأولية للوجود الإنساني .

لكن الإنسان كمشروع مستمر وإمكانية غير متحققة قد يفقد ذاته ويصبح «الهُم» . وهي عبارة تعني ببساطة «الشخصية المتوجهة نحو الآخر» (بالإنجليزية : أذر دايركتيد -oth er directed) والإنسان الاجتماعي بالمعنى السلبي ، أو الإنسان المستوعَب تماماً في الأعراف الاجتماعية وآراء الآخرين (ولكن هايدجر يصر دائماً على تحاشي المصطلحات السوسيولوجية ويفضل المصطلحات الفلسفية الأنطولوجية التي ينحتها بسرعة وغزارة تسبب كثيراً من الصداع الذي لا مبرر له) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا « الإنسان الهُم » هو إنسان ذو بُعد واحد يحكم على نفسه بمعايير الآخرين ويُستوعَب في الآخرين ويسقط في لغو الحديث الذي يقف على الطرف النقيض من الحوار، فالحوار هو أن ترى الآخرين باعتبارهم بشراً (دازاين) لهم وجودهم الخاص المتعين، لا باعتبارهم أشياء موضوعية (داس مان : الهُم) بحيث يمكن الدخول معهم في علاقة حميمة تكشف شخصيتهم الأصيلة والحقيقية . والإنسان الهُم هذا لا يشعر بالدهشة الحقيقية وإنما يتسم بحب الاستطلاع ، وحب الاستطلاع هو الرغبة في اقتناء الجديد والمختلف دون أي إحساس حقيقي بالدهشة .

وحتى لا يسقط الإنسان في حالة الهُم هذه فهو دائماً في حاجة إلى الإحساس بالرهبة (بالألمانية : أنجست Angst ، وبالإنجليزية : دريد dread) ويظهر هذا الإحساس عندما يدخل الإنسان في علاقة مع العدم من خلال إدراكه للموت (وهي لحظة لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تدركها ولا يمكن للحياة اليومية أن تتعايش معها) . وعندما يمارس الإنسان الإحساس بالقلق وبتناهي الوجود الإنساني وبزمنيته ، تسقط التفاصيل اليومية ويتوارى العالم العادي ويتفتح الوجود ويكشف عن نفسه وتكتشف الذات أصالتها وإمكانياتها وضمنها إمكانية الحرية والاختيار ، حرية أن تختار الذات نفسها وأن تمسك بنفسها ، ومن ثم تكتشف الذات قدرتها على تجاوز العالم وعلى الخروج من حدودها الضيقة (الهُم) لا لتعرف العالم وحسب ولتكون فيه وإنما لتوجد فيه ، أي أن يتحقق وجودها الأصيل والحقيقي في العالم في الزمان . وتصل قمة الحرية إلى حرية الإنسان في أن يقابل الموت.

ورغم حديث هايدجر عن العلاقة الجدلية التفاعلية التبادلية بين الذات والموضوع ، ورغم محاولته المستميتة أن يحافظ على المسافة بين الذات والموضوع إلا أنهما يلتحمان (بسبب غياب المركز المفارق) بعد فترة من التأرجح (المأساوي أحياناً ، والملهاوي أحياناً أخرى) بين الذات المطلقة التي لا حدود لها ولا قيود عليها والتي تلتهم الموضوع ، والموضوع المطلق ، الذي يتجاوز كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان الفرد ، ويبتلع كل الذوات ، أي أن هايدجر يتأرجح فلسفياً بين العقل الإمبريالي النيتشوي الداروينى والعقل الأداتي البرجماتي . فلنأخذ على سبيل المثال مفهوم هايدجر للتاريخ الإنساني، التاريخ بالنسبة له ليس تاريخاً متعيناً ، وإنما هو زمان وحسب ، تجربة ذاتية وجودية ، يصبح الوجود من خلالها حضوراً ، أي تجربة فريدة معاشة ، وهكذا يختفي أي مركز مفارق للإنسان ولا تبقى إلا الذات . (وسنرى كيف أن الذات الهتلرية تبتلع الموضوع الألماني بل وكل الوجود) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويحدث الشيء نفسه للذات ، إذ يذهب هايدجر إلى أن الذات لا يمكن أن تكون نفسها في أية لحظة ، فهي في حالة صيرورة مقلقة ، ولا يمكن للإنسان الفرد أن يمسك بوجوده تماماً ، فوجود الإنسان يسبقه دائماً كمشروع غير متحقق بعد ، وهو مشروع دائم لا ينتهي ، ومن ثم فالوجود الفرد إن هو إلا وهم .

وللخروج من هذه الحالة اقترح هايدجر ، كما أسلفنا ، تجربة الرهبة (أنجست) الناجمة عن مواجهة الموت والعدم والتأمل فيهما . ولكن هذا ليس هو الحل الوحيد ، فهناك الحل الألماني المثالي/ المادي المألوف ، أي افتراض أن الذات والوجود هما شيء واحد ، أو أن كليهما موضع الحلول . ولكن هذا الحل الألماني هو حل مؤقت إذ عادةً ما تنحل هذه الوحدة العضوية الكاملة إلى عنصر واحد يغلب الآخر ، وهو عادةً العنصر الموضوعي الذي يطوق الذات ويذيبها فيه ، أي أن الوحدة العضوية تتحول إلى واحدية مادية . وهذا أمر متوقع تماماً ، فالفرد القلق المنعزل الملئ بالقلق والرهبة (أنجست) سيحاول بأقصى جهده أن يخرج من حالة العزلة هذه ، حالة الوهم ، وإحدى وسائل الخروج التوحد بالذات الجماعية ، بالوجود الجمعي بديل الإله (وهذا هو الحل الذي اقترحه هيجل ودوركهايم وغيرهما) .

والعنصر الموضوعي أو الكلي هنا هو الوجود . وقد لاحظ أحد مؤرخي الفلسفة أن مضمون كلمة «وجود» عند هايدجر لا يختلف كثيراً عن مضمون كلمة «إله» في الفكر البروتستانتي . ولذا فهو يتحدث عن أن « الوجود يدعونا » و «يخبئ نفسه » و « يكشف عن نفسه لنا » . ولكن هذا الإله إله مادي ، ولهذا يأخذ أشكالاً مادية مختلفة ، وهكذا نكتشف أن الوجود يصبح أحياناً الطبيعة ، ومن ثم يطرح هايدجر فكرة المجتمع العضوي الذي يلتحم فيه الإنسان بالطبيعة وبالآخرين (ومن هنا سُمِّي «فيلسوف الغابة السوداء») وتظهر عملية تطويق الموضوع للذات في أن كلمة «دازاين Dasien» لم تعد تعني «وجود الفرد بشكل متعيِّن في الواقع» بل تصبح «الوجود الفردي باعتباره شكلاً من أشكال الوجود الجماعي» . ويضيق نطاق الحلول ويتركز فبدلاً من الإنسانية ككل باعتبارها مركزاً الحلول (كما كانت تدَّعي الهيومانية الغربية) يصبح مركز الحلول هو « الوجود الألماني» . (« الألمان شعب مختار ، مفعم بقوى الأرض والدم ، وعلى الطلبة أن يعلنوا التزامهم بذلك » ـ « لقد أدَّت الثورة الاشتراكية الوطنية إلى انقلاب كامل في الوجود الألماني » ـ «الفرد في حد ذاته [أينما كان] لا قيمة له ، فأهم شيء هو مصير شعبنا » ـ « أيها الطالب الألماني ، خلال تجوالك ومسيراتك الطويلة ، تلمس بقدميك أراضي الجبال والغابات والأودية في «الغابات السوداء» فإنك تلمس الأرض التي أنجبت البطل . دونما سلاح ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أطلق البطل نظراته متحدياً البنادق الموجهة إليه وعانق النهار وجبال موطنه حتى يموت وعيناه مثبتتان على الأرض الألمانية وعلى الشعب الألماني والرايخ ») . وتزداد درجات تركز الحلول ويضيق نطاقه وبدلاً من الشعب الألماني تصبح الدولة الألمانية هي موضع الحلول فيتحدث هايدجر عن « وجود الدولة » (بالألمانية : دازاين ديس شتاتيس -Dase in des Staates") « أهم شيء هو مصير شعبنا في دولته » . « لقد أيقظ هتلر الإرادة لوجود الدولة في الفولك » . ونصح هايدجر الشباب بأن تنمو شجاعتهم دائماً « لينقذوا جوهر الشعب ولإعلاء القوى الداخلية للشعب في إطار الدولة » .

وهكذا يهيمن الموضوع أو الذات الجماعية تماماً ، ولكن التأرجح مع هذا لا يتوقف إذ تتزايد درجات الحلول تركزاً وضيقاً إلى أن نصل إلى الذروة وننتقل من الموضوع إلى الذات مرة أخرى حين يتم استيعاب الدولة نفسها في الإنسان الفرد الأسمى ، هتلر ، الذي « جمع إرادة الأمة في فرد واحد » . « إن الفوهرر نفسه ، هو وحده ، الحقيقة الألمانية في الحاضر والمستقبل ، وهو قانونها . . . هايل هتلر » ، أي أن المبدأ الواحد ، جوهر وحدة الوجود المادية ، يصبح أولاً الوجود الجمعي والوجود كطبيعة ، ثم يضيق نطاقه ويتركز فيصبح الشعب الألماني ، ثم الدولة الألمانية ، وأخيراً الفوهرر . وكما قال هايدجر ، إن قاعدة وجود الإنسان الألماني «يجب ألا تكون هي فرضيات أو نظريات [رفض الميتافيزيقا] ، فالفوهرر ، هو وحده ، حقيقة الحاضر والمستقبل وقانونهما ، فهو منقذ شعبنا . . . هو المعلم ورائد الروح الجديدة » (من رسالة هايدجر إلى الفوهرر) ، هو مركز الحلول ، هو الإله المادي والوثن الأعظم . لكل هذا ينحل الدازاين تماماً في الذات النيتشوية : « إن الفلسفة تقف وراء هتلر ، لأن هتلر يقف إلى جانب الوجود » .

وتظهر علمانية هايدجر الشاملة ، وماديته الراديكالية النيتشوية الجديدة ، في تحريضه الجامعة الألمانية على أن تخوض غمار حرب حاسمة بروح الاشتراكية الديموقراطية (النازية) التي يجب ألا تخنقها أية نزعات إنسانية (هيومانية) أو مفاهيم مسيحية . كما تظهر هذه العلمانية المادية الشاملة في تبنيه للحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، إذ كان يرى ضرورة توطين اليهود في فلسطين أو أي مكان آخر خارج ألمانيا وأوربا .

كان النازيون يعتبرون هايدجر فيلسوفهم ، ونحن نرى أنهم كانوا على حق في تصورهم هذا . فقد انضم هايدجر إلى الحزب النازي عام ١٩٣٣ وكان من أعز أصدقائه بيوجين فيشر ، وهو ممن دافعوا عن القتل الموضوعي أو الأداتي للمعوقين وعن إبادة اليهود . وانطلاقا من رؤيته النازية دافع هايدجر عن المشروع الصهيونى الذى يطالب بطرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليهود من أوطانهم (باعتبارهم شعبا عضويا) ليعاد توطينهم فى فلسطين (باعتبارها وطنا قوميا لهم) . كما كانت زوجة هايدجر نفسها ترى أن الأمومة هي الحفاظ على الميراث العرقي . وقد تنكر هايدجر لأستاذه هوسرل عام ١٩٣٣ لأنه يهودي ، وكان يتجسس على زملائه لحساب السلطة النازية ، وهو ما أدّى إلى طرد بعضُهم . (يُوثق كتاب فيكتور فارياس Victor Farias [عام ١٩٨٧] هذا الجانب من حياة هايدجر الفلسفية) . ومن الجدير بالملاحظة أن أستاذاً ألمانياً اسمه جيدو شنيبرجر Guido Schneeberger نشر عام ١٩٦١ كتاباً يضم ٢١٧ نصّا نازيًا لهايدجر .

ويبدو أن هايدجر أدرك خطأه عام ١٩٣٤ ومن ثم استقال من رئاسة جامعة فرايبورج . ولكن من المعروف أنه استمر مع هذا في دفع اشتراكات العضوية في الحزب النازي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد كتب المفكر الألماني كارل أوديث في مذكراته أنه تحدث مع هايدجر عام ١٩٣٦ وأن هايدجر عبَّر عن إيمانه الكامل بهتلر ، وأخبره أن الطريقة النازية هي الطريقة الأمثل لألمانيا . وحتى بافتراض أن هايدجر ابتعد عن النازية السياسية ، فمما لا شك فيه أن نسقه الفلسفي ظل كما هو ، يُشكِّل تربة خصبة لظهور الأفكار النازية ، شأنه في هذا شأن كل « فلسفات الحياة » اللاعقلانية المادية .

كان هايدجر يتصور أن النازية هي روح العالم المتجسدة التي ستزاوج بين التكنولوجيا والثقافة (« رسالة الشعب الألماني ») . وهو لم يكن مخطئاً تماماً في تصوره ، فقد قام النازيون بالفعل بمزاوجة التكنولوجيا والثقافة الألمانية ، بل إنهم كانوا يرون أن التكنولوجيا هي التعبير البراني عن إرادة القوة الألمانية ، وكانوا يرون أن ألمانيا بوجودها بين روسيا والولايات المتحدة أصبح بوسعها أن تزاوج بين التكنولوجيا وروح الشعب ، فالتكنولوجيا الألمانية تنبع من أعماق الحضارة Kultur الألمانية . وهي روح مطلقة لا تتقيد بأية قيم بورجوازية ، روح لا متناهية لا تعرف سوى القيم الجمالية . وهكذا أمسك بروميثيوس الجديد بالنار ، مسلحاً بحس جمالي عميق وبشهية لا تعرف الحدود وبإدراك للذات كمطلق ، فأحرق الأخضر واليابس . وقد أدرك هايدجر تدريجيًا أن هذا الالتحام النازي بين الذات والموضوع وبين التكنولوجيا والثقافة ، خارج إطار المنظومات الأخلاقية ، هو في واقع الأمر مرض وليس حلاً . ولكن إدراكه هذا ظل مقصوراً على الحالة النازية وحسب ، ولهذا لم يراجع منظومته الفلسفية .

ولا تمثل رؤية هايدجر العلمانية الإمبريالية الشاملة انحرافاً عن مسار الحضارة الغربية الحديثة ، فهي جزء من نمط عام متكرر يتمثل في التأرجح بين الذات والموضوع ، وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حسم هذا الصراع لصالح الموضوع أو لصالح الموضوع متجسداً في الذات الإمبريالية ، كما يتمثل الانتقال التدريجي من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية التي تتضح في تقديس هيجل للدولة البروسية (إله يسير على الأرض !) وأفكار نيتشه الداروينية عن إرادة القوة وميول ياسبرز النازية والتوجهات النازية والصهيونية لبول دي مان تلميذ هايدجر النشيط المخلص .

والنازية ما هي إلا تجل متبلور لهذا الاتجاه حين أصبح الدازاين الألماني الجمعي هو الفولك الذي تجسد في هتلر واحد وأصبح الآخرون مثل أيخمان ، منفذين عاديين تسير وراءهم الملايين .

ويمكن فهم نازية هايدجر ، شأنها شأن صهيونيته ، من خلال هذا السياق . فالنازي الإمبريالي الذي يُجسد إرادة القوة يُحوسل الآخرين ويُحركهم ليخدم مصالحه أو مصالح أمنية ، فهو ينقل اليهود إلى فلسطين (أو ينقل الفلسطينيين منها) أو إلى معسكرات الاعتقال واللاجئين ، حسبما تمليه عليه الظروف الطارئة والمصالح المادية الثابتة وموازين القوى ، دون التقيد بأية قيم أخلاقية ، إذ لا توجد إلا قيم جمالية . ومن المعروف أن النازيين تمسكوا بالقيم الجمالية أيما تمسك ، فكانت واجهات معسكرات الاعتقال من الطراز التيرولي ، كما كان الجنود الألمان يسمعون موسيقى موتسارت وفاجنر بينما كان يُساق الملايين إلى معسكرات الاعتقال التي تتسم بالانضباط الشديد .

ولعل إدراك العالم الغربي للنزعة الإمبريالية (الإبادية) الكامنة في مشروع هايدجر الحضاري الحديث هو ما يدفعه لإخفائها بشتى الوسائل والطرق ومن ذلك محاولة إخفاء الحقائق الصلبة . ولهذا تبذل جهود مضنية لإخفاء حقيقة أن دول الحلفاء (التي تتباكى الآن على ضحايا النازية) لم تفتح أبوابها للمهاجرين من المناطق التي وقعت تحت نفوذ النازي ، وأن قوات الحلفاء (بقيادة إيزنهاور) لم تكن متحمسة لضرب السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الاعتقال لتوفير الطاقة العسكرية . وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم ما حدث لجيدو شنيبرجر فقد وجد صعوبة بالغة في نشر كتابه عن نازية هايدجر ، وحينما نشره بطريقته الخاصة ، اختفى الكتاب من أرفف المكتبات ، ثم قوبل بالصمت من المؤسسات الأكاديمية (التي تلتزم الصمت أيضاً تجاه توجهات ياسبرز ودي مان النازية) ، فعدم التزام الصمت يعني فتح باب الاجتهاد فيما يتصل بالنازية ودلالتها المركزية بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة ، الأمر الذي لا يمكن لهذه الحضارة تحمله ، إذ قد تشكل ضربة في العمق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض التغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية :

رغم كل الهستريا الإعلامية الصهيونية وغير الصهيونية ضد أية محاولة لتناول ظاهرة الإبادة بعقلانية واتزان ، يمكن أن نلاحظ تغيرات هامة بدأت تدخل على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية :

١ ـ بدأت محاولات إسرائيل في استخدام الإبادة لتبرير استمرارها في ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين تصبح أمراً ممجوجاً ، وبدأ بعض المفكرين اليهود وغير اليهود يعبِّرون عن رفضهم لمثل هذا المنطق الابتزازي . كما بدأ كثير من يهود العالم يضيقون ذرعاً بجعل الإبادة هي النقطة المرجعية النهائية في رؤيتهم للكون والأغيار .

٢ ـ بدأ الخطاب السياسي في الغرب وفي إسرائيل يرفض التابو (التحريم) الذي يمنع تشبيه الإبادة النازية ليهود الغرب بأحداث مماثلة في التاريخ الماضي والوقت الحاضر . وقد تجرأ عدة متحدثين غربيين (من بينهم يهود) على تشبيه ما يحدث للفلسطينيين على يد الإسرائيليين بما حدث لليهود في أوربا على يد النازيين . فعلى سبيل المثال ، صرح الكاتب الإسرائيلي يهوشاوا بأنه يفهم الآن سبب جهل الألمان بما حدث لليهود بعد أن رأى الإسرائيليين يرفضون معرفة ما يحدث للفلسطينيين . ويشير اليهود السفارد والشرقيون إلى اليهود الغربيين بأنهم " أشكي نازي" وهو نوع من التلاعب بالألفاظ يشير إلى أن ما كان محرماً أصبح مباحاً . ووصف البروفسير لايبوفيتز سياسة إسرائيل في لبنان بأنها نازية يهودية (بالإنجليزية : جوديو/ نازي Judeo-Nazi) .

٣ ـ نعتقد أن الأمور بعد توحيد ألمانيا وتحوُّلها إلى قوة عظمى ستتغيَّر كثيراً، وسيُنظَر إلى حادثة الإبادة النازية ليهود أوربا نظرة أكثر تفسيرية وتركيباً واتزاناً. كما أن كثيراً من الوثائق الألمانية والسوفيتية التي لم تُنشَر بعد ستجد طريقها إلى النشر . ولعل هذا يوفر جواً علميّاً أكثر استقراراً وطمأنينة ، بعيداً عن هستريا الأيقنة الكاملة للإبادة لصالح اليهود، وعن هستريا الإنكار الكامل لها (بالمعنى العام ، أي الإبادة عن طريق التجويع والسخرة ؛ والمعنى الخاص ، أي التصفية الجسدية) .

العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود :

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود . أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين